جوزفين تاي

شلن واحد من أجل الشموع

ترجمة محمد يحيى



شلن واحد من أجل الشموع

تأليف

جوزفين تاي

ترجمة

محمد يحيى

مراجعة

هبة عبد العزيز غانم



شلن واحد من أجل الشموع

جوزفين تاي

A Shilling for Candles

Josephine Tey

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٣٤٥ ١

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٣٦.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات

الفصل الأول

تجاوز الوقت السابعةَ بقليل في صباح يوم صيفي، عندما شق ويليام بوتيكاري طريقه المعتاد هابطًا من فوق قمة الجُرف على العشب القصير. وخلف مرفقه، على بُعد مائتَي قدمٍ بالأسفل، توجد القناة، وهي ساكنة ومتلألئة للغاية تلألؤ العقيق الأبيض. ولم يكن يحيط به سوى الهواء النقي الساطع، الخالي حتى الآن من العصافير. ووسط هذا الجو المُشمِس، لا يوجد صوت باستثناء صراخ بعض طيور النَّورَس على الشاطئ البعيد؛ ولا يوجد نشاط بشري إلا للجسد الضئيل الوحيد لبوتيكاري نفسه، ذلك الجسد القوي الداكن المتصلب. وقد أعلنت قطرات الندى الكثيرة على العشب البكر عن ولادة يوم جديد أهدانا الخالق إياه. لكن ليس بالنسبة إلى بوتيكاري، بالطبع. إذ إن ما أعلنه الندى لبوتيكاري هو أن ضباب الساعات الأولى من الصباح لم ينقشع بعد ولن ينقشع إلَّا بعد صعود الشمس إلى كبد السماء. أدرك عقله الباطن هذه الحقيقة ونحَّاها جانبًا، بينما فكَّر عقله الواعي فيما إذا كان عليه أن يستدير نحو جاب ويعود إلى محطة خفر السواحل، بعد أن ثارت شهيته لتناول الإفطار، أم يستمر في السير، نظرًا لصفاء الجو، حتى ويستوفر لشراء صحيفة الصباح، ومن ثم يقرأ عن آخر جريمة قتل وقعت، مبكرًا بساعتين عن الوقت الذي كان سيقرأ عنها فيه. بالطبع، بسبب اللاسلكي، لم تَعُد جريدة الصباح هي المصدر الأول لمعرفة ما يقع من مستجدات، كما يمكنك أن تقول. لكنها كانت غايةً في حد ذاتها. ففي الحرب أو السلام، يجب على الرجل أن تصبح له غاية. ولا يمكنك الذَّهاب إلى ويستوفر فقط لمعرفة أخبار الجبهة. كما أن العودة لتناول الإفطار والجريدة تحت ذراعك تجعلك تشعر شعورًا جيدًا، بطريقة ما. أجل، ربما عليه أن يذهب إلى المدينة.

تسارعت خطوة حذائه الأسود الطويل الرقبة، ذي المقدمة المربعة قليلًا، بينما سطحه البراق يلمع في ضوء الشمس. كان حذاء عسكريًّا. وقد يعتقد المرء أن بوتيكاري، بعد أن

أمضى أفضل سنواته في تنظيف حذائه على النحو اللائق، قد يؤكد على تفرُّده، أو يعبر عن شخصيته، وإلَّا كان سينفض غبار الانضباط الذي لا معنى له عن قدميه من خلال ترك الغبار على حذائه. لكن كلَّا، إن بوتيكاري، الأحمق المسكين، كان ينظف حذاءه لأنه يحبه. ربما كانت لديه عقليَّة العبيد، لكنه لم يقرأ ما يكفي ليُقلقه. أمَّا بخصوص التعبير عن شخصية المرء، فإذا وصفت له الأعراض فسوف يتعرف عليها، بالطبع. لكن ليس بالاسم. في الشرطة يسمون ذلك «التناقض».

اندفع طائر نورس فجأةً فوق قمة الجُرف، وسقَط صارخًا ليختفي من نطاق الرؤية وينضم إلى رفاقه المُحلِّقين في الأسفل. كانت طيور النورس تُصدر ضوضاء رهيبة. فاتجه بوتيكاري إلى حافة الجُرف ليرى طرح البحر الذي تركه المدُّ وهو يبدأ الآن في الانحسار، وهو ما تتشاجر عليه طيور النورس.

وقد كسر الخط الأبيض لزبد الأمواج الكريمي اللطيف برقعة من الأخضر الجنزاري. بقطعة من القماش. اللباد، أو شيء من هذا القبيل. ومن العجيب أن يظل لونُه براقًا بعد أن ظلَّ في الماء …

اتسعت عينا بوتيكاري الزرقاوان فجأةً، وتوقَّف جسده عن الحركة تمامًا بشكل غريب. ثم بدأ الحذاء الأسود الطويل الرقبة ذو المقدمة المربعة في الجري. كان يصدر صوتًا مكتومًا، على العشب الكثيف، مثل دقات القلب. كان شاطئ جاب على بُعد مائتَي ياردة، لكن سرعة بوتيكاري تضاهي العدَّائين المحترفين. حيث نزل على الدرجات الخشنة المحفورة في الحجر الجيري الذي يتكون منه شاطئ جاب، وهو يلهث، بينما يتدفق السخط من خلال انفعاله. هذا هو ما ينتج عن الذَّهاب للسباحة في الماء البارد قبل الإفطار! جنون، فليساعدها الله. وإفساد وجبات الإفطار للآخرين أيضًا. إن طريقة الطبيب شايفر للتنفس الاصطناعي هي الأفضل، إلَّا إذا كانت الضلوع مكسورة. من غير المحتمل أن تكون الضلوع مكسورة. ربما كان مجرد إغماء في نهاية الأمر. طمأن المريضة بصوتٍ عالٍ أنها آمنة. كانت ذراعاها وساقاها بُنِّيتين في مثل درجة لون الرمال. لهذا كان يعتقد أن الشيء الأخضر هو قطعة قماش. جنون، فليساعدها الله. من الذي يريد أن يسبح في الماء البارد في الفجر إلا إذا أُجبر على ذلك؟! لقد كان عليه أن يسبح فيه وهو أصغر سنًّا. في ذلك الميناء المُطل على البحر الأحمر. مع سَرِيَّة إنزال لمساعدة العرب. ومع ذلك، لماذا قد يرغب أحد في مساعدة أولئك الأوغاد السيئين — كان هذا هو الوقت الذي يسبح فيه. عندما تكون مضطرًّا. عصير برتقال وخبز توست رقيق، أيضًا. لا توجد قدرة على التحمُّل. جنون، فليساعدها الله.

كان من الصعب السير على الشاطئ. حيث تنزلق الحصوات البيضاء الكبيرة بشكل مؤذٍ تحت قدميه، وكانت البقع النادرة من الرمال، عند مستوى المد، ناعمة ولينة. لكنه بعد قليل أصبح وسط مجموعة النوارس، محاطًا بأجنحتها الخفاقة وصيحاتها الجامحة.

لم تكن هناك حاجة إلى تطبيق طريقة شايفر، ولا أي طريقة أخرى. لقد أدرك ذلك في لمحة. فقد فارقت الفتاة الحياة ولم تَعُد تُجدي معها المساعدة. وكان بوتيكاري، الذي التقط الكثير من الجثث من فوق زَبَد أمواج البحر الأحمر دون أن يهتز له جَفن، متأثرًا بشكل غريب. إذ من الخطأ أن ترقد جثة فتاة صغيرة للغاية هناك بينما يستيقظ العالم كله على يومٍ رائع؛ وتمتد الحياة أمامها. فتاة جميلة، أيضًا، لا بدَّ أنها كانت كذلك. كان لشعرها مظهر مصبوغ، لكن باقي جسدها بخير.

اندفعت موجة فوق قدمَيها ثم انحسرت، بسخرية، من خلال أصابع قدمها القرمزية. وقد سحب بوتيكاري، على الرغم من أن المد سينحسر خلال دقيقة أخرى لعدة ياردات، الكومة الهامدة نحو الشاطئ، بعيدًا عن سيطرة البحر الوقح.

ثم تحول عقله إلى الهواتف. ونظر حوله بحثًا عن بعض الملابس التي ربما تكون الفتاة قد تركتها وراءها عندما ذهبت للسباحة. لكن يبدو أنه لا يوجد شيء. ربما قد تركت أيًّا ما كانت ترتديه تحت مستوى المياه المرتفعة وقد جرَفه المد. أو ربما لم تنزل إلى الماء عند هذا الموقع. على أية حال، لم يكن هناك شيء الآن يمكن تغطية جسدها به، فاستدار بوتيكاري وبدأ يهرول بسرعة على طول الشاطئ مرة أخرى، وعاد إلى محطة خفَر السواحل وأقرب هاتف.

ومن ثَم قال لبيل جنتر وهو يمسك بسماعة الهاتف ليستدعي الشرطة: «هناك جثة على الشاطئ.»

طقطق بيل بلسانه، ورجع برأسه إلى الخلف. وهي إيماءة عبَّرت ببلاغة وإيجاز عن شعوره بالتعب من جراء ما يقع من حوادث، وعن عدم عقلانية البشر الذين يعرضون أنفسهم للغرق، وعن قناعته بتوقع أسوأ ما في الحياة وبكَوْنه على حق. وقال بصوته الأجش: «إذا كانوا يريدون الانتحار، فلماذا يضايقوننا نحن؟ أليس أمامهم الساحل الجنوبي بأكمله؟»

همس بوتيكاري بينما يحاول إجراء المكالمة الهاتفية: «ليس انتحارًا.»

لم يُعِره بيل انتباهًا. وتابع: «فقط لأن أجرة السفر إلى الساحل الجنوبي أعلى من مثيلتها إلى هنا! لعلك تظن أنه عندما يسأم أحد من الحياة، فإنه سيتوقف عن البخل بشأن

الأجرة وينتحر بأناقة. ولكن هيهات! إنهم يأخذون أرخص تذكرة يمكنهم الحصول عليها ويلقون بأنفسهم على عتبة بابنا!»

قال بوتيكاري المنصف بصوت خفيض: «بيتشي هيد تحصل على الكثير.» وأضاف: «ليس انتحارًا، على أي حال.»

«إنه انتحار بالطبع. من أجل ماذا لدينا منحدرات؟ بولوارك إنجلترا؟ كلا. فقط كوسيلة للانتحار. وهذه هي الحالة الرابعة هذا العام. وسيتبعها المزيد عندما يحصلون على مطالب ضريبة الدخل الخاصة بهم.»

ثم توقَّف، بعد أن سمع ما كان بوتيكاري يقوله.

«... فتاة. حسنًا، امرأة. في ثوب استحمام أخضر زاهٍ.» (إذ إن بوتيكاري ينتمي إلى جيل لا يعرف المايوه.) «جنوب الجاب مباشرة. على بُعد نحو مائة ياردة. كلا، لا أحد هناك. اضطررت للمجيء كي أستخدم الهاتف. لكنني سأعود على الفور. أجل، سألتقي بك هناك. أوه، مرحبًا، أيها السيرجنت، هل هذا أنت؟ أجل، ليست بداية طيبة لليوم، لكننا اعتدنا على ذلك. أوه، كلا، مجرد وفاة أثناء الاستحمام. سيارة إسعاف؟ أوه، أجل، يمكنك إحضارها عمليًّا إلى الجاب. يمتد الدرب من طريق ويستوفر الرئيسي بعد العلامة الثالثة مباشرةً، وينتهي وسط تلك الأشجار في الداخل مباشرةً من الجاب. حسنًا، ألقاك على خير.»

قال بيل: «كيف يمكنك تأكيد أنها مجرد وفاة أثناء الاستحمام؟»

«كانت ترتدي ثوب الاستحمام، ألم تسمع؟»

«لا شيء يمنعها من إلقاء نفسها في الماء بينما هي ترتدي ثوب الاستحمام. وتجعل الأمر يبدو وكأنه حادث.»

«لا يمكنك إلقاء نفسك داخل الماء في هذا الوقت من العام. ستهبط على الشاطئ. وليس هناك أي شك فيما فعلته.»

قال بيل، الذي كان محبًّا لمحاولة اللحظة الأخيرة بطبيعته: «ربما سارت داخل الماء حتى غرقت.»

قال بوتيكاري، الذي وافق على محاولة اللحظة الأخيرة في الجزيرة العربية لكنه وجده أمرًا مملًّا للتعايش معه: «هل تظن ذلك؟ ربما ماتت من جرعة زائدة من ضوء مصابيح عين الثور.»

الفصل الثاني

وقفوا حول الجثة في مجموعة صغيرة متجهمة: بوتيكاري، وبيل، والسيرجنت، وشرطي، ورجلا الإسعاف. كان رجل الإسعاف الأصغر سنًّا خشية أن تتسبب معدته في إحراجه إذا تقيأ، لكنَّ الآخرين انشغلوا بممارسة العمل فقط.

سأل السيرجنت: «هل تعرفها؟»

قال بوتيكاري: «كلا.» وتابع: «لم أرها من قبل.»

لم يرَها أحد منهم من قبل.

«إنها ليست من ويستوفر. لن يخرج أحد من المدينة في وجود شاطئ جيد للغاية بالقرب من منازلهم. لا بدَّ أنها قد جاءت من الداخل في مكان ما.»

قال الشرطي: «ربما نزلت إلى الماء في ويستوفر وانجرفت جثتها إلى هنا.»

اعترض بوتيكاري على ذلك قائلًا: «لم يكن هناك وقت لذلك.» وتابع: «إنها لم تُمضِ وقتًا طويلًا في الماء. لا بدَّ أنها غرقت على مقربة من هنا.»

سأل السيرجنت: «إذن كيف وصلت إلى هنا؟»

قال بيل: «بالسيارة، بالطبع.»

«وأين السيارة الآن؟»

«حيث يترك الجميع سيارتهم؛ حيث ينتهي الدرب عند الأشجار.»

قال السيرجنت: «هل تظن ذلك؟» وتابع: «حسنًا، لا توجد سيارة هناك.»

وافقه رجلا الإسعاف. لقد جاءا عبر ذلك الدرب مع الشرطة — وسيارة الإسعاف تنتظر هناك الآن — لكن ليس هناك أي علامة على وجود أي سيارة أخرى.

قال بوتيكاري: «هذا غريب.» ثم أضاف: «لا يوجد مكان قريب بما فيه الكفاية يصلح لركن السيارة ثم السير إلى الشاطئ سوى هذا. ليس في هذا الوقت من الصباح.»

قال رجل الإسعاف الأكبر سنًّا: «لا أظن أنها سارت على أي حال.» وأضاف، حيث بدا أنهم يستجوبونه: «إنها مُرفَّهة ومعتنية بجسدها.»

نظروا إلى الجثة للحظة في صمت. أجل، كان رجل الإسعاف على حق؛ إذ بدا عليها أنها مرفهة ومعتنية بجسدها.

قال السيرجنت بقلق: «وأين ملابسها على أي حال؟»

شرح بوتيكاري نظريته حول الملابس؛ أنها تركتها تحت علامة المياه العالية وأنها الآن في مكانٍ ما في البحر.

قال السيرجنت: «أجل، هذا ممكن.» وأضاف: «لكن كيف وصلت إلى هنا؟»

غامر رجل الإسعاف الشاب بتجربة معدته والحديث قائلًا: «من الغريب أنها تستحم وحدها، أليس كذلك؟»

قال بيل بصوت عميق: «لا يوجد شيء غريب، في الوقت الحاضر.» ثم أضاف: «إنه لأمر عجيب أنها لم تكن تلعب لُعبة القفز من الجُرف بطائرة شراعية. فالسباحة على معدة فارغة، دون رفقاء، أمر عادي للغاية. إن هؤلاء الحمقى الصغار يُضجرونني.»

سأل الشرطي: «أهذا سوار حول كاحلها، أم ماذا؟»

أجل، لقد كان سوارًا. سلسلة من الحلقات البلاتينية. حلقات غريبة، بالفعل. كل منها على شكل حرف «سي».

شد السيرجنت قامته وقال: «حسنًا، أظن أنه لا يوجد شيء يجب فعله سوى نقل الجثة إلى المشرحة، ثم معرفة من تكون. بالحكم على المظاهر الواضحة، هذا لن يكون صعبًا. هذه المرأة ليست مفقودة أو مسروقة أو تائهة.»

قال رجل الإسعاف: «أجل.» ثم أضاف: «من المحتمل أن كبير الخدم الذي يعمل لديها سيتصل بالقسم الآن في حالة قلق وانفعال كبير.»

قال السيرجنت في تأمل: «أجل.» وتابع: «ما زلت أتساءل كيف أتت إلى هنا، وماذا ...»

التفتت عيناه نحو حافة الجرف، وتوقف.

ثم قال: «حسنًا! لدينا صحبة!»

التفتوا ليروا هيئة رجل على قمة الجُرف في الجاب. كان يقف مراقبًا إياهم، وقد بدا عليه الانفعال الشديد. وعندما التفتوا تجاهه استدار بسرعة واختفى.

قال السيرجنت: «إن الوقت مبكر قليلًا لوصول هواة المشي على الشاطئ.» ثم أضاف: «ولماذا يهرب؟ من الأفضل أن نتحدث معه.»

ولكن قبل أن يتحرك هو والشرطي بأكثر من خطوة أو اثنتين أصبح من الواضح أن الرجل لم يكن ينوي الهرب، بل كان يحاول فقط الدخول إلى الجاب. ومن ثم ظهرت هيئته النحيلة الداكنة الآن من مدخل الجاب واتجه نحوهم وهو يعدو بصعوبة، حيث ينزلق ويتعثر، ويعطي المجموعة الصغيرة التي تراقب وصوله انطباعًا بالجنون. وكان بإمكانهم أن يسمعوا لُهاث أنفاسه من خلال فمه المفتوح وهو يقترب، على الرغم من أن المسافة من الجاب لم تكن طويلةً ولم يكن هو كبير السن.

تعثَّر في دائرتهم الصغيرة دون النظر إليهم، دافعًا الشرطيين جانبًا اللذين أقحما نفسَيهما دون وعي بينه وبين الجثة.

صرخ، وهو يجلس دون سابق إنذار وينفجر في البكاء بصوتٍ عالٍ: «أوه، أجل، إنه كذلك! أوه، إنه كذلك، إنه كذلك!»

نظر ستة رجال مذهولين نحوه في صمت للحظة. ثم ربَّت السيرجنت على ظهره بلطف، وقال بلا مبالاة: «هوِّن على نفسك، يا بني!»

لكن الشاب كان يرتجف ويبكي بحرقة أكثر.

هدأه الشرطي قائلًا: «لا بأس، لا بأس.» (في الحقيقة، عرض مروع في صباح جميل ومشرق). وأضاف، وقد لاحظ جودة المنديل الذي أخرجه الشاب: «هذا لن يفيد أي أحد، كما تعلم. من الأفضل أن تتمالك نفسك ... يا سيدي.»

سأل السيرجنت، وقد عدَّل صوته بشكل مناسب بدلًا من النبرة الرسمية السابقة: «هل هي قريبة لك؟»

فهزَّ الشاب رأسه.

«أوه، مجرد صديقة؟»

«لقد كانت طيبة للغاية معي، طيبة للغاية!»

«حسنًا، على الأقل ستتمكن من مساعدتنا. لقد كنا في بداية تحريَّاتنا عنها. يمكنك إخبارنا من هي.»

«إنها ... مضيفتي.»

«أجل، ولكن أنا قصدت، ما اسمها؟»

«أنا لا أعرف.»

«أنت ... لا ... تعرف! انظر هنا، يا سيدي، تمالك نفسك. أنت الوحيد الذي يمكنه مساعدتنا. يجب أن تعرف اسم السيدة التي كنت تقيم معها.»

«كلا، كلا، أنا لا أعرف.»

«بماذا كنت تناديها، إذن؟»

«كريس.»

«كريس، ماذا؟»

«فقط كريس.»

«وبماذا كانت تناديك؟»

«روبين.»

«هل هذا هو اسمك؟»

«أجل، اسمي روبرت ستاناواي. كلا، تيسدول. لقد كان ستاناواي سابقًا»، أضاف، وقد لمح نظرة عين السيرجنت وشعَر على ما يبدو أن التفسير ضروري.

كان ما قالته عين السيرجنت: «اللهم هبني الصبر!» أمَّا ما قاله لسانه هو، «كل شيء يبدو غريبًا بعض الشيء بالنسبة إليَّ، يا سيد ...»

«تيسدول.»

«تيسدول. هل يمكنك إخباري كيف وصلت السيدة إلى هنا هذا الصباح؟»

«أوه، أجل. بالسيارة.»

«بالسيارة، أليس كذلك؟ أتعرف ماذا حدث للسيارة؟»

«أجل، لقد سرقتها.»

«فعلت ماذا؟»

«سرقتها. ثم أعدتُها للتو. لقد كانت فعلةً قذرة. وقد شعرت بأني نذل لذا عدت. وعندما وجدت أنها ليست في أي مكان على الطريق، ظننت أنني سأجدها تتجول هنا. ثم رأيتكم جميعًا واقفين حول شيءٍ ما — أوه، يا عزيزتي، أوه يا عزيزتي!» وبدأ ينشج مرة أخرى.

سأل السيرجنت بنبرة رسمية للغاية: «أين كنت تقيم مع هذه السيدة؟» ثم تابع: «في ويستوفر؟»

«أوه، كلا. إنها تمتلك ... كانت تمتلك، ... أعني ... أوه يا عزيزتي! ... كوخًا. يُطلق عليه: برايارز. خارج ميدلي بالضبط.»

أكمل بوتيكاري، حيث بدا على السيرجنت، الذي لم يكن من سكان البلدة، التساؤل: «إنه مكان على بُعد حوالي ميل ونصف من هنا.»

«هل كنتما هناك وحدكما، أم كان هناك خدم في الكوخ؟»

«هناك فقط امرأة من القرية ... السيدة بيتس ... كانت تأتي لتطبخ.»

«حسنًا.»

ساد الصمت لبرهة.

ثم قال السيرجنت: «حسنًا، يا رجال.» وأومأ برأسه لرجلَي الإسعاف، فانحنيا للقيام بعملهما، ووضعا الجثة على النقالة. والتقط الشاب أنفاسه بصعوبة وغطَّى وجهه بيديه مرة أخرى.

«هل ننقلها إلى المشرحة أيها السيرجنت؟»

«أجل.»

أنزل الرجل يديه عن وجهه فجأة.

«أوه، لا! بالتأكيد لا! إن لديها منزلًا. ألا يأخذون الناس إلى منازلهم؟»

«لا يمكننا نقل جثة امرأة مجهولة إلى عشة غير مأهولة.»

صحح الرجل المعلومة تلقائيًّا: «إنه ليس عشة.» وتابع: «كلا، كلا، لا أظن ذلك. لكن يبدو الأمر مُروِّعًا ... المشرحة. أوه، يا إلهي!» ثم صرخ، «لماذا يحدث هذا!»

قال السيرجنت للشرطي: «ديفيس، عد مع الآخرين وأبلغ. أنا ذاهب إلى ... ما اسمه؟ ... برايارز؟ مع السيد تيسدول.»

شق رجلا الإسعاف طريقهما الوعر فوق الحصى، وتبعهما بوتيكاري وبيل. وأصبح ضجيج تقدُّمهم بعيدًا قبل أن يتكلم السيرجنت مرة أخرى.

«أظن أنه لم يَخطُر ببالك الذَّهاب للسباحة مع مضيفتك؟»

تشنج وجه تيسدول من الإحراج على ما يبدو. وتردَّد.

«كلا. أنا ... ليس من عاداتي، للأسف السباحة قبل الإفطار. أنا ... غير جيد في الرياضة والأشياء من هذا القبيل.»

أومأ السيرجنت، دون أن يُبديَ اقتناعه. ثم قال: «ومتى غادرَت للسباحة؟»

«لا أعرف. لقد أخبرَتني الليلةَ الماضية أنها ستذهب إلى الجاب للسباحة إذا استيقظَت مبكرًا. وقد استيقظت أنا نفسي مبكرًا، لكنها كانت قد غادرَت.»

«فهمت. حسنًا، يا سيد تيسدول، إذا كنت قد تمالكت نفسك، فأعتقد أن علينا أن نمضيَ قُدمًا.»

«أجل. أجل، بالتأكيد. أنا بخير.» ووقف على قدمَيه واجتازا معًا الشاطئ في صمت، وصعِدا درجات السُّلَّم في الجاب، واتجها إلى السيارة حيث قال تيسدول إنه تركها في ظل الأشجار حيث ينتهي الدرب. كانت سيارة جميلة، وفخمة للغاية. بها مقعدان لونهما

كريمي ويفصل بينهما مساحة لتخزين الطرود عليها غطاء، أو عند الضرورة، يمكن استخدامها لجلوس راكب إضافي. وتفحَّص السيرجنت تلك المساحة، فأخرج منها مِعطفًا نسائيًّا وزوجًا من الأحذية المصنوعة من جلد الغنم الذي ينتشر ارتداؤه بين النساء في اجتماعات السباق الشتوية.

«هذا ما كانت ترتديه عند النزول إلى الشاطئ. فقط المعطف والحذاء فوق ثوب الاستحمام. وهناك منشفة أيضًا.»

كانت هناك بالفعل منشفة. وقد أخرجها السيرجنت؛ وكانت أنيقة باللونين الأخضر والبرتقالي.

قال: «من الغريب أنها لم تأخذها معها إلى الشاطئ.»

«كانت تحب أن تجفف نفسها تحت أشعة الشمس عادة.»

«يبدو أنك تعرف الكثير عن عادات سيدة لا تعرف اسمها.» وجلس السيرجنت على المقعد الثاني في السيارة. ثم أضاف: «منذ متى وأنت تعيش معها؟»

صحَّح تيسدول السؤال، وقد احتدَّ صوته للمرة الأولى: «أمكث معها.» ثم تابع: «عليك فَهْم الأمر بشكل واضح، أيها السيرجنت، وقد يوفر هذا عليك الكثير من الإزعاج: كانت كريس مضيفتي. لا أكثر ولا أقل. لقد نزلنا في كوخها بدون خدم، لكن وجود الخدم من عدمه لم يكن ليغير من نوع العلاقة بيننا. هل يبدو لك هذا أمرًا بالغ الغرابة؟»

قال السيرجنت بصراحة: «للغاية.» ثم أضاف: «ماذا يفعل هذا هنا؟»

كان يحدق في كيس ورقي يحتوي على كعكتين يابستين إلى حدٍّ ما.

«أوه، لقد جلبت هاتين الكعكتين معي من أجلها كي تتناولهما. كان هذا كل ما أمكنني العثور عليه. فدائمًا ما كنا نتناول كعكة عندما نخرج من الماء عندما كنا أطفالًا. ظننت أنها ربما ستُسَر لو أحضرت لها شيئًا ما.»

كانت السيارة تنزلق على الدرب الشديد الانحدار إلى طريق ويستوفر-ستونجيت الرئيسي. ثم عبرا الطريق السريع ودخلا ممرًّا عميقًا على الجانب الآخر. كان ثمة لافتة كُتب عليها: «ميدلي ١، ليدلستون ٣.»

«إذن لم يكن لديك نية لسرقة السيارة عندما انطلقت لتتبعها إلى الشاطئ؟»

قال تيسدول بامتعاض كما لو كان ذلك سيُحدث فرقًا: «بلى، بالتأكيد!» ثم أضاف: «لم يخطر الأمر ببالي إلى أن صعِدت التل ورأيت السيارة تنتظر هناك. وحتى الآن لا أصدق أنني فعلت ذلك حقًّا. لقد كنت أحمق، لكنني لم أفعل شيئًا كهذا أبدًا من قبل.»

«هل كانت في البحر آنذاك؟»

«لا أعرف. لم أذهب لأنظر. وإذا كنت قد رأيتها حتى من مسافة بعيدة، لما فعلت ذلك. لقد رميت الكعك داخل السيارة وغادرت. وعندما وعيت كنت في منتصف الطريق إلى كانتربري. فاستدرت بالسيارة دون توقف، وعدت مباشرة.»

ولم يعلق السيرجنت.

«ما زلت لم تخبرني منذ متى وأنت تقيم في الكوخ.»

«منذ منتصف ليل السبت.»

كان اليوم هو الخميس.

«وما زلت تطلب مني أن أصدق أنك لا تعرف اسم عائلة مضيفتك؟»

«كلا. إنه أمر غريب بعض الشيء، أعلم. فأنا نفسي اعتقدت ذلك في البداية. لقد نشأت نشأةً تقليدية. لكنها جعلَت الأمر يبدو طبيعيًّا. إذ بعد اليوم الأول، تقبل كلٌّ منا الآخر ببساطة. كان الأمر كما لو كنت أعرفها لسنوات.» وبينما لم يَقُل السيرجنت شيئًا، لكنه جلس يشعُّ شكًّا كما يشعُّ المَوقد حرارةً، أضاف هو بانفعال: «لماذا لا أخبرك باسمها إذا كنت أعرفه؟»

قال السيرجنت بأسلوب فظ: «كيف يمكنني أن أعرف؟» وتأمل وجه الشاب خلسةً، فوجده شاحبًا، وإن كان قد تمالك نفسه. ويبدو أنه قد تحسَّن بسرعة ملحوظة بعد أن أبدى توتره وحزنه. لا يتسمون بالثقل والرزانة، شباب هذه الأيام. وليس لديهم عاطفة حقيقية تجاه أي شيء. فقط هستيريا. ما أسمَوه الحب كان مجرد إباحية، وظنوا أن أي شيء آخر «عاطفي». لا انضباط. ولا تحمل مسئولية. في كل مرة تصبح فيها الأمور صعبة، فإنهم يهربون. لم يُصفعوا بما فيه الكفاية في شبابهم. كل تلك الأفكار الحديثة حول إعطاء الأطفال حرية اختيار طرقهم الخاصة. انظر إلى ما أدَّت إليه. الولولة على الشاطئ لدقيقة والهدوء والثبات في الدقيقة التالية.

ثم لاحظ السيرجنت ارتجاف اليدين الناعمتين على عجلة القيادة. كلا، إن روبرت تيسدول لم يكن هادئًا بأي حال من الأحوال.

سأل السيرجنت، وهما يبطئان سرعتهما بجوار حديقة يحيط بها سور من الشجيرات: «هل هذا هو المكان؟»

«هذا هو المكان.»

كان كوخًا نصف خشبي من نحو خمس غرف؛ محجوبًا عن الطريق بسياج ارتفاعه سبعة أقدام من شجيرات الورد البري التي تتدلى منها الورود. هبة من السماء للأمريكيين،

ومحبي قضاء عطلات نهاية الأسبوع، والمصورين. كانت النوافذ الصغيرة تتثاءب وسط هذا الهدوء، والباب الأزرق اللامع مفتوحًا بتَرحاب، كاشفًا في الظل عن بريق وعاء تدفئة نُحاسي ذي يد طويلة كان معلقًا على الحائط. لقد «انكشف» الكوخ.

وبينما كانا يسيران عبر المَمشى المُغطَّى بالقرميد، ظهرَت امرأة ضئيلة نحيفة على عتبة الباب، تضع مئزرًا أبيض للمطبخ؛ وشعرها الخفيف معقود عند مؤخرة رأسها، بينما ثبتت بغير إحكام على أعلى رأسها اللامع عُقدة مستديرة من الساتان الأسود.

تباطأ تيسدول عندما شاهدها، بحيث يُنْبئ مجيء السيرجنت بمظهره الرسمي الكبير عن وقوع متاعب بشكل واضح.

لكن السيدة بيتس كانت أرملة شرطي، ولم يظهر أيُّ تخوف على وجهها الضئيل النحيف. كان مجيء شرطي لا يعني لها سوى تحضير وجبة إضافية؛ وتصرف عقلها وَفقًا لذلك.

«لقد كنت أخبز بعض البانكيك للإفطار. وسوف تزداد حرارة الجو لاحقًا. لذا من الأفضل إطفاء نار المَوقد. هلَّا أخبرت الآنسة روبنسون عندما تأتي، يا سيدي؟» ثم، بعد إدراكها أن الشرطي برتبة سيرجنت، أضافت: «لا تقل إنك كنت تقود السيارة بدون رخصة، يا سيدي!»

قال السيرجنت: «الآنسة ... روبنسون، أليس هذا هو اسمها؟ قد تعرضت لحادث.»

«بالسيارة! أوه، يا إلهي! إنها دائمًا ما تقود بتهور. هل إصابتها خطيرة؟»

«ليس بالسيارة. حادث في الماء.»

قالت ببطء: «أوه.» ثم أضافت: «هذا سيئ!»

«ماذا تقصدين بقولك: هذا سيئ؟»

«الحوادث في الماء تعني شيئًا واحدًا فقط.»

قال السيرجنت: «أجل.»

قالت، متأملة في حزن: «حسنًا، حسنًا.» ومن ثم، تغيَّر أسلوبها فجأة، وأضافت في لهجةٍ زاجرة: «وأين كنت؟» وهي تنظر إلى تيسدول ناكس الرأس كما لو كانت تنظر إلى سمكة ليلة السبت على لوح تاجر سمك في ويستوفر. وقد تلاشى احترامها السطحي تجاه «طبقة النبلاء» في ظل الكارثة. ظهر تيسدول على أنه «شخص عديم الجدوى» مثلما كانت تَعدُّه في قرارة نفسها.

كان السيرجنت مهتمًّا، ولكنه ادَّعى تجاهل ما تقوله. وقال: «السيد لم يكن هناك.»

«كان يفترض أن يكون هناك. لقد غادر بعدها بقليل.»

«كيف علمت ذلك؟»

«لقد رأيته. فأنا أعيش في الكوخ الواقع بنهاية الطريق.»

«هل تعرفين العنوان الآخر للآنسة روبنسون؟ أنا واثق بأن هذا ليس منزلها الدائم.»

«أجل، بالطبع ليس كذلك. لقد حصلت على هذا المكان لمدة شهر فقط. إنه ملك أوين هيوز.» وصمتت برهة، بهدف إحداث تأثير، لتجعله يشعر بأهمية الاسم. ثم تابعت: «لكنه يصور فيلمًا في هوليوود. فيلمًا عن كونت إسباني، حسبما أخبرني. لقد قال إنه مثَّل دور كونت إيطالي وفرنسي وهو يعتقد أنها ستصبح تجربة جديدة بالنسبة إليه أن يمثل دور كونت إسباني. إن السيد هيوز، لطيف للغاية. ليس فاسدًا على الإطلاق رغم كل الجلَبة التي تُثار حوله. لن تصدق ذلك، لكن ذات مرة جاءت فتاة وعرضت عليَّ خمسة جنيهات إذا أعطيتها المُلاءات التي ينام عليها. فلم أعطها سوى التوبيخ واللوم. لكنها لم تخجل مطلقًا. وعرضت عليَّ خمسةً وعشرين شلنًا للحصول على كيس وسادة. لا أعرف إلى أين يتجه العالم، لا أعرف، وماذا دهى ...»

«ما هو العنوان الآخر للآنسة روبنسون؟»

«لا أعرف أيًّا من عناوينها إلَّا هذا العنوان.»

«ألم ترسل إليك رسالة لتخبرك عندما كانت قادمة؟»

«رسالة! كلا! إنها ترسل برقيات. أظن أنها تستطيع كتابة الرسائل، لكنني أقسم أنها لم تفعل ذلك مطلقًا. كانت نحو ست برقيات يوميًّا تذهب إلى مكتب البريد في ليدلستون. اعتاد ولدي ألبرت على أخذها، في الغالب؛ بين أوقات المدرسة. استخدمت في بعضها ثلاثة أو أربعة نماذج، كانت طويلة للغاية.»

«هل تعرفين أيًّا من الأشخاص الذين استضافتهم هنا، إذن؟»

«لم تستضف أي أشخاص هنا. عدا السيد ستاناواي، فقط.»

«لا أحد!»

«لا أحد. ذات مرة — عندما كنت أريها طريقة تنظيف المرحاض؛ عليك أن تسحب بقوة ثم تتركه ببساطة — قالت: «هل سبق لك، يا سيدة بيتس، أن سئمت من رؤية وجوه الناس؟» فقلت إنني سئمت من البعض، فقالت: «ليس البعض، يا سيدة بيتس. جميعهم. لقد سئمت من جميع الناس.» قلت عندما أشعر بذلك أتناول جرعة من زيت الخروع. فضحكت وقالت إنها ليست فكرة سيئة. كل ما هنالك هو أن الجميع يجب أن يتناولوه، ومن ثم سيصبح العالم جديدًا ورائعًا في غضون يومين. ثم قالت: «لم يفكر موسوليني مطلقًا في ذلك.»»

«هل جاءت من لندن؟»

«أجل. لقد ذهبت إلى هناك مرة واحدة أو مرتين فقط في الأسابيع الثلاثة التي أقامت فيها هنا. آخر مرة كانت في عطلة نهاية الأسبوع الماضي، عندما جلبت معها السيد ستاناواي.» ومرة أخرى، نظرت باحتقار نحو تيسدول كما لو كان في مرتبةٍ أدنى من الإنسان. ثم سألت: «ألا يعرف عنوانها؟»

قال السيرجنت: «لا أحد يعرفه.» وتابع: «سأفتش في أوراقها وأرى ما يمكنني العثور عليه.»

قادته السيدة بيتس إلى غرفة المعيشة؛ وكانت غرفة لطيفة، منخفضة الإضاءة، ورائحتها مثل زهور البازلاء.

وسألت: «ماذا فعلتم بها ... أقصد بالجثة؟»

«أودعناها المشرحة.»

يبدو أن هذا جلب الحزن إلى المنزل لأول مرة.

«أوه، يا لَلأسى.» حركت نهاية مئزرها فوق طاولة مصقولة، ببطء. «وأنا أصنع البانكيك.»

لم يكن هذا ندمًا على البانكيك المهدر، بل اعترافًا بغرابة الحياة.

قالت لتيسدول، وقد رقَّت مشاعرها من خلال اعترافها اللاواعي بحقيقة أن الأفضل ما هم إلا دُمى: «أتوقع أنك ستحتاج إلى وجبة إفطار.»

لكن تيسدول لم يرغب في تناول الإفطار. إذ هزَّ رأسه واستدار بعيدًا إلى النافذة، بينما يفتش السيرجنت في المكتب.

قال السيرجنت وهو يفتش في الأوراق: «لا أمانع في الحصول على واحدة من البانكيك.»

«لن تحصل على أفضل منها في كنت، رغم أنني من أقول ذلك. وربما يحتسي السيد ستاناواي بعض الشاي.»

ومن ثم غادرت إلى المطبخ.

فقال السيرجنت، وهو يرفع عينه عن الأوراق ويُلقي نظرة خاطفة على تيسدول: «إذن أنت لم تكن تعرف أن اسمها هو روبنسون؟»

«السيدة بيتس كانت تخاطبها دائمًا بكلمة (آنسة). وعلى أي حال، هل بدت وكأن اسمها روبنسون؟»

لم يُصدق السيرجنت، أيضًا، للحظة أن اسمها روبنسون، لذلك ترك الموضوع يمر.

قال تيسدول بعد برهة: «إذا لم تكن بحاجة إليَّ، أعتقد أنني سأذهب إلى الحديقة. إن الجو خانق هنا.»

«حسنًا. لا تنسَ أنني بحاجة إلى السيارة للعودة إلى ويستوفر.»

«لقد أخبرتك. لقد كان رغبة متهورة مفاجئة. على أي حال، لم أكن لأستطيع سرقتها الآن وآمُل أن أُفلت من العقاب.»

قرَّر السيرجنت أنه ليس غبيًّا لهذه الدرجة. كما أنه عصبي المزاج بعض الشيء. ليس مجرد شخص تافه عديم الأهلية، على أي حال.

كان المكتب مليئًا بالمجلات، والصحف، وعلب سجائر نصف فارغة، وقطع من أُحجيَّة الصور المقطوعة، ومبرد أظافر وملمع أظافر، وأنماط من الحرير، وعشرات الأغراض والأشياء المتنوعة الأخرى؛ كل شيء، في الواقع، ما عدا ورق الملاحظات. كانت الوثائق الوحيدة عبارة عن فواتير من التجار المحليين، تم دفع معظمها. إذا كانت المرأة غير مرتبة وغير منظمة، فقد كان لديها على الأقل مستوًى من مستويات الحذر. قد تكون الإيصالات مجعدة ويَصعُب العثور عليها عند الرغبة في ذلك، ولكنها على الأقل لم يتم التخلص منها تمامًا.

بدأ السيرجنت، الذي تأثر بهدوء الصباح الباكر، وبالأصوات المبهجة للسيدة بيتس وهي تحضر الشاي في المطبخ، وباحتمال وصول البانكيك، ينغمس في نقيصته الوحيدة وهو يفتش في المكتب. فأطلق صفيرًا. كان صوت صفير السيرجنت منخفضًا وصافيًا ولطيفًا للغاية، لكنه، لا يزال ... صفيرًا. وأخذ يدندن: «غنِّ لي في بعض الأحيان»، دون أن ينسى نوتات النغمة، واستمد عقله الباطن رضاء كبيرًا من الأداء. كانت زوجته قد أطلعته ذات مرة على مقال في صحيفة «ميل» قال إن الصفير هو علامة على عقل فارغ. لكن هذا لم يشفه منه.

وبعد ذلك، فجأة، تحطم الانسجام اللحظي. إذ بدون سابق إنذار جاءت نغمات محاكية ساخرة من باب غرفة الجلوس نصف المفتوح — تم-تي-تا-تم-تمتا-تا! وقال صوت رجل: «إذن هذا هو المكان الذي تختبئين فيه!» وفُتح الباب على مصراعيه بحركة استعراضية ووقف أمامه شخص قصير أسمر اللون.

وقال بصوت ممطوط مقسمًا الكلمة إلى مقاطع: «حسنًا.» ووقف يحدق في السيرجنت باندهاش وهو يبتسم ابتسامة عريضة. «ظننت أنك كريس! ماذا تفعل الشرطة هنا؟ هل وقع حادث سطو؟»

«كلا، لم يقع حادث سطو.» كان السيرجنت يحاول جمع أفكاره.

«لا تقل إن كريس كانت تقيم حفلة صاخبة! لقد اعتقدت أنها تخلت عن تلك الحفلات منذ سنوات. إنها لا تتماشى مع كل تلك الأدوار المثقفة.»

«كلا، في واقع الأمر، هناك ...»

فقال: «أين هي، على أي حال؟» ورفع صوته في صيحة مرحة موجهة إلى الطابق العلوي. «يو هوو! كريس. تعالي إلى الأسفل، أيتها الشقية! تختبئين مني!» ثم وجَّه حديثه إلى السيرجنت: «لقد هربت منا جميعًا منذ ثلاثة أسابيع تقريبًا الآن. بسبب الأضواء، حسبما أظن. فالأضواء تسبب لهم جميعًا هياجًا عصبيًّا إن عاجلًا أو آجلًا. ولكن مع ذلك، لقد نجح الفيلم الأخير للغاية وهم يريدون بطبيعة الحال الاستفادة من نجاحه.» ودندن جزءًا من أغنية «غنِّ لي في بعض الأحيان» محاكيًا صوتها بطريقة احتفالية. ثم أضاف: «لهذا السبب ظننت أنك كريس؛ لقد كنتَ تُصدر صفيرًا على لحن أغنيتها. وصفيرك جيد للغاية، أيضًا.»

«أغنيتها ... ماذا تقصد؟» وتمنى السيرجنت في تلك اللحظة أن يتعطَّف القدر عليه ويمنحه بصيصًا من الضوء.

«أقصد أغنيتها. ومن غيرها؟ أنت لم تظن أنها أغنيتي، أيها الرجل الطيب العزيز، أليس كذلك؟ مطلقًا. لقد كتبت الأغنية، بالتأكيد. لكن هذا لا يهم. إنها أغنيتها. وربما هي لم تُفصح عن ذلك! أليس كذلك؟ ألم يكن هذا أداءً؟»

«لا أستطيع أن أقرر بالفعل.» إذا توقَّف الرجل عن الكلام، فقد يمكنه تفسير الأمور.

«ربما أنت لم تشاهد فيلم «بارز أوف أيرن» (قضبان الحديد) بعد؟»

«كلا، لا أستطيع أن أقول إنني شاهدته.»

«هذا هو أسوأ ما في التسجيلات اللاسلكية وتسجيلات الجراموفون وما إلى ذلك؛ فهي تأخذ كل الحماسة من الفيلم. ربما بحلول الوقت الذي تسمع فيه كريس تغني تلك الأغنية ستكون قد سئمت من الصوت لدرجة أنك ستتقيأ عند عزف الموسيقى التمهيدية. هذا ليس عدلًا بالنسبة إلى فيلم. قد يناسب كتاب الأغاني وهذا النوع من الغوغاء، لكنه صعب بالنسبة إلى فيلم، صعب للغاية. يجب أن يكون هناك نوع من الاتفاق. يا كريس، كريس! أليست هنا، بعد كل عنائي في اللحاق بها؟» وتجهَّم وجهه مثل طفل محبط. «إن قدومها من الخارج لتجدني هنا ليس في نفس متعة قدومي أنا كي أفاجئها. هل تعتقد ...»

«انتظر لحظة، يا سيد ... إمممم ... أنا لا أعرف اسمك.»

«أنا جاي هارمر. جيسون في شهادة الميلاد. أنا من كتبت أغنية «إن لم يكن في يونيو». من المحتمل أنك تصفر لحنها كـ...»

«سيد هارمر. هل أفهم من كلامك أن السيدة التي تقيم ... كانت تقيم ... هنا هي ممثلة سينمائية؟»

«هل هي ممثلة سينمائية؟!» الاستغراب البطيء حرم السيد هارمر هذه المرة من الكلام. ثم بدأ يدرك أنه لا بدَّ قد أخطأ. «قل لي، إن كريس تقيم هنا، أليس كذلك؟»

«اسم السيدة هو كريس، أجل. لكن ... حسنًا، ربما ستتمكن من مساعدتنا. لقد وقع حادث — للأسف — ويبدو أنها قالت إن اسمها هو روبنسون.»

ضحك الرجل في متعة غنية. «روبنسون! هذه مزحة جيدة. لطالما قلت إنها لا تتمتع بخيال خصب. لا يمكنها أن تكتب مزحة. وهل صدقت أنها من عائلة روبنسون؟»

«حسنًا، كلا؛ بدا الأمر غير مرجح.»

«ألم أقل لك! حسنًا، فقط لأعاقبها على معاملتي مثل فتات على أرضية غرفة التقطيع، سأشي عن سرها. من المحتمل أنها ستضعني في صندوق الثلج لمدة أربع وعشرين ساعة، لكن الأمر يستحق العناء. أنا لست رجلًا نبيلًا، على أي حال، لذلك لن أهين شرفي لو وشيت. إن اسم السيدة، أيها السيرجنت، هو كريستين كلاي.»

قال السيرجنت: «كريستين كلاي!» وفغَر فاه من الدهشة، بشكل خارج عن إرادته تمامًا.

شهقت السيدة بيتس، وهي تقف في الطرقة، حاملة في يديها صينية منسية من البانكيك وقالت: «كريستين كلاي!»

الفصل الثالث

«كريستين كلاي! كريستين كلاي!» صاح باعة الصحف المسائية.

«كريستين كلاي!» صرخت العناوين الرئيسية.

«كريستين كلاي!» تذبذبت موجات اللاسلكي.

«كريستين كلاي!» قال الجار لجاره.

توقف الناس في جميع أنحاء العالم للتحدث عن الخبر. كريستين كلاي غرقت! وفي كل المجتمع المتمدن قال شخص واحد فقط، «من هي كريستين كلاي؟» — شاب ساخر في حفل بلومزبري. وكان فقط «يقولها ساخرًا.»

حدثت أشياء في جميع أنحاء العالم لأن امرأة واحدة فقدَت حياتها. ففي كاليفورنيا اتصل رجل هاتفيًّا ليستدعيَ فتاة في قرية جرينيتش. وفي تكساس قام قائد طائرة برحلة ليلية إضافية حاملًا أفلام كلاي لعرضها سريعًا. وفي نيويورك ألغت إحدى الشركات طلبًا. وفي إيطاليا أفلس أحد النبلاء؛ حيث كان يأمُل في بيع يخته لها. وفي فيلادلفيا أكَل رجلٌ وجبته الكاملة الأولى منذ شهور، بفضل مقال كتبه تحت عنوان «عرفتها عندما». وفي لو توكيه غنت امرأة لأن فرصتها قد حانت الآن. وفي إحدى المدن الكاتدرائية الإنجليزية جثا رجل على ركبتيه شاكرًا الله.

إن الصحافة، التي رست هادئة وسط ركود الموسم السخيف، قفزت متحركة بفعل هذه الريح التي لم تكن لتشتهيها. فاستدعت صحيفة «كلاريون» الصحفي بارت بارثولوميو، رجلهم البارع في الوصف، من مسابقة جمال في برايتون (ولكنه كان ممتنًّا لذلك)، واستدعت جامي هوبكينز، نجمهم البارع في «الجريمة والعاطفة»، من جريمة قتل منحطة ومُملَّة للغاية باستخدام قضيب إذكاء النار في برادفورد. (إلى هذا الحد استعدت صحيفة «كلاريون».) وهجر مصورو الأخبار سباقات السيارات، والمقالات النقدية، وحفلات الزفاف المجتمعية، والكريكيت، والرجل الذي كان ذاهبًا إلى المريخ في منطاد، وزحفوا مثل

الخنافس نحو الكوخ في كنت، والبيت الصغير في ساوث ستريت، والقصر المفروش في هامبشاير. وبعد أن استأجرت كريستين كلاي منزلًا ريفيًّا ساحرًا للغاية مثل هذا الأخير، هربت إلى كوخ غير معروف وغير مريح دون عِلم أصدقائها؛ الأمر الذي شكَّل إثارة إضافية للإثارة الناجمة بشكل رئيسي عن وفاتها؛ وهو ما راق الصحافة. وظهرت صور القصر (واجهة الحديقة، بسبب أشجار الطقسوس) على أنها «المكان الذي تملكه كريستين كلاي» (كانت قد استأجرته لهذا الموسم فقط، ولكن لم يكن ثمة إثارة في قولهم «الذي استأجرته»)؛ ثم وضعت بجانب هذه الصور الرائعة صورًا فوتوجرافية لمنزل الشعب المزين بالورود، مع تعليق، «المكان الذي تفضله.»

وذرف وكيلها الصحفي الدموع على ذلك. فشيء من هذا القبيل كان سينتشر انتشار النار في الهشيم ويذيع صيته ولكن الأوان قد فات.

ربما قد يلاحظ أي دارس للطبيعة لم يشارك بنشاط في تبعات الأمر أن موت كريستين كلاي، رغم أنه أدَّى إلى الشفقة، والفزع، والرعب، والندم، ونصف دستة من المشاعر الأخرى بدرجات متفاوتة، فإنه من الواضح أنه لم يدفع أحدًا إلى الحزن. كان الوحيد الذي انفجر في شعور حقيقي هستيري هو روبرت تيسدول عندما رأى جثتها. ومن يمكنه أن يقول كم من هذا كان شفقة على الذات؟ كانت كريستين شخصية دولية للغاية بحيث لا تنتمي إلى أي شيء صغير مثل «مجموعة.» لكن استياء معارفها المباشرين كان رد الفعل الأكثر وضوحًا للأخبار المُروِّعة. وليس هذا دائمًا. فكوين، الذي كان بصدد إخراج فيلمها الثالث والأخير في إنجلترا، قد يكون قد وصل إلى مرحلة اليأس، أما ليجون (تومكينز سابقًا)، الذي كان سيلعب دور البطولة أمامها، فشعر بارتياح كبير؛ إذ قد يكون الفيلم مع كلاي ريشة في قبعتك ومصدر فخر لكنه مصدر نحس في شباك التذاكر الخاص بك. ربما كانت دوقة ترينت، التي رتبت مأدبة غداء مع كلاي بهدف إعادة تأهيلها كمضيفة في عيون لندن، تكزُّ على أسنانها، لكن ليديا كيتس كانت مبتهجةً بشكل علني. لقد تنبَّأت بالموت، وحتى بالنسبة إلى عرافة مجتمع ناجحة كان ذلك تخمينًا جيدًا. وامتدحتها صديقاتها: «عزيزتي، يا له من أمر رائع!» مِرارًا وتَكرارًا «عزيزتي، يا له من أمر رائع!» إلى أن فقدَت ليديا عقلها من الابتهاج لدرجة أنها قضت كلَّ أيامها تنتقل من حفلٍ إلى آخر علها تتمكن من فعل ذلك الأمر الرائع مرة أخرى، وتسمعهم يقولون: «ها هي ليديا! عزيزتي يا له من ...» وتستمتع بحرارة تعجبهم. كلا، بقدر ما يمكن لأي شخص أن يدرك، لم تكن هناك قلوب حزينة لأن كريستين كلاي لم تَعُد موجودة. نفض العالم الغبار عن الملابس السوداء وتمنَّى تلقي الدعوات إلى الجنازة.

الفصل الرابع

ولكن أجري التحقيق أولًا. وخلاله، بدأ يظهر أول تحريك خافت لإثارة أكبر بكثير. كان جامي هوبكينز هو من لاحظ الرجفة التي اعترت السطح الساكن. لقد حصَل على لقبه «جامي» بسبب صياحه وهو سعيد «جام! جام!» وتعني بالعربية «مربى» عند ظهور قصة جيدة أمامه، وتأمله الفلسفي في أوقات الركود هو «تستطيع أن تصنع خبرًا جيدًا من أي شيء.» وكان لدى هوبكينز حاسة ممتازة تجاه الأخبار الجيدة؛ ولذا توقَّف فجأة وسط تحليل الباحثين عن الإثارة الذين تزدحم بهم قاعة قرية كنت الصغيرة لصالح بارثولوميو. وتوقَّف جامدًا ومحدقًا. لأنه، بين القبعات الطويلة لاثنين من صحفيي الإثارة اللامعين، استطاع رؤية وجه رجل هادئ كان أكثر إثارة من أي شيء في ذلك المبنى.

سأل بارت: «هل رأيت شيئًا؟»

«أتسألني هل رأيت شيئًا؟!» انسل هوبكينز من بين الحشد، بمجرد أن جلس المحقق وطلَب من الحضور الصمت. فهمس: «حافظ على مكاني»، واختفى خارج المبنى. ثم دخله مرة أخرى من الباب الخلفي، وشق طريقه بخبرة إلى المكان الذي يريده، وجلس. فأدار الرجل رأسه لرؤية هذا المتطفل.

فقال هوبكينز: «صباح الخير، أيها المفتش.»

بدا على المفتش الاشمئزاز.

قال هوبكينز، بصوت عميق: «لم أكن لأفعل ذلك إذا لم أكن بحاجة إلى المال.»

نقر المحقق مرة أخرى طلبًا للصمت، لكن وجه المفتش استرخى.

وبعد بُرهة، وتحت غطاء صخب وصول بوتيكاري للإدلاء بشهادته، قال هوبكينز: «ماذا تفعل سكوتلاند يارد هنا، أيها المفتش؟»

«تراقب.»

«فهمت. مجرد دراسة التحقيقات كمؤسسة. هل هناك ركود في الجرائم هذه الأيام؟» ونظرًا لأن المفتش لم يُظهر أي علامة على الرغبة في الاسترسال، قال هوبكينز: «أوه، كن رقيق القلب، أيها المفتش. ما الذي تحمله خبايا هذه القضية؟ هل هناك شيء مريب في موتها؟ شكوك، أليس كذلك؟ إذا كنت لا تريد التحدث للنشر فسأضع ما ستقوله في بئر بلا قرار.»

«أنت حقًّا كالقرادة.»

«أوه، حسنًا، انظر إلى الجلود التي يجب أن أخترقها!» لم يُسفر هذا إلا عن ابتسامة ولا شيء غير ذلك. فقال هوبكينز: «اسمعني أيها المحقق. فقط قل لي شيئًا واحدًا. هل سيؤجل هذا التحقيق؟»

«لن أتفاجأ إن حدث هذا.»

قال هوبكينز، نصف ساخر ونصف جاد، وهو يشقُّ طريقه مرة أخرى: «شكرًا لك. هذا يخبرني بكل شيء.» ثم أشار إلى ألبرت ابن السيدة بيتس عبر الحائط حيث يتعلق بالنافذة مثل الحلزون، وأقنعه بأن الحصول على شلنين أفضل من المنظر الجزئي للإجراءات المملة، وأرسله إلى ليدلستون ببرقية جعلت مقر صحيفة «كلاريون» يضج بالحركة. ثم عاد إلى بارت.

وقال من زاوية فمه كإجابة على إيماءة من حاجب بارت: «هناك خطبٌ ما.» وتابع: «إن شرطة سكوتلاند يارد هنا. ذلك هو جرانت خلف القبعة القرمزية. والتحقيق سوف يؤجل. هل خمنت القاتل؟»

قال بارت، وقد تفحَّص الجمع: «ليس هنا.»

قال جامي موافقًا: «بالفعل.» وأضاف: «من هو الرجل الذي يرتدي ملابس خفيفة؟»

«إنه عشيقها.»

«لقد ظننت أن عشيقها هو جاي هارمر.»

«إنه القديم. وهذا هو الجديد.»

«هل هي جريمة قتل بسبب الحب؟»

«أراهن على ذلك.»

«من المفترض أنها باردة المشاعر، أليس كذلك؟»

«أجل، هكذا يقولون. لقد خدعتهم، على ما يبدو. وهو سبب جيد بما يكفي لارتكاب جريمة، حسبما أظن.»

كانت الأدلة من النوع المنهجي — العثور على الجثة وتحديد هويتها — وبمجرد فحصها من قِبل الطبيب الشرعي انتهت الإجراءات، ولم يحدد موعد لاستكمالها.

وقد قرَّر هوبكينز، نظرًا لأن موت كلاي لم يكن نتيجةَ حادث، كما يبدو، ولأن سكوتلاند يارد لم تُلقِ القبضَ على أحدٍ حتى الآن، أن الشخص الذي يجب التحدث معه هو بلا شك ذلك الرجل الذي يرتدي ملابس خفيفة. إنه تيسدول، هذا هو اسمه. قال بارت إن كل صحفي في إنجلترا قد حاول إجراء مقابلة معه في الأيام السابقة (وكان هوبكينز عندئذٍ يتابع قضية القتل التي استخدم فيها قضيب إذكاء النار) لكنه كان فظًّا معهم للغاية. حيث نعتهم بألفاظ مثل غيلان، ومتوحشين، وفئران وصفات أخرى ليس من المستحب ذكرها، ويبدو أنه ليس لديه وعي بمكانة الصحافة. إذ لم يَعُد أحد يعامل الصحافة بهذه الوقاحة — على الأقل دون أن يمر الأمر دون عقاب.

لكن هوبكينز لديه إيمان قوي بقدرته على اجتذاب العقل البشري.

ومن ثم سأل بلا مبالاة: «هل أنت السيد تيسدول؟» بعد أن «وجد» نفسه يسير بجانب الشاب في طريق خروجهما نحو باب القاعة وسط الحشد المزدحم.

تجهَّم وجهُ الرجل وبدَت عليه العدائية على الفور.

وقال بعدوانية: «أجل، إنه أنا.»

«هل أنت ابن أخي العجوز توم تيسدول؟»

فصفا وجهه بسرعة.

«أجل، هل تعرف العم توم؟»

قال هوبكينز: «بعض الشيء»، ولم يرتبك للحظةٍ بعد اكتشاف أن هناك بالفعل شخصًا يُدعى توم تيسدول.

«يبدو أنك تعلم أني قد تخليت عن ستاناواي؟»

قال هوبكينز: «أجل، لقد أخبرني أحدهم»، بينما يتساءل بينه وبين نفسه عما إذا كان ستاناواي هو منزل، أم ماذا؟ ثم أضاف: «ماذا ستفعل الآن؟»

وبوصولهم عند باب القاعة، كان هوبكينز قد وطَّد بالفعل علاقته بالشاب. «هل يمكنني توصيلك بالسيارة إلى أي مكان؟ لمَ لا تأتي لتناول الغداء معي؟»

وبمنتهى السهولة! خلال نصف ساعة سيحصل على سبق صحفي للنشر على الصفحة الأولى. وهذا هو الطفل الذي قالوا إن التعامل معه صعب للغاية! لا، ليس هناك أيُّ شك في الأمر: جيمس بروك هوبكينز، هو أفضل صحفي في مجاله.

وجاءه صوت جرانت المبهج من فوق كتفه وهو يقول: «أنا آسف، يا سيد هوبكينز.» وتابع: «لا أودُّ أن أُفسد حفلتك، لكن السيد تيسدول لديه موعد معي.» ونظرًا لأن تيسدول كشف عن دهشته وهوبكينز سارع بالتخمين، فقد أضاف جرانت: «نحن نأمُل أن يستطيع مساعدتنا.»

شرَع تيسدول يقول: «أنا لا أفهم.» فسارع هوبكينز بخبث مبتهج، بعد أن أدرك أن تيسدول لا يعرف هُويَّة السيد جرانت.

وقال: «هذا هو المفتش جرانت. إنه من سكوتلاند يارد.» وتابع: «وهو الرجل الذي استطاع أن يكشف غموض جميع الجرائم التي تولَّى التحقيق فيها.»

قال جرانت: «أتمنى أن تتولى أنت كتابة النعي الخاص بي.»

قال الصحفي بحماس: «أتمنى ذلك!»

وبعد ذلك انتبها إلى تيسدول. كان وجهه شاحبًا، وجافًّا كما لو أنه قد أصبح عجوزًا وخاليًا من أي تعبير. ولم يدلَّ على أنه ما زال على قيد الحياة سوى نبضه الذي يدقُّ بقوة على صُدغه. فوقف الصحفي والمفتش وهما ينظران بدهشة على رد الفعل غير المتوقع لما قاله هوبكينز. وسارع جرانت بمساندة ذراعه، حينما لاحظ أن ركبتَي الرجل بدأتا في الارتخاء.

«تفضل! تعالَ واجلس. إن سيارتي على مقربة من هنا.»

ومن ثم دفع تيسدول برفق وبدا كما لو أن العمى قد أصابه، وسارا وسط الجماهير البطيئة المثرثرة، حتى وصلا إلى سيارة مفتوحة سوداء اللون فأجلسه في المقعد الخلفي.

وقال للسائق: «ويستوفر»، ثم جلس بجانب تيسدول.

وبينما يتحركون ببطء باتجاه الطريق الرئيسي، رأى جرانت هوبكينز وهو لا يزال واقفًا حيث تركاه. إن وقوف جامي هوبكينز دون أن يحرك ساكنًا لمدة تزيد على ثلاث دقائق متصلة يدل على أنه مستغرق في التفكير العميق. فمن الآن فصاعدًا — تنهَّد المفتش — سيتحول صحفي الإثارة إلي محقق في الجرائم.

وقد أصبح لدى المفتش، أيضًا، ما يشغل تفكيره. فقد استدعي في الليلة الماضية من قبل شرطة المقاطعة التي لا ترغب في الظهور بمظهرٍ سخيف نتيجة تضخيم الأمور، لكنها وجدت نفسها غير قادرة على التفسير بشكل مُرضٍ لعقبة صغيرة ومحيرة للغاية تعترض مسار القضية. لقد رأوا جميعًا تلك العقبة، من مدير الأمن وحتى السيرجنت الذي تولَّى المسئولية عند الشاطئ، ولم يقتنع كلٌّ منهم بنظريات الآخرين، ثم اتفقوا جميعًا في

النهاية على أمرٍ واحد فقط؛ أنهم يريدون إلقاء المسئولية على كاهل شخص آخر. يصبح من الجيد التمسُّك بالقضية، والتفاخر بحلها، حينما تكون بسيطة ويمكن حلها بسهولة. ولكن أن يقرروا بدمٍ بارد الإعلان عن وجود جريمة، بناءً على أدلة مشكوك فيها كتلك المطروحة أمامهم على الطاولة، وأن يخاطروا، ليس فقط بخزي الفشل، ولكن الأسوأ بوخزات السخرية، هو أمر لا يملكون الشجاعة لفعله. ومن ثَم ألغى جرانت حجزه لتلك الليلة في مسرح كرايتيريون وسافر إلى ويستوفر. وقد فحص هذه العقبة، واستمع بصبر إلى نظريات رجال الشرطة هناك، وباحترام إلى أقوال الطبيب الشرعي، ثم ذهب لينام خلال بعض الساعات المتبقية من الليلة بعد أن قرَّر أنه من الضروري استجواب روبرت تيسدول. والآن ها هو تيسدول، يجلس بجانبه، وما زال غير قادر على التحدث وهو يعاني من شبه إغماءة بسبب مواجهته دون سابق إنذار من قبل مفتش في سكوتلاند يارد. بالتأكيد هناك قضية، ليس هناك شك في ذلك. حسنًا، ليس من الممكن إجراء استجواب في وجود كورك الذي يقود السيارة؛ لذا يمكن ترك تيسدول حتى يتمالك نفسه إلى أن يعودوا إلى ويستوفر. فأخذ جرانت زجاجة مشروب صغيرة من جيب مقعد السيارة وقدَّمها له. أخذها تيسدول وهو يرتجف لكنه شربها عن آخرها. وبعد فترة اعتذر على هذا الوهن الذي اعتراه.

«أنا لا أعرف ما الذي اعتراني. لقد تسببَت هذه القضية في صدمة قوية لي. لم أكن أنام. وظلِلت أشغل ذهني بالتفكير في الأمور على نحوٍ متواصل. أو على وجه الدقة، ظل ذهني يفعل ذلك؛ لا أستطيع إيقافه. وبعد ذلك، بدا خلال التحقيق ... إن جاز لي التعبير، هل هناك خطبٌ ما؟ أعني، ألم يكن الحادث عبارة عن حادث غرق بسيط؟ لماذا أجَّلوا إنهاء التحقيق؟»

«هناك أمرٌ أو أمران وجدتهما الشرطة محيرَين.»

«مثل ماذا، على سبيل المثال؟»

«أعتقد أننا لن نناقشهما إلى أن نصل إلى ويستوفر.»

«هل أي شيء سأقوله قد يُتخذ دليلًا ضدي؟» كانت الابتسامة ساخرة لكن النية طيبة.

قال المفتش على نحوٍ لطيف: «لقد أخذت الكلمات من على لساني»، ثم ساد الصمت بينهما.

وبعد وصولهما إلى مكتب مدير الأمن في مقر شرطة المقاطعة، بدا تيسدول طبيعيًّا وإن كان قلقًا بعض الشيء. وفي الواقع، لقد بدا طبيعيًّا للغاية لدرجة أنه حينما قال جرانت: «هذا هو السيد تيسدول»، كاد مدير الأمن، وهو رجل ودود ما لم يستفزه أحد، أن يصافحه، لكنه تراجعَ عن ذلك، قبل أن يرتكب أي خطأ.

وقال وهو يتنحنح ليمنح نفسه الوقت الكافي: «تشرفنا. إحم إحم!» إنه لا يستطيع فعل ذلك، بالطبع. يا إلهي، كلا. هذا الرجل مشتبه به في ارتكاب جريمة قتل. لا يبدو عليه ذلك، كلا، يكاد يجزم بأنه لم يفعل. لكن لا يمكن الجزم بشيء في هذه الأيام. إن أكثر الناس جاذبية هم ... حسنًا، إنها أمور لم يكن يعرف أنها موجودة إلَّا من وقت قريب. أمر مؤسف للغاية. لكن لا يمكنه مصافحته، بالطبع. كلا، بالقطع كلا. «إحم إحم! صباح لطيف! لكنه لا يصلح للتسابق، بالطبع. يسير بصعوبة. لكنه جيد لمحبي الإجازات. لا يجب أن نُصبح أنانيين بخصوص ما يبهجنا. هل أنت من محبي التسابق؟ هل تذهب إلى جودوود؟ أوه، حسنًا، ربما ... كلا. حسنًا، أظن أنك و... وصديقنا هنا ...» بطريقة ما لا يرغب المرء في أن يقلل من حقيقة تميز جرانت كمفتش. رجل ذو مظهر حسن. حسن التربية، وكل ذلك — ثم أضاف من أجل مصلحة جرانت، في حالة ما إذا أراده المفتش: «هل تود التحدث في هدوء. أنا ذاهب لتناول الغداء. في مطعم شيب.» وتابع: «ليس لأن الطعام جيد للغاية هناك، لكن لأنه مطعم محترم. ليس مثل تلك المطاعم في الميناء. أود الحصول على قطعة من اللحم مع البطاطس من دون الذَّهاب إلى المطاعم المشمسة.» وبعد ذلك خرج مدير الأمن من الغرفة.

قال تيسدول: «إنه مثل الممثل فريدي لويد.»

نظر جرانت نحوه بتقدير بينما يسحب كرسيًّا للأمام.

«أنت من محبي المسرح.»

«لقد كنتُ من محبي أغلب الأشياء.»

ركز ذهن جرانت على غرابة العبارة. وسأل: «لماذا «كنت»؟»

«لأني مفلس. والمرء يلزمه المال حتى يتمكن من مشاهدة ما يحب.»

«أنت لن تنسى عبارة «كل ما ستقوله سيُتخذ دليلًا ضدك»، أليس كذلك؟»

«أجل، شكرًا، لكن هذا لا يصنع أيَّ فارق. يمكنني فقط أن أخبرك بالحقيقة. إذا أخذت أي استنتاجات خاطئة منها فهي غلطتك أنت، وليست غلطتي.»

«إذن أنا من يُجري استجوابه. نقطة لطيفة. أنا أقدرها. حسنًا، جربني. أريد أن أعرف كيف كنت تعيش في نفس المنزل مع امرأة لا تعرف اسمها؟ أنت قلت هذا لشرطة المقاطعة، أليس كذلك؟»

«بلى. أظن أن الأمر يبدو غير معقول. وسخيفًا، أيضًا. لكنه بسيط للغاية. اسمع، لقد كنت أقف على الرصيف المقابل لملهى جايتي في إحدى الليالي، في وقت متأخر للغاية،

وأنا أتساءل ماذا عساني أن أفعل. لم يكن معي في جيبي سوى خمسة بنسات، وهو ما يعتبر مبلغًا زائدًا بمقدار خمسة بنسات عما أريد، لأني كنت أهدف إلى إنفاق كل ما معي. وتساءلت ما إذا كان عليَّ أن أقوم بجولة أخيرة وأنفق الخمسة بنسات (ليس هناك الكثير ليفعله المرء بخمسة بنسات) أم أتغاضى عن ذلك، وأنسى أمر البنسات القليلة. ومن ثم ...»

«لحظة واحدة. هل يمكنك التوضيح لشخص غبي ما هي أهمية تلك البنسات الخمسة؟»

«لقد كانت آخر ما تبقى لي من ثروة، كما ترى. ثلاثون ألفًا. ورثتها عن خالي. أخو أمي. إن اسم عائلتي الحقيقي هو ستاناواي، لكن خالي توم طلب مني أن أحصل على اسم عائلته مع المال. فلم أرَ مانعًا. فعائلة تيسدول أفضل بكثير من عائلة ستاناواي، على أي حال. من حيث القوة والثقل وكل ذلك. إذا كنت أحمل اسم عائلة تيسدول فلم أكن لأصبح مفلسًا الآن، لكنني أحمل اسم عائلة ستاناواي؛ ولذا أنا مفلس تقريبًا. لقد كنت أحمق للغاية، وشخصًا مزعجًا تمامًا. كنت أعمل في مكتب مهندس معماري عندما ورثت المال، وأسكن في شقة صغيرة تفي بالغرض؛ وطرأ على ذهني أنني سأحصل على ما بدا أنه أكثر مما يمكن أن أنفقه طَوال حياتي. فتركت وظيفتي وسافرت لزيارة كل الأماكن التي طالما رغبت في زيارتها، ولم يكن لديَّ أمل في تحقيق ذلك. نيويورك وهوليوود وبودابست وروما وكابري والكثير من الأماكن الأخرى. وعدت إلى لندن ومعي نحو ألفين من الجنيهات، وأنا أنوي أن أدخرها في البنك وأحصل على وظيفة. كان من السهل فِعلُ ذلك قبل عامين — أقصد ادخار المال. إذ لم يكن لديَّ حينها أصدقاء يستحثونني كي أُنفقها عليهم. لكن خلال هذين العامين كنت قد تعرفت على الكثير من الأصدقاء حول العالم، ودائمًا ما كان يوجد الكثير منهم في لندن في الوقت نفسه. وهكذا استيقظت ذات صباح لأجد معي آخر مائة جنيه. وقد سبَّب لي ذلك صدمةً إلى حدٍّ ما. كما لو أن أحدًا قد صبَّ عليَّ ماءً باردًا. فجلست أفكر لأول مرة منذ سنتين. فوجدت أن لديَّ الاختيار بين أحد أمرين: الحياة على نفقة الآخرين — يمكنك الحياة برفاهية في أي من عواصم العالم لمدة ستة أشهر إن كنت تجيد التطفل على الآخرين: أنا واثق من ذلك؛ لقد استضفت العديد من الأشخاص من هذه النوعية ... والأمر الثاني هو الاختفاء. وقد بدا أن الاختفاء أسهل. يمكنني الابتعاد بسهولة. كل ما سيقوله الناس: «أين بوبي تيسدول هذه الأيام؟» وسيظنون أنني قد سافرت إلى أحد أرجاء العالم التي يسافرون هم إليها، وأنهم قد يقابلونني في أحد تلك الأيام. لقد كانوا يظنون أني غني للغاية؛ لذا فمن الأسهل أن أختفيَ وأتركهم يظنون ذلك بدلًا من أن أبقى

ليسخروا مني عندما تتضح لهم الحقيقة. ومن ثم سددت جميع فواتيري، فتبقَّى معي سبعة وخمسون جنيهًا. وظننت أنه ربما عليَّ أن أحظى بفرصة أخيرة للمقامرة آنذاك، وأرى إن كان بإمكاني الفوز بما يكفي لأن أبدأ به الحياة في المستوى الجديد. ومن ثم راهنت بثلاثين جنيهًا ... خمسة عشر في كل مرة؛ وهذا ما تبقَّى من صفات تيسدول بداخلي — على المقامر ريد روان في كازينو إيكليبس للقِمار. وقد أحرز روان المركز الخامس. ولا تكفي العشرون جنيهًا وبضعة جنيهات لبَدء أي شيء سوى شراء عربة يد. لم يكن هناك ما يمكن فعله سوى التشرد وطلب المعونة. لم يكن لديَّ مانع من التشرد وطلب المعونة — حيث سيصبح تغييرًا — لكن لا يمكنك طلب المعونة ومعك سبعة وعشرون جنيهًا في البنك؛ لذا قررت التخلص منها كلها دفعة واحدة في الليلة الماضية. وأخذت عهدًا على نفسي أن ينتهيَ بي الأمر بدون بنس واحد في جيبي. ثم سأرهن ملابس السهرة الخاصة بي مقابل ملابس مناسبة وأنطلق على الطريق. لكن ما لم أضعه في الحسبان هو أنه لا يمكن رهن الأشياء في وست إند في منتصف ليلة السبت. ولا يمكنك الانطلاق على الطريق في ملابس السهرة من دون لفت الانتباه. ومن ثم وقفت هناك، مثلما قلت، وأنا أشعر بالسخط تجاه تلك البنسات الخمسة وأتساءل ماذا سأفعل بخصوص ملابسي وبخصوص المكان الذي سأنام فيه. وقفت بجوار إشارة المرور في ألدويتش، بالضبط قبل الانعطاف إلى لانكستر بليس، عندما توقَّفت سيارة بسبب ضوء الإشارة الأحمر. وكانت كريس في هذه السيارة بمفردها ...»

«كريس؟»

«لم أكن أعرف اسمها آنذاك. نظرت نحوي قليلًا. وكان الشارع هادئًا للغاية. ليس فيه سوانا. وكنا على مقربة لذا بدا الأمر طبيعيًّا عندما ابتسمت وقالت: «هل تود أن أقلَّك إلى أي مكان، أيها السيد؟» فقلت: «أجل. لاندس إند». فقالت: «بعيد قليلًا عن مساري. هل أوصلك إلى تشاتام، أو فافرشام، أو كانتربيري، أو أي منطقة أخرى في الغرب؟» حسنًا، لم يكن هناك سوى حل واحد. إذ ليس بإمكاني الاستمرار في الوقوف هناك، وليس بإمكاني التفكير في قصة مُحكَمة يمكنني بها أن أحصل على سرير في منزل صديق. إلى جانب أني شعرت بالبعد عن كل من يعرفونني بالفعل. لذا ركبت دون التفكير في الأمر كثيرًا. كانت جذَّابة للغاية بالنسبة إليَّ. لم أخبرها بكل ما أخبرك به الآن، لكنها سرعان ما اكتشفت أني مفلس تمامًا. بدأت أوضح لها الأمر، لكنها قالت: «حسنًا، أنا لا أريد أن أعرف. ليتقبل أحدنا الآخر كما هو دون الخوض في تفاصيل. أنت روبين وأنا كريس.» لقد أخبرتها أن

اسمي هو روبرت ستاناواي، ودون أن تدري أطلقت هي عليَّ الاسم الذي كانت تدللني به عائلتي. أمَّا أصدقائي فكانوا يطلقون عليَّ اسم بوبي. لكن من المريح نوعًا ما أن أسمع أحدًا يناديني باسم روبين مرة أخرى.»

«لماذا قلت إن اسمك هو ستاناواي؟»

«لا أعرف. ربما نوع من الرغبة في الابتعاد عن الجانب الثري مني. لم أكن معجبًا للغاية بالاسم، على أي حال. وفي ذهني كنت دائمًا أعتبر هُويَّتي هي اسم عائلة ستاناواي.»

«حسنًا، أكمل.»

«ليس هناك المزيد كي أحكيه. لقد عرضت عليَّ أن تستضيفني. وأخبرتني أنها تعيش بمفردها، لكنني ... حسنًا، لكنني سأصبح مجرد ضيف. فقلت إنها تعرض نفسها لمخاطرة بذلك. فقالت: «أجل، لقد عرَّضت نفسي لمخاطر كثيرة طَوال حياتي لكنها انتهت على خير، حتى الآن.» لقد بدا تصرفًا محرجًا بالنسبة إليَّ، لكن تبيَّن العكس فيما بعد. لقد كانت مُحقَّة حول الأمر. إن تقبُّل كلٍّ منا للآخر كما هو دون الخوض في تفاصيل، جعل الأمور تسير بسهولة شديدة. وعلى نحوٍ ما (كان الأمر غريبًا، لكن هذا ما حدث) بدا كما لو كان أحدنا يعرف الآخر منذ سنين. لو كنا قد بدأنا التعارف بطريقة تقليدية وتدريجية، لأخذ الأمر منا أسابيع حتى نصل إلى نفس المرحلة. لقد أعجبتني وأعجبتها كثيرًا. لا أقصد من الناحية العاطفية، على الرغم من جاذبيتها الشديدة؛ لكنني أقصد من حيث نبلها. لم يكن لديَّ ملابس لأرتديها في الصباح التالي، لكنني قضيت اليوم مرتديًا ثوب استحمام وأحد الأرواب الذي تركه شخص ما. وفي يوم الإثنين جاءت السيدة بيتس إلى غرفتي وقالت: «حقيبة ملابسك، يا سيدي»، وتركت حقيبة لم أرَها قبل ذلك في منتصف الأرضية. كانت الحقيبة تحتوي على بدلة جديدة، وجاكت من صوف التويد، وفانلات، وجوارب، وقمصان، وكل شيء. من متجرٍ ما في كانتربيري. كانت الحقيبة قديمة، وعليها ملصق كتب عليه اسمي. لقد كانت حتى تتذكر اسمي. حسنًا، لا أستطيع أن أصف لك ما شعرت به بخصوص تلك الأشياء. أتعلم، لقد كانت المرة الأولى منذ سنين التي يهديني فيها شخص أيَّ شيء. مع من يعرفونني، كان الأمر أنهم يأخذون مني فقط، طَوال الوقت. «بوبي سوف يدفع.» «بوبي سيعيرني سيارته.» لم يفكروا بي أبدًا. ولا أظن أنهم توقَّفوا أبدًا كي ينظروا إلي. على أي حال، لقد أسرتني بتلك الملابس. وجعلتني أرغب في أن أفتديها بحياتي. لقد ضحكت عندما رأتني أرتديها — كانت جاهزة، بالطبع، لكن مقاسها مناسب — وقالت: «ليست مثل ملابس محلات برتون ستريت، لكنها ستفي بالغرض. لا تقل إني لا أستطيع تحديد

مقاس رجل.» ومن ثم اتفقنا على تمضية وقت لطيف معًا، نتجول في خمول، ونقرأ، ونتسامر، ونسبح، ونطهو الطعام عندما لا تكون السيدة بيتس موجودة. ونفضت عن ذهني التفكير فيما قد يحدث بعد ذلك. وأخبرتني أن عليها مغادرة المنزل بعد نحو عشرة أيام. وقد حاولتُ المغادرة بعد اليوم الأول، من قبيل التهذيب، لكنها لم توافق. وبعد ذلك لم أحاول. هذه هي الطريقة التي من خلالها أتيح لي البقاء هناك، وهذا هو سبب أني لم أكن أعرف اسمها.» ومن ثم تنهد تنهيدة حارة وهو يعتدل في جلسته ويسند ظهره إلى الخلف. وأضاف: «أصبحت الآن أعرف كيف يكسب هؤلاء المحللون النفسيون المال. لقد مرَّ وقت طويل منذ أن استمتعت بأي شيء مثل إخبارك بكل شيء عن نفسي.»

ابتسم جرانت دون رغبة منه. حيث بدا أسلوب الفتي طفوليًّا على نحوٍ ما.

ثم نفض ذلك عن عقله، مثل كلب يخرج من الماء.

إنه جذاب ساحر. والجاذبية هي أكثر الأسلحة غَوايةً في كل الترسانة البشرية. وها هو، يجري استغلاله دون أن يشعر. فقرر ألا يتعاطف مع الوجه الطيب اللطيف. لقد مرَّ عليه خلال مهنته بعض القتلة الذين يتمتعون بهذا النوع من حُسن المظهر؛ عيون زرقاء، وملامح ودودة، طيبة؛ ومنهم من دفن خطيبته بعد تقطيع جثتها في حفرة رماد. كانت عيون تيسدول من ذلك النوع ذي اللون الأزرق الداكن الدافئ الذي لاحظه جرانت كثيرًا في رجال يمثل لهم مجتمع النساء ضرورة للوجود. إن الأطفال الأعزاء لدى الأم يمتلكون مثل تلك العيون؛ وكذلك، في بعض الأحيان، يمتلكها الرجل زير النساء.

حسنًا، بعد فترة قصيرة سيتقصى عن تيسدول. أمَّا الآن …

سأل، وهو يترقب الوقت الذي سيتمكن فيه من استدراج تيسدول دون إثارة شكوكه إلى المسألة الحاسمة: «هل تطلب مني تصديق أنه خلال الأيام الأربعة التي قضيتماها معًا لم يكن لديك أيُّ شك على الإطلاق في هوية الآنسة كلاي؟»

«لقد شككت في أنها ممثلة. كان ذلك جزئيًّا بسبب أشياء قالتها، ولكن في الأساس بسبب وجود الكثير من مجلات المسرح والأفلام في المنزل. فسألتها عن ذلك ذات مرة، لكنها قالت: «لقد اتفقنا على ألَّا نخوض في التفاصيل التي لا جدوى منها. وهذا اتفاق مريح يا روبين. فلا تنسَ ذلك.»»

«حسنًا. هل تضمنت الملابس التي اشترتها لك الآنسة كلاي معطفًا؟»

«لا. معطف مطر خفيف. كان لدي معطف ثقيل.»

«هل كنت ترتدي معطفًا فوق بدلة السهرة؟»

«أجل. كان الجو ممطرًا عندما خرجنا لتناول العشاء — أعني أنا وأصحابي.»

«وهل لديك هذا المعطف حتى الآن؟»

«كلا. لقد سُرق من السيارة ذات يوم عندما كنا في ديمتشيرش.» ثم نظر إليه بقلق فجأة. ثم سأل: «لماذا؟ ما علاقة المعطف بالأمر؟»

«هل كان لونه داكنًا أم فاتحًا؟»

«داكن بالطبع. رمادي مائل للأسود نوعًا ما. لماذا؟»

«هل أبلغت عن فقده؟»

«كلا، لم يرغب أي منا في جذب الانتباه إلينا. ما الذي …»

«هل يمكن أن تخبرني فقط عما حدث صباح الخميس؟» أخذ الوجه المقابل له يفقد تلقائيته ويصبح حذرًا وعدوانيًّا مرة أخرى. فواصل استجوابه قائلًا: «لقد فهمت أنك لم تذهب مع الآنسة كلاي للسباحة. هل هذا صحيح؟»

«أجل. لكنني استيقظت بمجرد رحيلها تقريبًا …»

«كيف تعرف متى رحلت إذا كنت نائمًا؟»

«لأن الساعة كانت لا تزال السادسة فقط. لا يمكن أن تكون قد ذهبت منذ وقت طويل. وقالت السيدة بيتس بعد ذلك إنني تتبَّعتها في الطريق بعد أن غادرت بقليل.»

«فهمت. وفي غضون ساعة ونصف — تقريبًا — بين نهوضك والعثور على جثة الآنسة كلاي مشيت إلى شاطئ جاب، وسرقت السيارة، وقدتها في اتجاه كانتربري، وندمت على ما فعلته، وعدت، فوجدت أن الآنسة كلاي قد غرقت. هل هذا تقرير كامل لأفعالك؟»

«أجل، أعتقد ذلك.»

«إذا كنت قد شعرت بالامتنان الشديد للآنسة كلاي، فمن المؤكد أن ما فعلته كان شيئًا استثنائيًّا.»

«إن كلمة استثنائي ليست هي الكلمة المناسبة على الإطلاق. حتى الآن لا أصدق أنني فعلت ذلك.»

«هل أنت متأكد تمامًا من أنك لم تنزل إلى الماء في ذلك الصباح؟»

«بالطبع أنا متأكد. لماذا؟»

«متى كانت آخر مرة سبحت فيها؟ قبل صباح الخميس، أعني؟»

«ظهر يوم الأربعاء.»

«ومع ذلك، كان ثوب السباحة الخاص بك مبللًا في صباح الخميس.»

«كيف عرفت ذلك؟ أجل، لقد كان. ولكن ليس بالمياه المالحة. لقد نُشر حتى يجف على الجملون أسفل نافذتي، وعندما كنت أرتدي ملابسي صباح الخميس، لاحظت أن فضلات

الطيور على الشجرة — حيث تتدلى شجرة تفاح فوق هذا الجملون — وقعت عليه. لذلك غسلته في الماء الذي كنت أستحم به.»

«أنت لم تضعه ليجف مرة أخرى، رغم هذا، أليس كذلك؟»

«بعد ما حدث في المرة الأخيرة؟ كلا! وضعته على حامل المناشف. أرجوك، أيها المفتش، أخبرني ما علاقة كل هذا بوفاة كريس؟ ألا يمكنك إدراك أن الأسئلة التي لا يمكنك معرفة سببها هي نوع من التعذيب؟ لقد واجهت كل ما يمكنني تحمُّله تقريبًا. إن التحقيق هذا الصباح هو القشة التي قصمت ظهر البعير. فالجميع كانوا يصفون كيف وجدوها. يتحدثون عن «الجثة»، في حين أنهم كانوا طَوال الوقت يتحدثون عن كريس. كريس! والآن كل هذا الغموض والشك. إذا كان هناك أي شيء غير واضح بشأن غرقها، فما علاقة معطفي به، على أي حال؟»

«لأن هذا وجد مشبوكًا في شعرها.»

فتح جرانت صندوقًا من الكرتون على الطاولة وأخرج منه زرًّا أسود من النوع المستخدم في معاطف الرجال. تمزق من مكانه الصحيح، ولا تزال الخيوط البالية من ربطه تشكل «رقبة» ممزقة. وحول الرقبة، بالقرب من الزر، التفَّت خصلة رفيعة من الشعر الفاتح.

انتفض تيسدول واقفًا على قدميه، وكلتا يديه على حافة الطاولة، محدقًا لأسفل في الزر.

«هل تعتقد أن شخصًا ما قد أغرقها؟ أعني ... هكذا! لكن هذا ليس لي. هناك آلاف الأزرار مثله. ما الذي يجعلك تظن أنه ملكي؟»

«أنا لا أظن أي شيء، يا سيد تيسدول. أنا فقط أستبعد بعض الاحتمالات. كل ما أردتك أن تفعله هو تحديد أي ملابس تملكها وهي تحتوي على أزرار مثل هذا. أنت تقول إن لديك واحدًا ولكنه سُرق.»

حدَّق تيسدول في المفتش، وهو لا يستطيع أن ينبس ببنت شفة.

ثم فتح الباب، بعد طَرقات رقيقة، وفي منتصف الأرضية وقفت طفلة صغيرة نحيفة تبلغ من العمر ستة عشر عامًا ترتدي ملابس رثة من صوف التويد، ورأسها الداكن بلا قبَّعة وغير مهندم بالمرة.

وقالت: «أوه، آسفة.» وتابعت: «ظننت أن والدي هنا. آسفة.»

فانهار تيسدول مرتطمًا بالأرض.

وتحرك جرانت، الذي كان جالسًا على الجانب الآخر من الطاولة الكبيرة، كي يساعده، لكن الطفلة النحيفة، بدون تسرُّع أو فزع، وصلت إليه أولًا.

وقالت: «يا إلهي!» بينما تمسك الجسد المنهار من تحت الكتفين من الخلف وتقلبه.

أخذ جرانت وسادة من على كرسي.

فقالت: «لا ينبغي فِعلُ ذلك.» وتابعت: «اترك الرأس متراجعًا للخلف ما لم تكن هناك سكتة دماغية. وهو صغير قليلًا على حدوث هذا، أليس كذلك؟»

كانت تقوم بفك الياقة وربطة العنق والقميص بخبرة وكأنها طاهي معجنات يشذب حواف فطيرة. لاحظ جرانت أن ساعديها اللذين لوَّحتهما الشمس مغطيان بندبات وخدوش صغيرة متفاوتة العمر، وأنهما كانا أطول بكثير من الأكمام التي صغرت عليها.

«سوف تجد البراندي في الخزانة، على ما أعتقد. غير مسموح لأبي بتناوله، لكن ليس لديه قدرة على ضبط النفس.»

عثر جرانت على البراندي وعاد ليجدها تصفع وجه تيسدول اللاواعي بضربات خفيفة ثابتة.

قال جرانت: «يبدو أنك بارعة في هذا النوع من الأشياء.»

«أوه، أنا أدير فريق الجوالة في المدرسة.» كان لديها صوت حاد وودود في آن واحد. وتابعت: «مؤسسة سخيفة للغاية. لكنها تُغيِّر الروتين. هذا هو الشيء الرئيسي، تغيير الروتين.»

سألها، وهو يومئ برأسه نحو ما تفعله: «هل تعلمت هذا من الجوالة؟»

«أوه، كلا. إنهم يحرقون الورق ويشمون الأملاح وأشياء من هذا القبيل. لقد تعلمت هذا في غرفة ملابس برادفورد بيت.»

«أين؟»

«ألا تعرفه؟ ملاكم الوزن خفيف الوسط. كنت أعلق على بيت آمالًا كبيرة، لكنني أعتقد أنه فقد سرعته مؤخرًا. ألا تظن ذلك؟ على الأقل، آمُل أن تكون سرعته. إنه يُفيق بشكل جيد.» كانت تقصد تيسدول بعبارتها الأخيرة. وتابعت: «أعتقد أنه سيحتسي البراندي الآن.»

وبينما يسقيه جرانت البراندي، قالت: «هل كنت تحقق معه بقسوة، أو شيء من هذا القبيل؟ أنت شرطي، أليس كذلك؟»

«يا آنستي الصغيرة ... أنا لا أعرف اسمك، فما هو؟»

«إريكا. أنا إريكا بيرجوين.»

«عزيزتي الآنسة بيرجوين، بصفتك ابنة مدير الأمن، يجب أن تدركي أن الأشخاص الوحيدين في بريطانيا الذين يخضعون للتحقيقات القاسية هم أفراد الشرطة.»

«حسنًا، لماذا فقد وعيه؟ أهو مذنب؟»

قال جرانت، قبل أن يفكر: «لا أعرف.»

قالت: «لا أظن أنه مذنب.» وكانت تنظر نحو تيسدول وهو يفيق. ثم تابعت: «إنه لا يبدو قادرًا على فعل الكثير.» قالت هذا بنفس الاتزان الذي فعلت به كل ما قامت به.

«لا تدعي المظهر يؤثر على حكمك، يا آنسة بيرجوين.»

«أنا لا أفعل. ليس بالطريقة التي تقصدها. على أي حال، هو ليس من نوعي المفضل على الإطلاق. لكن من الصواب تمامًا الحكم على المظهر إذا كنت تعرف ما يكفي. فأنت لن تشتريَ الكَستناء إذا كانت ثمرته صغيرة ولونه باهتًا، أليس كذلك؟»

هذه، حسب اعتقاد جرانت، هي أكثر محادثة مدهشة.

كانت واقفة الآن، وقد دفعت يديها في جيبَي سترتها الرثة حتى أضحت مشدودةً عند نقطتين منتفختين. وكان صوف التويد متآكلًا عند الأساور ومُغطًّى بالكامل بالخيوط المُنتَّشة بسبب الأشواك. وكانت تنورتها قصيرة للغاية، وكان أحد جوربيها ملتويًا بعنف على ساقها الشديدة النحول التي تشبه العصا. وكان حذاؤها — المخدوش مثل يديها، ولكنه سميك وحسن الشكل وغالي الثمن — هو الشيء الوحيد الذي نمَّ عن حقيقة أنها لم تكن طفلة تتلقى المعونة والإحسان.

ثم عادت عينا جرانت إلى وجهها. ناهيك عن وجهها. إن الثقة الهادئة التي تنبعث من هذا الوجه المثلث الصغير الشاحب لم تكن لتُرى في فتاة نشأت في مدرسة خيرية.

قالت مشجعة، بينما يساعد جرانت تيسدول ليقف على قدميه ثم يُجلسه على كرسي: «ها هو ذا!» وتابعت: «ستصبح بخير. تناول القليل من براندي والدي. إن شربك له أفضل بكثير من أن يسريَ في شرايين والدي. سأنصرف الآن. أين أبي، هل تعلم؟» كان هذا السؤال موجهًا لجرانت.

«لقد ذهب لتناول الغداء في مطعم شيب.»

«شكرًا لك.» ثم التفتت إلى تيسدول الذي ما زال في حالة دوار، وقالت: «إن ياقة قميصك ضيقة للغاية.» وعندما تحرك جرانت لفتح الباب لها، قالت: «أنت لم تخبرني باسمك.»

رد قائلًا: «جرانت. أنا في خدمتك.» وانحنى لها انحناءة بسيطة.

فقالت: «لست بحاجة إلى أي شيء الآن، ولكن ربما في يوم من الأيام.» ثم نظرت إليه بتمعُّن. فوجد جرانت نفسه يأمُل بحماسة فاجأته ألا يوضع في نفس فئة «ثمار الكَستناء الباهتة اللون.» وتابعت: «أنت من النوع الذي أفضله للغاية. فأنا أحب الناس ذوي عظام الوجنتين العريضة. إلى اللقاء، يا سيد جرانت.»

سأل تيسدول، بنبرة لامبالية بعد استعادة الوعي: «من هذه؟»

«ابنة الكولونيل بيرجوين.»

«كانت محقة بشأن قميصي.»

«أهو من تلك الثياب الجاهزة؟»

«أجل. هل أنا معتقل؟»

«أوه، كلا. لا شيء من هذا القبيل.»

«قد لا تكون فكرة سيئة.»

«ماذا؟ لمَ تقول هذا؟»

«على الأقل سأعرف مصيري في المستقبل القريب. لقد غادرت منزل الآنسة كلاي هذا الصباح وأنا الآن بلا مأوى.»

«أنت تقصد أنك جاد بشأن التنقل مثل المشردين.»

«بمجرد أن أحصل على الملابس المناسبة.»

«أفضل أن تبقى حيث يمكنني الحصول على معلومات منك إذا أردت.»

«أنا أتفهَّم وجهة نظرك. ولكن كيف؟»

«ماذا عن مكتب ذلك المهندس المعماري؟ لماذا لا تحاول الحصول على وظيفة؟»

«لن أعود إلى العمل في مكتب أبدًا. ليس مهندسًا معماريًّا على أي حال. لقد أُجبرت على العمل هناك فقط لأنني أستطيع الرسم.»

«هل أفهم أنك تعتبر نفسك عاجزًا بشكل دائم عن كسب رزقك؟»

«عجبًا! هذا قاسٍ. كلا، بالطبع لا. سأُضطر إلى العمل. ولكن ما نوع الوظيفة التي أنا مناسب لها؟»

«لا بدَّ أن عامين من الاختلاط بالطبقة الراقية قد علمتك شيئًا ما. حتى لو قيادة السيارات فقط.»

جاءهم صوت طرقات مترددة على الباب، ودخل السيرجنت.

«أنا آسف بالفعل لإزعاجك، أيها المفتش، لكني أرغب في الحصول على شيء من ملفات المدير. إنه أمر عاجل إلى حد ما.»

ومن ثم دخل بعد أن أُذِن له.

وقال، بينما يتفقد الملفات: «إن هذا الساحل يعجُّ بالأحداث في الموسم، يا سيدي.» وتابع: «بالتأكيد بسبب القادمين من أوروبا. ها هو الطاهي في مطعم مارين — إنه مطعم خارج المدينة مباشرةً؛ لذا فالقضية تخصنا — لقد طعن الطاهي هناك نادلًا لأنه كان يعاني من قشرة الرأس، على ما يبدو. أقصد النادل، يا سيدي. إن رئيس الطهاة في الطريق إلى السجن والنادل في طريقه إلى المستشفى. يعتقدون أن الطعنة قد مسَّت رئته. حسنًا، شكرًا لك، يا سيدي. آسف على إزعاجك.»

نظر جرانت إلى تيسدول، الذي يعدل من وضع عقدة ربطة عنقه في انهماك حزين. فلمح تيسدول النظرة، وبدا مرتبكًا منها، ثم لمعت في عقله فكرة، فسارع بتنفيذها.

«كنت أتساءل أيها السيرجنت، هل لديهم أحد ليحل محل النادل، ألديك معلومة عن الأمر؟»

«ليس لديهم أحد. ولذا فإن السيد توسيلي — وهو المدير — يكاد يمزق شعره من فرط الحنق.»

ومن ثم سأل جرانت: «هل انتهيت من التحقيق معي؟»

قال جرانت: «انتهيت بالنسبة إلى هذا اليوم.» وأضاف: «حظًّا طيبًا.»

الفصل الخامس

قال جرانت للمأمور باركر عبر الهاتف في وقت مبكر من المساء: «لا، لا يوجد اعتقال.» وتابع: «لكنني لا أعتقد أن هناك أيَّ شكٍّ في كونها جريمة قتل. إن الطبيب الشرعي متأكد من ذلك. قد يكون الزر الموجود في شعرها مجرد مصادفة — رغم أنك إذا رأيته ستقتنع بأنه ليس كذلك — ولكن أظافرها كُسرت لأنها غرزتها في شيء ما. وقد عرض ما كان تحت الأظافر على خبير تحليل، ولكن لم يكن هناك الكثير لتحليله بعد ساعة من الغمر في الماء المالح ... ماذا؟ ... حسنًا، تتجه المؤشرات إلى اتجاه واحد بالتأكيد، ولكن بعضها يُلغي بعضًا، بطريقة ما. إن القضية ستصبح صعبة، على ما أعتقد. سأترك ويليامز هنا من أجل التحريات الروتينية، وأعود إلى المدينة الليلة. أريد أن أقابل محاميها — إرسكين. لقد وصل في الوقت المحدد لاستجوابه ولكني وجدت تيسدول في متناول يدي، فاستجوبته ولم أستطع مقابلة إرسكين. هل يمكنك أن تحدد لي متى يمكنني التحدث إليه الليلة. لقد حدَّدوا موعد الجنازة يوم الإثنين. في جولدرز جرين. أجل، ستحرق الجثة. أود أن أكون حاضرًا هناك، على ما أعتقد. أودُّ أن أتفحص المقربين منها. أجل، قد أمرُّ عليك لتناول مشروب، لكن هذا يعتمد على مدى تأخري. شكرًا.»

أغلق جرانت الهاتف وذهب للانضمام إلى ويليامز لتناول وجبة خفيفة، وكان الوقت مبكرًا على وجبة العشاء لكن ويليامز رغِب في تناول اللحم المُقدَّد والبيض المزوَّد بقطع كبيرة من الخبز المقلي.

قال جرانت أثناء جلوسهما: «إن الغد هو يوم الأحد وقد يعوق هذا إجراء تحريات عن الزر.» ثم تابع: «حسنًا، ماذا قالت السيدة بيتس؟»

«قالت إنها لا تستطيع أن تحدد ما إذا كان قد خرج وهو يرتدي مِعطفًا أم لا. كل ما رأته هو قمة رأسه فوق سياجها بينما كان يمر. لكن ما إذا كان يرتديه أم لا هذا لا يهمُّ

كثيرًا، لأنها تقول إن المعطف يوضع عادة في الجزء الخلفي من السيارة مع ذلك المعطف الذي ترتديه الآنسة كلاي. إنها لا تتذكر متى رأت معطف تيسدول الداكن آخر مرة. كان يرتديه كثيرًا، على ما يبدو. في الصباح والمساء. وقالت إنه «حساس تجاه البرد». بسبب عودته من بلاد أجنبية، حسبما تظن. وليس لديها رأي محدد عنه.»

«هل تقصد أنها تظن أنه شخص سيئ؟»

«لا، ليس لديها تعليق عليه. أتعلم، يا سيدي، هل خطر ببالك أن من ارتكب الجريمة هو رجل بارع؟»

«لماذا؟»

«حسنًا، لولا هذا الزر الذي قُطع، لم يكن أحد ليشك في أي شيء. لقد عثر عليها غارقة بعد أن ذهبت للاستحمام في الصباح الباكر — كل هذا طبيعي تمامًا. وليس هناك آثار أقدام، ولا سلاح، ولا علامات عنف. متقن للغاية.»

«أجل. إنه متقن.»

«أنت لا تبدو متحمسًا جدًّا حيال ذلك.»

«إنه المعطف. إذا كنت ستغرق امرأة في البحر، فهل ترتدي معطفًا وأنت تفعل ذلك؟»

«لا أعرف. هذا متوقف على كيف أنوي إغراقها.»

«وكيف تغرقها؟»

«اذهب للسباحة معها وأبقِ رأسها تحت الماء.»

«سيصبح لديك خدوش بهذه الطريقة، بنسبة عشرة إلى واحد. وهذا دليل.»

«ليس أنا. كنت سأمسك بكعبها في المياه الضحلة وأقلبها. وأقف هناك فقط وأمسكها حتى تغرق.»

«ويليامز! يا له من أسلوب. ويا لها من ضراوة.»

«حسنًا، كيف ستفعل ذلك يا سيدي؟»

«لم أفكر في الأساليب المائية. قد لا أكون قادرًا على السباحة، أو قد لا أحب الغطس في الصباح الباكر، أو قد أرغب في الهروب سريعًا من نطاق الماء الذي يحتوي على جثة. لا، أعتقد أنني سأقف على صخرة في المياه العميقة، وانتظر حتى تأتي لتتحدث معي، وأمسك برأسها وأبقيه تحت الماء. الجزء الوحيد مني الذي يمكن أن تخدشه بهذه الطريقة هو يدي. لذا سأرتدي قفازات جلدية. لن يستغرق الأمر سوى بضع ثوانٍ قبل أن تفقد وعيها.»

«جيد للغاية، يا سيدي. لكن لا يمكنك استخدام هذه الطريقة في أي مكان في نطاق أميال من شاطئ جاب.»

«لمَ لا؟»

«لا توجد أي صخور.»

«كلا. أيها المحترم. ولكن هناك ما يعادلها. هناك أحجار مصدات الأمواج.»

«أجل، أجل، بالفعل هناك! هل تعتقد أن هذه هي طريقة ارتكاب الجريمة، يا سيدي؟»

«من يدري؟ إنها نظرية. لكن المعطف ما زال يقلقني.»

«لا أفهم سبب القلق، يا سيدي. لقد كان صباحًا ضبابيًّا، باردًا بعض الشيء في السادسة. وأي شخص قد يرتدي معطفًا في هذه الظروف.»

«أ ... أجل»، قال جرانت بشك، وترك الأمر يمر، فهذه واحدة من تلك الأشياء غير المنطقية التي تقلق عقله المنطقي (وكانت أكثر من مرة وسيلة لتحقيق النجاح لجهوده عندما فشل منطقه).

أعطى تعليماته إلى ويليامز بخصوص التحريات الأخرى التي سيجريها، عندما سيذهب هو نفسه إلى المدينة. وقال: «لقد أمضيت بضع دقائق أخرى مع تيسدول.» وتابع: «لقد حصل على وظيفة نادل في مطعم مارين. لا أعتقد أنه سيهرب، لكن من الأفضل أن تجعل رجلًا يراقبه. سيتولى سانجر هذه المهمة. هذا هو الطريق الذي سلكه تيسدول صباح الخميس، وَفقًا لما قاله بنفسه.» وسلم ورقة إلى السيرجنت. ثم قال: «تحرى الأمر. كان الوقت مبكرًا جدًّا ولكن قد يتذكره شخص ما. هل كان يرتدي معطفًا أم لا؟ هذا هو السؤال الرئيسي. أعتقد، أنا شخصيًّا، أنه ليس هناك شك في أخذه للسيارة كما قال. ولكن ليس من أجل السبب الذي ذكره.»

«اعتقدت أنا شخصيًّا أنه سبب سخيف، عندما قرأت أقواله. وقلت في نفسي: «حسنًا، كان عليه أن يختلق سببًا أفضل!» ما هي نظريتك، يا سيدي؟»

«أعتقد أنه عندما أغرقها كان تفكيره الوحيد هو الهروب. ومع سيارة يمكن أن يصبح في الجانب الآخر من إنجلترا، أو خارج البلاد، قبل أن يعثروا على جثتها! فقادها هاربًا. ثم جعله شيء ما يدرك كم كان أحمق. ربما اكتشف أنه فقد الزر الموجود في سوار المعطف. على أي حال، أدرك أنه لم يكن عليه سوى البقاء ويتصنع البراءة. لقد تخلص من المعطف الذي سيفضح أمره — حتى لو لم يكن قد فقَد الزر، لا بدَّ أن كم المعطف حتى الكوع قد تبلَّل بالماء المالح — وعاد ليضع السيارة في مكانها، فوجد أن الجثة قد اكتُشفت بفضل المد القادم، وتصنَّع الحزن على نحوٍ جيد للغاية على الشاطئ. لم يكن الأمر صعبًا. مجرد التفكير في كيفية أنه جعل من نفسه أحمق تقريبًا كان سيكفي لينفجر في البكاء.»

«هل تعتقد أنه ارتكب الجريمة إذن؟»

«لا أعرف. يبدو لي أنه لا يوجد لديه دافع ليفعل هذا. لقد كان مُفلسًا وكانت هي امرأة سخية. كانت هناك كل الأسباب التي تدفعه لإبقائها على قيد الحياة. لقد كان مهتمًّا بها كثيرًا، بالتأكيد. يقول إنه لم يكن مغرمًا بها، ولكن لدينا كلامه فقط في هذا الصدد. أعتقد أنه يقول الحقيقة عندما يقول إنه لم يوجد شيء بينهما. ربما يكون قد عانى من الإحباط، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فمن المرجَّح أكثر أن يضربها لا أن يقتلها. لكنها كانت جريمة قتل بدم بارد على نحو غريب، يا ويليامز.»

«إنها كذلك بالتأكيد، يا سيدي. لقد صدمتني وجعلتني أشعر بالغثيان.» ومن ثم وضع ويليامز شوكةً كبيرة تحمل قطعةً من أفضل لحم ضأن في ويلتشير بحب على لسانه الوردي.

ابتسم له جرانت تلك الابتسامة التي جعلت مرءوسي جرانت «يتفانون من أجل تنفيذ تعليماته.» لقد عمِل هو وويليامز معًا كثيرًا، ودائمًا في صداقة وتقدير متبادل. ربما، إلى حد كبير، لأن ويليامز، باركه الله، لم يطمع في منصب أو مهام غيره. لقد فضل أن يصبح الزوج الراضي لزوجة جميلة ومخلصة على كونه السيرجنت المحقق الطموح.

«كم كنت أتمنى ألَّا تفوتني مقابلة محاميها بعد التحقيق. هناك الكثير الذي أريد أن أسأله عنه، ومن يدري أين سيوجد خلال عطلة نهاية الأسبوع. لقد طلبت ملفها من سكوتلاند يارد، لكن محاميها سيكون أكثر فائدة. يجب معرفة من الذي سيستفيد من موتها. لقد كان موتها من سوء حظ تيسدول، لكن لا بدَّ أنه من حسن حظ الكثير من الناس. لكونها أمريكية، أفترض أن وصيتها موجودة في الولايات المتحدة في مكان ما. ستعرف سكوتلاند يارد بحلول الوقت الذي أستيقظ فيه.»

قال ويليامز بصوت تملؤه الدهشة: «كريستين كلاي ليست أمريكية، يا سيدي!»

«ليست أمريكية؟ فما هي جنسيتها إذن؟»

«لقد ولدت في نوتينجهام.»

«لكن الجميع يشير إليها على أنها أمريكية.»

«ما باليد حيلة. لكنها ولدت في نوتينجهام وذهبت إلى المدرسة هناك. يقولون إنها عملت في مصنع للدانتيل، لكن لا أحد يعرف ما إذا كان ذلك حقيقيًّا.»

«لقد نسيت أنك من المعجبين بالأفلام، يا ويليامز. أخبرني بالمزيد.»

«حسنًا، بالطبع، إن ما أعرفه مصدره فقط قراءة مجلات مثل «سكرينلاند» و«فوتوبلاي» وغيرها. الكثير مما يكتبونه كلام فارغ، لكن من ناحية أخرى، لن يتجاهلوا

الحقيقة ما دامت تصنع قصة جيدة. وهي لم تكن مولعةً بإجراء المقابلات. وكانت تروي قصة مختلفة في كل مرة. وعندما أشار أحدهم إلى أن هذا لم يكن ما قالته في المرة السابقة، قالت: «لكن هذا ممل جدًّا! لقد فكرت في خبر أفضل بكثير.» لم يعرف أحد من قبل مدى صحة ما تقول. هذا ما يطلقون عليه المزاجية، بالطبع.»

سأل جرانت، وهو حساس دائمًا تجاه أي تلاعب بالألفاظ: «ألا تسميها أنت كذلك؟»

«حسنًا، لا أعرف. بدا لي ذلك دائمًا أقرب إلى ... حسنًا، الحماية، إذا كنت تعرف ما أعنيه. فلن يستطيع الناس النيل منك إلا إذا عرفوا حقيقتك ... وعرفوا ما يهمك. أمَّا إذا تركتهم يخمنون، فهم الضحايا، وليس أنت.»

«إن الفتاة التي شقَّت طريقها من مصنع للدانتيل في نوتينجهام إلى قمة عالم السينما لا يمكن أن تكون ضعيفة للغاية.»

«لأنها كانت من مصنع للدانتيل، فهي مثل ما تقول ضعيفة. كل ستة أشهر كانت تدخل في طبقة اجتماعية مختلفة، كانت ترتقي بمثل هذا المعدل. وهذا يتطلب الكثير من المواءمة ... مثل غواص صاعد من مسافة عميقة. أنت تعدل نفسك باستمرار مع الضغط. لا، أعتقد أنها احتاجت إلى صدَفة لتحمي نفسها بداخلها، وكانت الصدفة التي اختارتها هي إبقاء الناس في حَيرة من أمرها.»

«إذن كنت من المعجبين بكلاي، يا ويليامز.»

قال ويليامز بصراحة: «بالتأكيد كنت كذلك.» وازداد تورد خديه الورديين. ووضع مربى البرتقال بغضب على قطعة من الخبز المحمص. ثم قال: «وقبل أن تنتهيَ هذه القضية سأضع الأغلال في يد الرجل الذي ارتكب الجريمة. إنها فكرة مريحة.»

«هل لديك شخصيًّا أي نظريات؟»

«حسنًا، يا سيدي، إذا كنت لا تمانع في قولي لهذا، فلقد تجاوزتَ الشخص ذا الدافع الواضح.»

«من؟»

«جيسون هارمر. ما الذي كان يفعله وهو يتطفل في الساعة الثامنة والنصف من الصباح؟»

«لقد جاء من مدينة ساندويتش. حيث أمضى الليلة في الحانة هناك.»

«هكذا قال. هل تأكدت شرطة المقاطعة من ذلك؟»

راجع جرانت دفتر ملاحظاته.

«ربما لم يفعلوا ذلك. لقد أدلى بأقواله قبل أن يعثروا على الزر، ولذا لم يساوِرهم الشك. ومنذ ذلك الحين ركز الجميع على تيسدول.»

«هناك الكثير من الدوافع لدى هارمر. حيث هجرته كلاي، ثم عثر عليها بعد بحثٍ مُضنٍ في كوخٍ ريفي، بمفردها مع رجل.»

«أجل، هذا منطقي للغاية. حسنًا، يمكنك إضافة هارمر إلى قائمة مهامك. تفحص خزانة ملابسه. هناك رسالة استغاثة من أجل معطف مهمل. آمُل أن تجلب شيئًا. إن المعطف دليل أسهل بكثير من زر. بالمناسبة، يقول تيسدول إنه باع حقيبة ملابسه كاملة (باستثناء ملابس السهرة الخاصة به) لرجل يُدعى توجر، لكنه لا يعرف مكان متجره. هل هذا هو ذلك الرجل الذي كان متجره في كرافن رود؟»

«أجل، يا سيدي.»

«أين هو الآن؟»

«ويستبورن جروف. الطرف البعيد.»

«شكرًا. أنا لا أشكُّ في أقوال تيسدول. ولكن هناك احتمال فقط لوجود نسخة مكررة من هذا الزر في مِعطفٍ آخر. وهذا قد يقودنا إلى شيء ما.» ثم وقف على قدميه. وقال: «حسنًا، فلنبدأ مهمتنا الصعبة! وبالحديث عما أحدثته هذه القضية من ضجة، إليك عينة منها لتستمتع أكثر بمشروبك الثالث.» أخرج من جيبه نسخة الظهيرة من صحيفة «سنتينل»، التي تمثل صحيفة «كلاريون» المسائية، ووضعها بجوار طبق ويليامز بحيث يظهر عنوانها الرئيسي «هل كانت وفاة كلاي حادثًا؟»

قال ويليامز بعصبية: «جامي هوبكينز!»، وألقى السكر بعنف في الشاي غير المُحلى.

الفصل السادس

تعيش مارتا هالارد، كما يليق بسيدة رائدة تتنقل بين سانت جيمس وهايماركت، في شقة داخل نوع من المباني السكنية التي بها بساط سميك مفروش على السُّلَّم وتتميز ممراتها بالصمت المُطبِق. وقد أعجب جرانت، الذي صعِد السلالم بأقدام متعبة، بهذا البساط رغم أنه تساءل بينه وبين نفسه عن صعوبة تنظيفه بالمكنسة الكهربائية. كان المربع الأنيق المعتم للمصعد قد ارتفع لأعلى عندما دخل من الباب الدوار، وبدلًا من انتظار عودته، قرر صعود السلم. لقد قال حارس العقار إن مارتا موجودة في المنزل؛ حيث وصلت في نحو الساعة الحادية عشرة من المسرح مع عدة أشخاص. شعَر جرانت بالضيق لوجود أحد معها، لكنه صمَّم على أن هذا اليوم لن ينتهي دون الحصول على بعض المعلومات عن كريستين كلاي والأشخاص المقربين منها. وقد أخفق باركر في العثور على المحامي إرسكين؛ حيث قال سكرتيره إنه يعاني من صدمة من جراء ما حدث في الأيام الثلاثة الماضية وذهب إلى الريف حتى يوم الأحد؛ وعنوانه هناك غير معروف. (قال باركر: «هل سمعت من قبل عن محامٍ يعاني من صدمة؟»). لذا فإن الأمر الذي يهم جرانت للغاية — وهو فحوى وصية كريستين كلاي — يجب أن يؤجل حتى يوم الإثنين. وقد تصفح في سكوتلاند يارد ملف القضية — لا يزال، بالطبع، غير مكتمل — الذي جمعوه خلال الاثنتي عشرة ساعة الماضية. ووجد جرانت داخل الأوراق الخمس التي يضمها الملف أمرين فقط جديرَين بالملاحظة.

اتضح أن، اسمها الحقيقي، هو كريستينا جوتوبيد.

ولم يكن لديها عشيق.

أو بالأحرى، لم يكن لديها عشيق مُعلَن عنه. حتى في تلك السنوات الحاسمة عندما تحولت تلك الراقصة الصغيرة في برودواي إلى نجمة الغناء والرقص، يبدو أنها لم يكن

لديها راعٍ رسمي. وحتى عندما سئمت أفلام الغناء والرقص، وامتد طموحها إلى الدراما؛ يبدو أن صاروخها قد انطلق نحو النجوم بمجهودها الشخصي. ربما هذا يعني فقط واحدًا من شيئين: أنها ظلت عذراء حتى زواجها في سن السادسة والعشرين (وهي حالة وجدها جرانت، الذي لديه تجربة حياة أكبر من كتب علم النفس، ممكنة تمامًا) أو أنها كانت ترتبط في علاقة فقط عندما يقع قلبها في الحب (أو في نزوة، حسب ما إذا كنت عاطفيًّا أو متشائمًا تهكميًّا). قبل أربع سنوات، التقى بها اللورد إدوارد تشينس، الابن الخامس للعجوز بود، في هوليوود، وفي غضون شهر تزوجا. كانت في ذلك الوقت تصور أول فيلم درامي لها، وكان من المتفق عليه عمومًا أنها «أحسنت لنفسها» في زواجها. وبعد ذلك بعامين، أصبح يطلق على اللورد إدوارد «زوج كريستين كلاي».

وقد تقبل الأمر بصدر رحب، كما قيل؛ واستمر الزواج. ومن ثم أصبحت علاقة سلسة ولطيفة من الود المتبادل؛ يرجع ذلك جزئيًّا إلى متطلبات الوقت والمكان التي فرضتها المهنة على كريستين، وجزئيًّا إلى حقيقة أن اهتمام إدوارد تشينس الرئيسي في الحياة (بعد كريستين) كان التعرف على الشئون الداخلية المزعجة للبلدان الخاضعة لحكم فاسد أو التي يتعذر الوصول إليها ثم تأليف الكتب عنها. وأثناء التباعد لتأليف الكتب، كان يعيش هو وكريستين بشكل أو بآخر تحت سقف واحد، وكانا على ما يبدو في غاية السعادة. وحقيقة أن إدوارد، على الرغم من أن ترتيبه وسط إخوته هو الخامس، لديه ثروة كبيرة خاصة به، ورثها من شقيق والدته (بريمر، ملك الجلود)، هي حقيقة قد فعلت الكثير لإنقاذ الزواج من مخاطره الأكثر وضوحًا. والفخر المبتهج لإدوارد بزوجته فعل البقية.

الآن، أين في تلك الحياة، كما هو موضح في الملف، يمكن أن نجد دافعًا لارتكاب جريمة قتل؟ سأل جرانت نفسه، وهو يصعد السلم المفروش في إرهاق. هل ارتكب هارمر الجريمة؟ لقد كان رفيقها الدائم طَوال الأشهر الثلاثة التي أمضتها في إنجلترا. صحيح أنه كان بينهما عمل مشترك (فما زال المنتجون يحبون إدخال أغنية في مكان ما في حبكة أفلام كريستين؛ حيث يشعر الجمهور بأنه خدع إذا لم يسمعها تغني)، لكن الجمهور الذي يستمتع بأفلامها لا يشك في علاقتهما، بصرف النظر عما يظنه زملاؤهما. أم أن تيسدول هو الفاعل؟ إنه فتًى غير متوازن، التقط في لحظة اضطراب أو كرم، في وقت كان هو فيه متهورًا وليس لديه مكان يتجه إليه.

حسنًا، هو نفسه سيكتشف المزيد عن تيسدول. وفي الوقت نفسه، سيتعرف على المزيد عن أمثال هارمر في حياتها.

عندما وصل إلى الطابق المطلوب، سمع الصوت الخافت للمصعد وهو يغلق، واستدار عبر الزاوية ليجد جامي هوبكينز يرفع إبهامه من على زر الجرس.

قال جامي: «حسنًا، حسنًا، إنها حفلة!»

«آمل أنك قد حصلت على دعوة.»

قال جامي: «آمل أنك قد حصلت على أمر قضائي. إن الناس يصرخون من أجل استدعاء محاميهم هذه الأيام عند رؤية رجل شرطة أمام بابهم. انظر، أيها المفتش»، تابع على عجل بصوت مختلف، «دعنا لا يفسد بعضنا لعبة بعض. لقد فكَّر كلانا في مقابلة مارتا. دعنا نجمع النتائج. لا داعي للتزاحم.»

واستنتج جرانت من ذلك أن هوبكينز كان يشك في أن مارتا ستوافق على استقباله. وتبع جرانت داخل الصالة الصغيرة دون إعطاء اسمه للخادمة، ولكن جرانت، رغم أنه يقدر البراعة، رفض أن يصبح عباءة تتخفى وراءها الصحافة.

ومن ثم قال للخادمة التي التفت كي تذهب لإبلاغ سيدتها بقدومهما: «هذا الرجل، على ما أعتقد، من صحيفة «كلاريون».»

فقالت وهي تستدير وتتطلع إلى هوبكينز باستنكار: «أوه!» وتابعت: «إن الآنسة هالارد دائمًا ما تكون متعبة للغاية في الليل، ولديها بعض الأصدقاء معها في الوقت الحالي ...»

لكن الحظ أنقذ هوبكينز من أي ضرورة للإلحاح. حيث فتحت الأبواب المزدوجة المؤدية لغرفة المعيشة، ومن داخل غرفة المعيشة جاء الترحيب بنبرة حماسية عالية.

«سيد هوبكينز! يا لها من زيارة مبهجة! الآن يمكنك أن تخبرنا ما الذي كانت تتحدث عنه كل إصدارات منتصف النهار هذه. لم أكن أعرف أنك تعرفين السيد هوبكينز، يا عزيزتي مارتا!»

غمغم جامي لجرانت وهو يتقدَّم لتحية المتحدثة: «من كان يظن أنني سأصبح سعيدًا لسماع هذا الصوت!»، والتفت جرانت للقاء مارتا هالارد، التي جاءت من الغرفة إلى الصالة.

قالت وهي تبتسم له: «ألان جرانت!» وتابعت: «هل هذه مهمة عمل أم زيارة خاصة؟»

«كلاهما. اصنعي لي معروفًا. ولا تخبري هؤلاء الأشخاص من أنا. تحدثي فقط كما كنتِ تتحدثين قبل مجيئي. وإذا تمكنت من التخلص منهم قريبًا، فأنا أود التحدث معك بمفردك قليلًا.»

«يمكن أن أفعل أكثر من ذلك بكثير من أجلك. ففي كل مرة أضع هذا حول رقبتي»، وأشارت إلى عقد من اللؤلؤ، ثم استأنفت: «أتذكرك.»

لم يكن هذا لأن جرانت قد أعطاها عقد اللؤلؤ، ولكن لأنه استعاده ذات مرة من أجلها.

«تعالَ وقابل الآخرين. من هو صديقك؟»

«ليس صديقًا. إنه هوبكينز الصحفي من صحيفة «كلاريون».»

«أوه. الآن أفهم سبب ترحيب ليديا به. يقولون إن الأشخاص المحترفين مولعون بالدعاية!» ودعت جرانت إلى الغرفة وقدمت ضيوفها له. الأول هو كليمنت كليمنتس، مصور المجتمع، وهو متأنق في بدلة أرجوانية ذات جاكت «طويل» وقميص ناعم بلون الزبدة الباهتة. لم يسمع من قبل عن ألان جرانت، وأوضح الأمر تمامًا. والثاني هو الكابتن شخص ما، وهو من أتباع مارتا المتواضعين وغير المميزين، تشبث بكأس الويسكي والصودا باعتباره الشيء المألوف الوحيد في منطقة مجهولة. والثالثة هي جودي سلرز، وهي فتاة شقراء متجهمة تلعب أدوار الشقراء «البلهاء» من نهاية العام إلى نهاية العام، وحياتها معركة طويلة بين نهمها ووزنها. والرابعة هي الصديقة المقربة للنجوم، الآنسة ليديا كيتس، التي تتحدث الآن بشغف مع جامي هوبكينز وتستمتع بوقتها إلى أقصى درجة.

قال جامي، بخبث، بينما يُقدَّم جرانت للضيوف: «السيد جرانت؟»

سألت ليديا، وقد انتصبت أذناها، وأطل الفضول من عينيها: «أليس هذا هو «السيد»؟»

«لا، ليس كذلك!»

لكن هوبكينز واجه عينَي جرانت وافتقر إلى شجاعة تحقيق رغبته. سيصبح من الحماقة أن يكتسب عداوة مفتش مباحث جنائية.

«لديه أحد تلك الألقاب اليونانية، كما تعلمين، لكنه يخجل من امتلاكها. حصل عليه لإنقاذ قميص يوناني من الأسرة المالكة من مغسلة يونانية.»

«لا تعره أي اهتمام، يا سيد جرانت. فهو يحب أن يسمع نفسه يتحدث. أنا أعرف ذلك، كما ترى. لقد أجرى مقابلات معي كثيرًا. لكنه لم يستمع أبدًا إلى كلمة أقولها. ليس ذلك خطأه بالطبع. فرجال برج الحمل غالبًا ثرثارون. عرفت في المرة الأولى التي تجاوز فيها عتبة بابي أنه وُلد في أبريل. أما أنت، يا سيد جرانت، فمن مواليد برج الأسد. هل أنا على صواب؟ لا، لست بحاجة إلى إخباري. أنا أعرف. حتى لو لم أستطع الشعور بهذا ... هنا ...» ونقرت بإبهامها على صدرها النحيل، وتابعت: «لديك كل العلامات المميزة له.»

سأل جرانت: «آمل أنها ليست مميتة للغاية؟» متسائلًا عن كيفية الابتعاد عن هذه المرأة المزعجة.

«مميتة! عجبًا يا عزيزي السيد جرانت! ألا تعرف شيئًا عن علم التنجيم؟ أن تولد في برج الأسد هو أن تصبح ملكًا. إن أبناء برج الأسد هم المفضلون للنجوم. ولدوا للنجاح، ومقدر لهم سلفًا الوصول للمجد. إنهم عظماء العالم.»

«ومتى يجب أن يولد المرء حتى يصبح من مواليد برج الأسد؟»

«بين منتصف يوليو ومنتصف أغسطس. أظن أنك ولدت في الأسابيع الأولى من أغسطس.»

تمنى جرانت ألا يبدو متفاجئًا كما شعر. لقد وُلد بالتأكيد في الرابع من أغسطس.

قطعت مارتا حديثهما، وهي تقدِّم لجرانت شرابًا: «إن ليديا متبصرة.» وتابعت: «لقد قرأت الطالع لكريستين كلاي المسكينة منذ نحو عام وتنبأت بموتها.»

قالت الفتاة جودي ببطء، وهي تتناول الشطائر: «أليست هذه مجرد مصادفة!»

تشنج وجه ليديا النحيف من الغضب، وسارعت مارتا لتهدئة حدة النقاش. فقالت: «أنت تعلمين أن هذا ليس عدلًا، يا جودي! هذه ليست المرة الأولى التي تَصدُق فيها ليديا. لقد حذرت توني بيكين من وقوع حادث قبل تصادم سيارته. لو أنه استمع إليها وحرَص على أخذ المزيد من الحذر، لما بُترت قدماه. وقد أخبرتني عن عدم قَبول عرض كلاينس، وهي ...»

«لا تُكلِّفي نفسك مشقة الدفاع عني، يا عزيزتي مارتا. إن الفضل لا يعود إليَّ، على أي حال. أنا أقرأ فقط ما هو موجود. إن النجوم لا تكذب. لكن لا يتوقع المرء أن يمتلك شخص من برج الحوت الرؤيةَ أو الإيمان!»

غمغم جامي، ودق على حافة كأسه بظفر إصبعه حتى يصدر صوت «رنة» خفيفة: «استراحة لثوانٍ خارج الحلبة.»

لكن لم يكن هناك قتال. حيث قدَّم كليمنتس مصدر إلهاء.

فقال ببطء: «إن ما أريد معرفته ليس ما وجدته ليديا في النجوم ولكن ما وجدته الشرطة في ويستوفر.»

قالت جودي، وهي تقضم قطعةً كبيرة من الشطيرة: «ما أريد معرفته هو من الذي قتلها؟»

قالت مارتا في احتجاج: «جودي!»

فرَدَّت جودي: «أوه، كلام فارغ! أنت تعلمين أننا جميعًا نفكر في الشيء نفسه. ونتدارس الاحتمالات. شخصيًّا أنا أجزم بأنه جيسون. هل هناك من يعتقد أنه جيسون؟»

سأل كليمنتس: «لماذا جيسون؟»

«إنه من النوع الغامض، يمتلئ بالعاطفة والحمية.»

قالت مارتا محتجة: «غامض! جيسون!» وتابعت: «يا له من هراء! إنه شخص واضح. ولا يضمر شرًّا.» نظر إليها جرانت. إذن كانت متمسكة بجيسون؟ ما مدى إعجابها به؟ «إن جيسون واضح للغاية وغير غامض على الإطلاق.»

قال كليمنتس: «على أي حال، الرجال الذين يظهرون غضبهم علانيةً لا يرتكبون جرائم قتل. إن من يتعاملون ببرود مع الأمور هم من يكون لديهم استعداد لإراقة الدماء. وتتملَّكهم الرغبة في الانتقام في الحياة لِما تحمَّلوه من معاناة.»

قال جرانت: «كنت أظن أنَّ من يحبون تعذيب أنفسهم نادرًا ما يحبون تعذيب غيرهم.»

قالت مارتا في إصرار: «أيًّا كان الأمر، يمكنك استبعاد جيسون من المشتبهين بارتكاب الجريمة.» وأضافت: «ليس بإمكانه أن يؤذيَ ذبابة.»

قالت جودي: «أوه، أليس بإمكانه حقًّا»، فتوقفوا جميعًا للنظر إليها.

سأل كليمنتس: «ما الذي يعنيه ذلك بالضبط؟»

«لا تهتم. أراهن أن جيسون هو من فعلها.»

«وما هو الدافع؟»

«أظن أنها كانت تُفلت من يده.»

قاطعت مارتا بحدَّة. وقالت: «أنت تعلمين أن هذا هُراء يا جودي. أنت تعلمين جيدًا أنه لم يكن هناك شيء بينهما.»

«أنا لا أعرف شيئًا من هذا القبيل. لم يكن يغيب عن أنظارها أبدًا.»

غمغم جامي في أذن جرانت: «إن العاهرة تظن أن كل العالم مثلها.»

وهنا جاء دور ليديا لاقتحام هذا الشجار المحتدم: «أظن أن السيد هوبكينز يعرف الكثير عن الأمر أكثر مما نعرفه. لقد كان في ويستوفر اليوم من أجل صحيفته.»

أصبح جامي على الفور محطَّ انتباه الجميع. ماذا يعتقد؟ ما هي الأدلة التي حصلت عليها الشرطة؟ من هو الجاني في اعتقادهم؟ هل كانت كل هذه التلميحات في الصحف المسائية حول عيشها مع شخص ما صحيحة؟

ومن ثم استمتع جامي بوقته. حيث قدَّم اقتراحات عن القتلة، وألقى الضوء على جريمة القتل، وألقى خطابًا مفوهًا حول الطبيعة البشرية، وبدا وقحًا وهو ينتقد الشرطة وأساليبها، كل ذلك وهو ينظر نظرة راضية إلى جرانت المستسلم.

واختتم حديثه قائلًا: «سوف يُلقون القبض على الفتى الذي كانت تعيش معه.» وأضاف: «خذوها مني. إن اسمه تيسدول. وهو فتًى حسن المظهر. سيحدث ضجَّة كبيرة في قفص الاتهام.»

قالوا، في حيرة: «تيسدول؟» وأضافوا: «لم نسمع به من قبل.»

جميعهم ما عدا جودي سلرز.

حيث فغرت فمها بذهول، وظلت على هذا الحال بلا حَراك للحظة، ثم أغلقته بإحكام؛ وتبلَّدت تعبيرات وجهها. شاهد جرانت ما طرأ على وجهها باهتمام متفاجئ.

قالت مارتا بازدراء: «أظن أن الأمر سخيف تمامًا.» وتابعت: «هل يمكنكم أن تتخيلوا أن تتورط كريستين كلاي في علاقةٍ سرية مثل هذه! هذا ليس من طبعها على الإطلاق. إن حدث هذا — إن حدث — إن حدث هذا سأصدق أن بإمكان إدوارد ارتكاب جريمة قتل!»

انطلقت بعض الضحكات على ذلك.

سألت جودي سلرز: «ولمَ لا؟» وتابعت: «عاد إلى إنجلترا ليجد زوجته المحبوبة غير مخلصة له، فتغلبت عليها العاطفة.»

«في السادسة صباحًا على شاطئ بارد. ألا يمكنك رؤية إدوارد!»

قال هوبكينز: «تشينس لم يصل إلى إنجلترا حتى يوم الخميس؛ لذا فهو غير مشتبه به.»

قالت مارتا: «أعتقد أن هذه هي المحادثة الأكثر قسوةً واستهجانًا.» وأضافت: «دعونا نتحدث عن شيءٍ آخر.»

قالت جودي: «أجل، فلنفعل ذلك.» وتابعت: «إنه موضوع غير مُجدٍ. خاصةً نظرًا لأنك أنت نفسك، بالطبع، قد قتلتِها.»

قالت مارتا: «أنا!» ووقفت بلا حَراك وسط هالة من الصمت الحائر. ثم قطع الصمت فجأة.

قال كليمنت: «بالتأكيد!» وتابع: «لقد أردت الدور الذي كان من المقرر أن تلعبه في الفيلم الجديد! لقد نسينا ذلك!»

«حسنًا، إذا كنا نبحث عن دوافع، يا عزيزي كليمنت، فأنت كنت تستعر غضبًا لأنها رفضَت أن تُصوِّرَها. وإذا كنت أتذكر جيدًا، فقد قالت إن أعمالك تشبه المرق المسكوب.»

قالت جودي: «لم يكن كليمنت ليغرقها. كان يمكن أن يسممها.» وتابعت: «حيث يضع السم في علبة من الشوكولاتة، على غرار ما فُعِل ببورجا. لا، فكر في الأمر، إن ليجون هو من فعلها، في حال كان مضطرًّا لأن يمثل معها. إنه من النوع الذي يتميز بالقوة

والعنف. كان والده جزارًا، وربما ورث منه القسوة! أو ماذا عن كوين؟ كان سيقتلها على مجموعة «قضبان الحديد»، لو لم يكن أحد ينظر.» يبدو أنها قد نسيَت أمر جيسون.

قالت مارتا بنبرة غاضبة: «أيمكنكم جميعًا التكرم بإيقاف هذه الثرثرة السخيفة!». وأضافت: «أعلم أنه بعد ثلاثة أيام تتلاشى الصدمة. لكن كريستين كانت صديقة لنا، ومن المثير للاشمئزاز أن نصنع لُعبة من موت شخص أحببناه جميعًا.»

قالت جودي بوقاحة: «هراء!». كانت قد تناولت كأسها الخامسة. ثم أضافت: «لم يكن أحد منا يهتم لأمرها البتة. بل إن معظمنا ابتهج للغاية لأنها ابتعدت عن الطريق.»

الفصل السابع

في برودة الصباح الساطع ليوم الإثنين قاد جرانت سيارته في شارع ويجمور. كان الوقت لا يزال مبكرًا والشارع هادئًا؛ حيث لا يقيم مرتادو شارع ويجمور في المدينة خلال عطلات نهاية الأسبوع. وقد انشغل أصحاب محلات الزهور في تنسيق باقات ورود يوم السبت بأسلوب العصر الفيكتوري حيث يمكن شد بتلاتها الشاردة برفق. وأبعدت متاجر التحف تلك الستارة المثيرة للفضول إلى الجانب الآخر من واجهة العرض بعيدًا عن أشعة شمس الصباح شديدة التطفل. وقدمت المقاهي الصغيرة كعكاتها غير الطازجة مع قهوة الصباح بينما ينتابها الجزع وتضايقها العجرفة من المتغطرسين الذين يطلبون كعكات طازجة. وسحبت متاجر الملابس عروض يوم السبت مخفضة الأسعار من واجهة العرض وأعادت الأسعار الأصلية.

وقد شعر جرانت، الذي كان في طريقه لمقابلة خياط تيسدول، بالسخط بعض الشيء من فساد الأمور. لو أن مِعطف تيسدول قد صنعه خياط في لندن، لكان من السهل أن يتعرف على الزر ويؤكد أنه من نفس نوع الأزرار الذي يستخدمه في صنع المعاطف، وفي معطف تيسدول على وجه الخصوص. هذا لن يحسم الأمر ولكنه سيجعل الحسم أقرب بشكل ملحوظ. لكن معطف تيسدول صنع، من بين جميع الأماكن، في لوس أنجلوس. وقال تيسدول لتوضيح الأمر: «إن المعطف الذي أمتلكه كان ثقيلًا جدًّا بالنسبة إلى ذلك المناخ، ومن ثم حصلت على مِعطف جديد.»

أمر منطقي، لكنه مضنٍ. لو أن ذلك المعطف قد صُنع مِن قِبل شركة في لندن، يمكن للمرء أن يذهب إلى متجرها في أي وقت خلال الخمسين عامًا القادمة وسيخبرونه بكل بساطة وبأدب جم (بشرط أن يعرفوا من أنت) أي نوع من الأزرار كان يُستخدم. ولكن من يدري ما إذا كانت شركة في لوس أنجلوس ستعرف الأزرار التي وضعتها على المعطف منذ

ستة أشهر! إلى جانب ذلك، فالزر المعني مطلوب هنا. ولا يمكن بالقطع إرساله إلى لوس أنجلوس. وأفضل ما يمكن فعله هو أن يطلب منهم تقديم عينة من الأزرار المستخدمة. إذا تذكروا!

كان أمل جرانت الرئيسي هو أن يظهر المعطف نفسه. سيصبح المعطف الذي جرى التخلص منه والذي يمكن تحديده على أنه يخص تيسدول، مع وجود زر مفقود، هو الحل الأمثل. كان تيسدول يرتدي المعطف عندما ابتعد بالسيارة. هذه هي مساهمة السيرجنت ويليامز في مسألة العدالة والتشجيع الواجب. حيث وجد مزارعًا رأى السيارة عند مفترق طرق ويدمارش بعد الساعة السادسة بقليل من صباح الخميس. نحو السادسة وعشرين دقيقة، حسب تقديره، لكنه لم يكن لديه ساعة. ولا يحتاج واحدة. فهو يعلم الوقت في أي وقت من اليوم، سواء أكانت الشمس ساطعة أم لا. كان يقتاد الأغنام، فتباطأت السيارة بسببها. وهو على يقين من أن الرجل الذي يقود السيارة كان شابًّا ويرتدي مِعطفًا داكنًا. وهو يعتقد أنه لن يتمكن من التعرف على الرجل، ليس بعد أن أقسم على أن يقول الحقيقة، لن يستطيع ... لكنه تعرَّف على السيارة. كانت السيارة الوحيدة التي رآها ذلك الصباح.

لم تكن مساهمة ويليامز الأخرى مبهجةً أيضًا. حيث ذكر في تقريره أن جيسون هارمر لم ينزل في الفندق الذي ذكر أنه يقيم فيه في ساندويتش. بل إنه لم يُقِم في ساندويتش على الإطلاق.

ترك جرانت وجبة يوم الأحد المكونة من الكلاوي واللحم المُقدَّد دون أن يمسَّها وخرج دون ضجة لمقابلة السيد هارمر. حيث وجده في شقته شديدة الأناقة في مبنى ديفونشير هاوس، يرتدي مبذلًا أرجوانيًّا من الحرير، ولحيته كثيفة سوداء، ومعه نوتة موسيقية.

قال وهو يدفع بقطع من الورق المكرمش عن الكرسي لإفساح المكان لجرانت: «أنا لا أستيقظ عادةً في هذه الساعة.» وتابع: «لكنني مستاء نوعًا ما بشأن كريس. لقد كنا صديقين مقربين للغاية، أيها المفتش. ظن بعض الناس أنها امرأة يَصعُب التعامل معها، أمَّا أنا، فلا. لماذا؟ هل تعرف لماذا؟ لأننا أنا وهي شعَرنا بأننا عديما القيمة وكنا خائفَين من اكتشاف الناس لهذا الأمر. إن البشر متنمرون مروعون، كما تعلم. فإذا بدوت ثريًّا، فسيلعقون حذاءك. لكن لو تركتهم يظنون أنك لا تعتد بنفسك فسينهشونك مثلما ينهش النمل دبورًا يُحتضَر. لقد علمت أن كريس تخادع منذ أول مرة رأيتها. أنا أعلم كل شيء عن الخداع. لقد خادعت كي أصل إلى الولايات المتحدة وخادعت الناشرين لطباعة أغنيتي الأولى. لم يكتشفوا ذلك إلا بعد النجاح المبهر للأغنية، ثم اعتقدوا أنه قد يكون من الجيد نسيان أني خدعتهم. هل تود تناول مشروب؟ نعم، إن الوقت مبكر بعض الشيء. أنا لا أشرب

عادةً قبل وقت الغداء، لكن الشرب هو ثاني أفضل شيء بعد النوم. وعندي أغنيتان تعاقدت عليهما يجب الانتهاء منهما. من أجل ... من أجل ...» وتلاشى صوتُه، ثم تابع باندفاع «من أجل فيلم كوين الجديد.» وأضاف: «هل حاولت يومًا كتابة أغنية بدون فكرة في رأسك؟ كلا، كلا، أظن أنك لم تفعل ذلك. حسنًا، إنه محض تعذيب واضح. ومن التي ستغنيهما على أي حال؟ تلك السيدة هالارد لا تستطيع الغناء. هل سمعت كريس تغني: «غنِّ لي أحيانًا»؟»

لقد سمعها جرانت بالفعل.

«الآن هذا ما أسميه الإبداع في غناء أغنية. لقد كتبتُ أغاني أفضل، أعترفُ بذلك. لكنها جعلتها تبدو وكأنها أفضل أغنية كُتبت على الإطلاق. ما فائدة كتابة الأغاني على أي حال، كي تؤديها تلك المرأة المتغطرسة هالارد على نحو سيئ؟»

كان يتحرك في الغرفة، ويلتقط كومةً من الأوراق من هنا ليضعها في مكان غير مناسب بنفس القدر هناك. راقبه جرانت باهتمام. كانت مارتا تظن أنه «شخص واضح» وجودي تظنه «غامضًا». لكنه لم يَبدُ أيًّا منهما في نظر جرانت. إنه مجرد واحد من تلك النماذج البشرية العادية إلى حد ما من بعض المناطق الفقيرة في أوروبا الذي يظن أنه يتعرض للاستغلال والاضطهاد باستمرار من قبل بني البشر، وهو شخص يُشفق على نفسه، ذو تعليم رديء، وعاطفي، وشرس. وهو ليس حسن المظهر، لكنه جذاب للنساء، بلا شك. تذكر جرانت أن نوعين مختلفين للغاية من النساء مثل مارتا هالارد وجودي سلرز تجدانه مميزًا؛ كل منهما وفقًا لوجهة نظرها. من الواضح أن لديه القدرة على الجمع بين العديد من صفات الرجال. لقد كان ودودًا مع مارتا المكروهة، وهذا أمر مؤكد؛ لم تدافع مارتا بشدة عن المعجبين غير المبالين بها. لقد أمضى حياته، بعبارة أخرى، «يخادع.» لقد اعترف بذلك عن نفسه منذ لحظة. فهل هو يخادع الآن؟ يخادع جرانت؟

«أنا آسف لإزعاجك في وقت مبكر كهذا، لكنها زيارة عمل. أنت تعلم أننا نحقق في وفاة الآنسة كلاي. وأثناء التحقيق، من الضروري التحقق من تحركات كل من يعرفها، بغض النظر عن الأشخاص أو الاحتمالات. والآن، لقد أخبرت السيرجنت في شرطة المقاطعة، عندما تحدثت إليه يوم الخميس، أنك قضيت الليلة في فندق في ساندويتش. وعند التحري عن ذلك في المسار العادي للتحقيقات، تبيَّن أنك لم تنزل هناك.»

تخبَّط هارمر بينما يتفحص نوتات الموسيقى دون أن يرفع نظره عنها.

«أين أقمت يا سيد هارمر؟»

رفع هارمر نظره مع ضحكة صغيرة. ثم قال: «كما تعلم، إنه لأمر مضحك للغاية! أن يزورك رجل محترم مهذب بطريقة ودية تمامًا في وقت الإفطار، ويعتذر عن إزعاجك ويأمُل ألا تسبب زيارته مشكلة لك ولكنه مفتش للشرطة ويطلب منك أن تتكرم وتقدم بعض المعلومات لأنه في المرة الأخيرة لم تكن معلوماتك دقيقة كما ينبغي. إنه تصرف رائع، في حقيقة الأمر. وتحصل على نتائج منه، أيضًا. ربما ينهار من تحقق معه ويبكي، من فرط الود. ما أود أن أعرفه هو ما إذا كان هذا الأسلوب يُستخدَم في بيمليكو أم أنك تحتفظ به من أجل بارك لين.»

«ما أود أن أعرفه هو المكان الذي قضيت فيه ليلة الأربعاء الماضي، يا سيد هارمر.»

«أظن أن استخدام كلمة السيد، أيضًا، هو من سمات أسلوب بارك لين أيضًا. في الواقع، إذا كنت تتحدث إلى جيسون غير المشهور قبل عشر سنوات، لاقتدتني إلى قسم الشرطة وأرهبتني تمامًا مثل رجال الشرطة في أي بلد آخر. جميعهم متشابهون؛ عبدة المال.»

«ليست لديَّ خبرتك في التعامل مع قوات الشرطة في العالم، للأسف، يا سيد هارمر.»

ابتسم هارمر. وقال: «أزعجتك! إن الشخص الإنجليزي يجب أن ينزعج كثيرًا ليتعلم كيف يرد بهذا التهذيب الفظ. لا تفهمني خطأ، مع ذلك، أيها المفتش. لا توجد أي علامات للشرطة علي. أمَّا بالنسبة إلى ليلة الأربعاء الماضي، فقد قضيتها في سيارتي.»

«هل تعني أنك لم تذهب إلى الفراش على الإطلاق؟»

«هذا ما أعنيه.»

«وأين كانت السيارة؟»

«في ممر به سياج من الأشجار بارتفاع المنازل على كلا الجانبين، وأوقفتها على حافة العشب. إن الكثير من مساحة الأراضي في إنجلترا تهدر في هذه الحواف. وتلك الموجودة في هذا الممر يبلغ عرضها نحو أربعين قدمًا.»

«وأنت تقول إنك نمت في السيارة؟ هل هناك شخص يمكن أن يشهد على ذلك؟»

«لا. إنه ليس هذا النوع من توقف السيارات. كنت فقط نعسان وتائهًا ولم أستطع أن أتحرك أكثر من ذلك.»

«تائه! في شرق كنت!»

«نعم، وفي أي مكان في كنت، إذا أردت الحقيقة. هل سبق لك أن حاولت العثور على قرية في إنجلترا بعد حلول الظلام؟ إن قضاء الليل في الصَّحْراء هو أمر أسهل من ذلك. ترى أخيرًا لافتة تقول (قرية كذا على بعد ميلَين ونصف) فتقول لنفسك: قرية كذا الجميلة! لقد اقتربنا! تحية لإنجلترا والعلامات الإرشادية! ثم بعد نصف ميل تصل إلى مكان به مفترق

لثلاث طرق، وتجد هناك علامة إرشادية جميلة مرتبة على مساحة بسيطة خضراء اللون في المنتصف وكل ذراع ملعونة من أذرع تلك العلامة يحمل ثلاثة أسماء على الأقل، لكن هل تعتقد أن أحدهم يذكر قرية كذا؟ أوه، لا! هذا من شأنه أن يجعل الأمر سهلًا للغاية! ومن ثم تقرؤهم كلهم عدة مرات وتأمل أن يمر أحد ليرشدك قبل أن تقرر، لكن لا أحد يأتي. إذ إن آخر شخص مر هناك منذ أسبوع يوم الثلاثاء الماضي. ولا توجد منازل؛ لا شيء سوى الحقول، وإعلان عن سيرك كان هناك في أبريل الماضي. لذا تضطر أن تسلك إحدى الطرق الثلاث، وبعد اجتياز علامتين أُخريَين ليس عليهما اسم قرية كذا، تجد لافتة تقول: كذا، على بعد ستة أميال وثلاثة أرباع الميل. لذا تبدأ من جديد، أربعة أميال سيئة، ثم يحدث الأمر من جديد. ومرة أخرى! ويستمر البحث عن قرية كذا وتتكرر المتاهة بضع مرات، حتى لا تهتم بما يحدث ما دام يمكنك التوقف عن القيادة في المنعطفات والنوم. لذلك توقفت حيث كنت وذهبت للنوم. كان الوقت قد تأخر جدًّا على زيارة كريس في ذلك الوقت، على أي حال.»

«ولكنه لم يكن قد تأخَّر جدًّا على أن تحصل على غرفة في فندق صغير.»

«هذا إذا كنت تعرف مكان الفندق. إلى جانب أنه، بناءً على مستوى بعض الفنادق التي رأيتها هنا، فأنا أُفضِّل النوم في السيارة.»

أومأ جرانت برأسه مشيرًا إلى ذقن هارمر غير المحلوقة وقال: «لقد لاحظت أن لحيتك كثيفة.»

«أجل، يجب أن أحلق مرتين في اليوم، أحيانًا. إذا كنت سأخرج متأخرًا. لماذا؟»

«لقد كانت ذقنك محلوقة عندما وصلت إلى كوخ الآنسة كلاي. كيف حدث ذلك؟»

«أحمل أدوات الحلاقة الخاصة بي في السيارة. يجب أن تفعل ذلك، عندما يكون لديك لحية مثل لحيتي.»

«إذن لم تتناول وجبة الإفطار في ذلك الصباح؟»

«لا، كنت أخطط للحصول على الإفطار من كريس. وأنا لا أتناول وجبة الإفطار على أي حال. فقط القهوة، أو عصير البرتقال. وعادة ما أتناول عصير البرتقال في إنجلترا. يا إلهي، إن قهوتكم في إنجلترا سيئة ... ماذا تظن أنهم يفعلون بها؟ أعني، النساء. إنها ...»

«اترك القهوة جانبًا للحظة، هل نتطرق إلى النقطة الرئيسية؟ لماذا أخبرت السيرجنت المناوب بأنك نمت في ساندويتش؟»

تغير وجه الرجل على نحوٍ طفيف. حتى ذلك الحين كان يجيب بسهولة، وبتلقائية؛ منحنيات وجهه العريض ذي الملامح الطيبة عادة ما تكون متراخية وودية. الآن ذهب التراخي؛ وأصبح الوجه حذرًا، و... هل هو هكذا بالفعل؟ ... هل هو عدائي.

«لأنني شعرت بأن هناك شيئًا خاطئًا، ولم أرغب في التورط فيه.»

«هذا أمر غير عادي للغاية، أليس كذلك؟ أعني، أن تكون مدركًا للشر قبل أن يعرف أيُّ شخص بوجوده.»

«هذا ليس غريبًا. أخبروني أن كريس قد غرقت. وأنا أعرف أن كريس تجيد السباحة مثل ثعبان البحر. كما أعرف أنني كنت بالخارج طَوال الليل. وكان السيرجنت ينظر إليَّ في تشكك مع تعبير كما لو كان يسأل من أنت وماذا تفعل هنا؟»

«لكن السيرجنت لم يكن لديه معلومات تُفيد بأن الغرق هو مجرد حادث عادي. لم يكن لديه سبب للنظر إليك بهذه الطريقة.»

ثم قرر التغاضي عن موضوع كذب هارمر على السيرجنت.

«كيف عرفت، بالمناسبة، أين تجد الآنسة كلاي؟ لقد فهمت أنها أبقت مكان اختبائها سرًّا.»

«نعم، لقد هربت بعيدًا. وضللتنا جميعًا، في الواقع، بما في ذلك أنا. لقد كانت متعبةً وغير سعيدة بالمرة بالطريقة التي ظهر عليها فيلمها الأخير. في العرض الخاص، أعني؛ حيث إنه لم يُعرض في دُور عرض السينما بعد. لم يعرف كوين كيف يهدئها. كان يخاف منها بعضَ الشيء، وفي الوقت نفسه يخشى أن تفضِّل عليه شخصًا آخر. كما تعلم. لو أنه كان يدللها بـ «طفلتي» أو «شوكولاتة» بالطريقة التي اعتاد عليها جو مايرز في الولايات المتحدة، لكانت ستضحك وتعمل كل ما في وُسعها لإرضائه. لكن كوين معتد بكرامته، وباعتباره «المخرج الكبير»؛ ولذا لم يتوافقا معًا. لذلك شعَرت بالملل، والإرهاق، وأرادها الجميع أن تذهب إلى أماكن مختلفة لقضاء الإجازات، وبدا أنها لم تستطع اتخاذ قرار، وبعد ذلك ذات يوم استيقظنا فلم نجدها. قالت بَندل — وهي مديرة منزلها — إنها لا تعرف مكانها، ولكنها لم تترك أي رسائل لأي شخص، وقالت إنها ستظهر مرة أخرى في غضون شهر، لذلك لا داعي للقلق. حسنًا، لمدة أسبوعين تقريبًا لم يسمع عنها أحد، ثم قابلت يوم الثلاثاء الماضي مارتا هالارد في حفل غداء في منزل ليبي سيمون — حيث ستشارك في مسرحيته الجديدة — وقالت إنها قابلت كريس يوم السبت وهي تشتري الشوكولاتة من متجرٍ ما في بيكر ستريت — حيث إن كريس كانت تعجز تمامًا عن مقاومة

تناول الشوكولاتة في الفترات التي لا تنشغل فيها بتصوير أفلامها! — وحاولت استدراج كريس لتعلم مكان اختبائها. لكن كريس لم تُفصح عن مكان وجودها. على الأقل اعتقدت أنها لن تفصح. وقالت: «ربما لن أعود أبدًا. أنت تعرفين ذلك الروماني العجوز الذي يزرع الخضار بيديه وكان منشغلًا جدًّا بالنتيجة لدرجة أنه قرَّر أن يستمر في هذا الوضع على الدوام. حسنًا، بالأمس ساعدت في جمع أول حبات الكرز إلى سوق كوفنت جاردن، وصدقيني، فإن الشعور بالحصول على جائزة الأوسكار عن فيلم ما لا يعني شيئًا مقارنةً بشعوري وأنا أجمع الكرز!»»

ثم كتم هارمر ضحكته. وقال بمودة: «يمكنني سماع صوتها.» وأضاف: «حسنًا، ذهبت مباشرة من حفل سيمون إلى كوفنت جاردن واكتشفت من أين أتى الكرز. من بستان في مكان يُسمى بيردز جرين. وفي صباح يوم الأربعاء المشرق وفي وقت مبكر انطلقت إلى بيردز جرين. استغرق ذلك القليل من الوقت للعثور عليه، لكنني وصلت إلى هناك نحو الساعة الثالثة. ثم كان عليَّ أن أجد البستان والأشخاص الذين كانوا يعملون فيه يوم الجمعة. كنت أتوقع أن أعثر على كريس بسرعة، لكن يبدو أنهم لم يعرفوها. قالوا إنهم عندما كانوا يجمعون المحصول، في وقت مبكر من صباح يوم الجمعة، توقفت سيدة تمر في سيارة لتشاهدهم ثم سألت عما إذا كان بإمكانها المساعدة. فقال العجوز الذي يملك المكان إنهم لا يحتاجون إلى مساعدة مدفوعة الأجر، ولكن إذا كانت تحب تسلية نفسها فلتتفضل. وقال: «لقد كانت تجيد الجمع. ولا مانع لديَّ من إعطائها أجرًا في مرة أخرى.» ثم قال حفيده إنه رأى السيدة — أو اعتقد أنه رآها — في اليوم التالي في مكتب البريد في ليدلستون — على بعد نحو ستة أميال. ومن ثم ذهبتُ إلى ليدلستون، لكن الموظفة المعتادة في مكتب البريد لم تكن هناك حيث «عادت إلى المنزل لتناول الشاي»، وكان عليَّ الانتظار حتى تعود. ومن ثم قالت إن السيدة التي أرسلت «جميع البرقيات» — إذ يبدو أنها لم ترَ في حياتها عددًا أكبر من تلك التي أرسلتها كريس — تعيش في ميدلي. لذلك انطلقت بينما يحل الظلام للعثور على ميدلي، وانتهى بي الأمر بالنوم في ممر. وسواء انتهى الأمر بالنوم بالخارج أو عدم النوم بالخارج، كان ذلك عملَ تحرٍّ أفضل مما تفعله هذا الصباح، أيها المفتش جرانت!»

ابتسم جرانت على نحوٍ ودي. وقال: «حقًّا؟ حسنًا، لقد أوشكت على الانتهاء.» ونهض لينصرف. ثم قال: «أفترض أنه كان معك معطف في السيارة؟»

«بالتأكيد.»

«ما هي الخامة التي صنع منها؟»

«صوف التويد البني. لماذا؟»

«هل هو معك هنا؟»

«بالتأكيد.» واتجه إلى خزانة الملابس، التي بُنيت في الممر المؤدي من غرفة الجلوس إلى غرفة النوم، وسحب الباب المنزلق لفتحها. ثم استأنف: «ألقِ نظرة على خزانة ملابسي بالكامل. أنت أذكى مني إذا كان بإمكانك العثور على الزر.»

سأل جرانت، بسرعة أكبر مما كان ينوي: «أي زر؟»

قال هارمر: «إن البحث في الملابس له علاقة دائمًا بزر، أليس كذلك؟»، وقد انتبهت عيناه الصغيرتان ذات اللون البني الفاتح، متيقظة تحت جفنيها الكسولَين، بينما يبتسم بثقة إلى جرانت.

لم يجد جرانت شيئًا مهمًّا في خزانة الملابس. فانصرف وهو لا يعرف مدى إمكانية تصديقه لقصة جيسون هارمر، لكنه متأكد من أنه «لا يوجد ما يدينه.» ولذا تنعقد آمال الشرطة، إذا جاز التعبير، على تيسدول.

الآن، بينما يتوقف بالقرب من الرصيف في الصباح المشرق البارد، تذكر خزانة ملابس جيسون، وابتسم في عقله. إذ إن جيسون لا يشتري ملابسه من متجر ستايسي آند براكيت. وبينما كان يتفحص الخزانة المظلمة الصغيرة المتهالكة عندما فتح بابها، كاد أن يسمع جيسون يضحك. عجبًا للإنجليز! لقد بدأت تجارتهم منذ مائة وخمسين عامًا وكان هذا كل ما يمكنهم فعله لتطويرها. من المحتمل أن مناضد البيع أصلية. وبالتأكيد الإضاءة أصلية. لكن قلب جرانت مبتهج. كانت هذه إنجلترا التي يعرفها ويحبها. قد تتغير الموضات، وقد تسقط سلالات حاكمة، وتتحول أصوات سنابك الخيول في الشارع الهادئ إلى أصوات آلاف من أبواق سيارات الأجرة، لكن ستايسي وبراكيت مستمرون في صنع الملابس بكفاءة ورقي من أجل السادة الأكفاء الراقين.

لم يَعُد هناك الآن لا ستايسي ولا براكيت، ولكن السيد تريملي — السيد ستيفن تريملي (في مقابل السيد روبرت والسيد توماس!) — شاهد المفتش جرانت وأصبح بالكامل في خدمة المفتش جرانت. أجل، لقد صنعوا ملابس للسيد روبرت تيسدول. أجل، تضمنت الملابس مِعطفًا داكنًا لارتدائه مع ملابس السهرة. لا، هذا بالتأكيد ليس زرًّا من المعطف الذي يجري التحري عنه. لم يستخدموا هذا الزر على الإطلاق. لم يكن من فئة الأزرار التي اعتادوا على استخدامها. وإذا سمح المفتش للسيد تريملي (السيد ستيفن تريملي)، فإن الزر الذي يجري التحري عنه هو في رأيه من نوعٍ رديء للغاية، ولن يستخدمه أيُّ خياط من أي مكانة. ولن يتفاجأ، في الواقع، إذا اكتشف أن الزر من أصل أجنبي.

سأل جرانت: «هل تظن أنه أمريكي؟»

ربما. على الرغم من أنه في وجهة نظر السيد تريملي ربما أوروبي. لا، بالتأكيد لم يكن لديه سبب لمثل هذا التخمين. إنه محض حدس. وربما يكون خاطئًا. وأعرب عن أمله في ألا يعطي المفتش أي وزن لرأيه. كما أعرب عن أمله في ألا يتعرض السيد تيسدول لأي مشكلات. إنه شاب مهذب للغاية، في الواقع. إن مدارس القواعد — وخاصة مدارس القواعد العريقة في البلاد — قد أخرجت فتًى مهذبًا للغاية. أفضل في كثير من الأحيان من المدارس العامة الثانوية. ألا يعتقد المفتش ذلك؟ كان هناك نوع من الاستمرارية بالنسبة إلى العائلات التي ترتاد مدارس القواعد — جيل بعد جيل يذهبون إلى نفس المدرسة — لا تقارن خارج المدارس العامة الكبيرة.

في رأي جرانت، ليس هناك نوع من الاستمرارية أيًّا كانت بالنسبة إلى تيسدول؛ لذا لم يجادل، وأرضى نفسه من خلال التأكيد للسيد تريملي أنه بقدر ما يعرف فإن السيد تيسدول ليس في مشكلة حتى الآن.

شعَر السيد تريملي بالسعادة لسماع ذلك. فهو يتقدَّم في السن، وأصبح إيمانه بجيل الشباب الحالي يتزعزع، للأسف، في كثير من الأحيان. ربما اعتقد كل جيل أن الجيل الصاعد يفتقر إلى معايير السلوك والروح الواجبة، ولكن بدا له أن هذا الشاب … آه، حسنًا، لقد كان يتقدم في السن، وأصبحت مآسي الشباب تثقله أكثر من ذي قبل. لقد اسودَّ صباح هذا الإثنين أمام عينيه، نعم، اسودَّ للغاية، عندما فكر أن كل ذلك البريق الذي كان يشع من كريستين كلاي في سبيله للتحول إلى رماد في هذه الساعة. سوف تمر سنوات عديدة، وربما أجيال (يتعامل عقل السيد تريملي مع الزمن بمعيار الجيل؛ ويرجع ذلك لامتلاكه شركة عمرها مائة وخمسون عامًا) قبل أن يظهر مثلها مرة أخرى. كانت تتمتع بالرقي، ألم يظن المفتش ذلك؟ رقي هائل. لقد قيل إن أصلها متواضع للغاية، لكن لا بدَّ أن لها جذورًا تتسم بالرقي والتهذيب. فشخصية مثل كريستين كلاي لم تكن لتنشأ من فراغ، كما يقولون. لا بدَّ أن الطبيعة قد خطَّطت لذلك. وهو لم يكن، من وجهة نظره، كما كان معروفًا عنه، من المعجبين بالأفلام السينمائية، ولكن ليس هناك فيلم للآنسة كلاي لم يشاهده منذ أن أخذته ابنة أخته لمشاهدة محاولة كلاي الأولى في دور درامي. لقد نسيَ في تلك المناسبة تمامًا أنه في السينما. كان منبهرًا من فرط المتعة. بالتأكيد إذا كانت هذه الوسيلة الترفيهية الجديدة قادرة على إنتاج مادة بهذه القوة والثراء، فلا داعيَ للاستمرار في التأسي على سارة برنار وإليونورا دوزي.

نزل جرانت إلى الشارع، متفاجئًا من عبقرية كريستين كلاي الواسعة الانتشار. بدا أن عقل العالم كله منصبٌّ على مبنى حرق الجثث في جولدرز جرين. نهاية غريبة لعاملة مصنع الدانتيل الصغيرة من نوتينجهام. ونهاية غريبة أيضًا بالنسبة إلى محبوبة العالم. «ثم يضعونها في الفرن كما لو كانت ...» أوه، يجب ألَّا يفكر في ذلك. كم يبدو هذا بغيضًا. لماذا يكون هذا بغيضًا؟ لم يكن يعلم. ربما لأنه يتم في ضاحية، حسبما يظن. ربما كان أمرًا عقلانيًّا حقًّا. وربما أقل ترويعًا للجميع. لكن الشخص الذي تألق بريقه عبر السماء البشرية مثل كلاي يجب أن يُحرق في محرقة بارتفاع مائة قدم. شيء مذهل. جنازة مَهيبة مثل ملوك الفايكينج. وليس في أفران في الضاحية. يا إلهي، لقد أصبح كئيبًا، إن لم يكن عاطفيًّا. ومن ثم أدار المحرك، وانطلق مع حركة المرور.

كان قد غيَّر رأيه بالأمس بشأن الذَّهاب إلى جِنازة كلاي. فبما أن دليل تيسدول يتقدم بشكل طبيعي، لم يرَ أي حاجة إلى إزعاج نفسه إذا كان بإمكانه تجنُّب ذلك. لكن الآن فقط أدرك مدى سعادته الشديدة بالنجاة منها، و(لكونه جرانت) بدأ على الفور في التساؤل هل كان يفترض به أن يذهب بعد كل ذلك. ثم تساءل ما إذا كانت رغبته اللاواعية في الهروب من هذه الجنازة قد أثرت في قراره. وقرَّر أن هذا لم يحدث. لم تكن هناك حاجة إليه الآن لدراسة سيكولوجية أصدقاء كريستين المجهولين. لقد شاهد عينة مقطعية كافية منهم في منزل مارتا، ولم يجمع سوى القليل من المعلومات، في نهاية الأمر. حيث رفض مرتادو الحفل بعناد أن يتخاصموا. بدأ جامي في الحديث مرة أخرى، على أمل أن يرقصوا على أنغامه. لكن مارتا اعترضت على أي حديث آخر عن كريستين، وعلى الرغم من أنهم تحدثوا عنها ثانية عدة مرات، فإن عبقرية جامي في استحضار موضوع كريستين لم تتمكن أن تُبقيَهم في هذا الموضوع. ليديا، التي لم تستطع البقاء بعيدًا عن موضوعها الخاص لفترة طويلة، أخذت تقرأ لهم الكف، حيث تعتبر قراءة الكف خطًّا جانبيًّا لها عندما تصبح الأبراج غير متاحة (وقد أعطت قراءة ذكية لشخصية جرانت وحذرته من اتخاذ قرار خاطئ في المستقبل القريب: «إنه شيء جميل وآمِن لتقوله لأي شخص»، حسبما قال لنفسه) ولم ينتهِ الحفل حتى الساعة الواحدة صباحًا عندما صحبتهم المضيفة جميعهم نحو الباب. وقد تباطأ جرانت، والغريب أن ذلك لم يكن لأن لديه أسئلة يطرحها عليها (فقد أعطته المحادثة ما يريد من إجابات)، ولكن لأنها كانت حريصة على استجوابه. هل جرى استدعاء سكوتلاند يارد للتحقيق في وفاة كريستين؟ ما المشكلة؟ وماذا وجدوا؟ وفيمَ كانوا يشتبهون؟

قال جرانت نعم، لقد جرى استدعاؤهم (وهو أمر يعلمه الجميع الآن)، ولكن حتى اللحظة ليس هناك سوى اشتباه. ومن ثم بكت قليلًا، على نحو مناسب، مع تأثيرٍ غير كارثي على الماسكارا، مُعرِبة عن تقديرها لكريستين كفنانة وامرأة. «إنها شخص متميز. لا بدَّ أنها قد بذلت جهودًا هائلة للتغلب على العوائق التي واجهتها في البداية.» وذكرت تلك العوائق.

ومن ثم خرج جرانت إلى الليل الدافئ وهو يتنهَّد عجبًا من الطبيعة البشرية ... ويهز كتفيه مع التنهيدة.

ولكن هناك أيضًا نقاط مضيئة حتى في الطبيعة البشرية. تقدم جرانت نحو الرصيف، وتوقَّف، ووجهه الأسمر سعيد ومرحب.

رفع صوته مُحيِّيًا الفتاة الضئيلة ذات الملابس الرمادية: «صباح الخير!»

قالت إريكا وهي تعبر الرصيف باتجاهه: «صباح الخير، يا سيد جرانت.» أعطته ابتسامة قصيرة، لكنها بدت سعيدةً برؤيته؛ الكثير كان واضحًا من خلال مظهرها العملي الصبياني. لاحظ أنها كانت ترتدي ملابس «المدينة» الخاصة بها؛ لكنها لم تبد أكثر أناقة من ملابسها الريفية. كانت نظيفة، بالتأكيد، لكن مظهرها غير معتاد؛ والبدلة الرمادية التي ترتديها، رغم أنها بلا شك «جيدة»، فقد كانت عتيقة الطراز. وتتماشى معها قبعتها، وتتوافق أيضًا في الطراز القديم.

«لم أكن أعلم أنك تقيمين في المدينة من قبل.»

«أنا لا أقيم في المدينة. جئت للحصول على جسر.»

«جسر؟»

«لكن يبدو أنه لا يمكنك الحصول عليه بسهولة. يجب أن يُصنع وَفق قياساتك. لذلك يجب أن أعود في يوم آخر. كل ما فعله اليوم هو وضع الكثير من الصلصال في فمي.»

«أوه، طبيب الأسنان. فهمت. ظننت أن السيدات المسنات فقط هن من يضعنَ جسورًا.»

«حسنًا، الشيء السخيف الذي وضعه في المرة الأخيرة لم يصمد. أنا دائمًا ألتقطه من قطع التوفي. لقد فقدت الكثير من الأسنان الجانبية عندما تشاجرت مع فلايت في الشتاء الماضي. كان وجهي مثل ثمرة لفت. لذلك كان يجب تركيب جسر في فمي، كما يقول.»

«اسم خاطئ، فلايت.»

«بطريقة ما. ولكنه في الحقيقة مناسب له. كان تقريبًا عند الطرف الآخر من كِنت قبل أن يُمسكوا به.»

«إلى أين أنت ذاهبة الآن؟ هل يمكنني أن أوصلك إلى أي مكان؟»

«أظن أنك لا ترغب في أن تريني سكوتلاند يارد؟»

«بل أرغب. للغاية. لكن بعد عشرين دقيقة لديَّ موعد مع محامٍ في تيمبل.»

«أوه. في هذه الحالة يمكن أن توصلني إلى شارع كوكسبور. لديَّ مهمة أقوم بها من أجل مربيتي.»

عندما ولجت إلى السيارة بجانبه، فكر قائلًا في نفسه، أجل، لا بدَّ أنها مربية. إن الملابس التي ترتديها ليست من اختيار أم. لقد طُلبت من الخياط تمامًا مثل ملابس مَدرستها. «بدلة رمادية من صوف الفلانيل وقبعة لتناسبها.» وعلى الرغم من استقلاليتها وثقتها في نفسها، كان هناك شيء بائس فيها، حسبما شعر.

قالت: «إنه لطيف.» وتابعت: «وليس مرتفعًا للغاية، لكني أكره السير به.»

«ما هو؟»

«حذائي.» رفعت قدمها وأظهرت حذاءها ذا الكعب المتوسط الارتفاع. ثم استأنفت: «تظن مربيتي أنه مناسب لارتدائه في المدينة، لكنني لا أستطيع المشي به. حيث يجعلني أتمايل.»

«أظن أن المرء يعتاد عليه بمرور الوقت. يجب على المرء أن يمتثل لعادات مجتمعه.»

«لماذا يجب على المرء ذلك؟»

«لأن الحياة غير الهادئة أكثر بؤسًا من ارتداء شارة الامتثال.»

«أوه، حسنًا. أنا لا آتي إلى المدينة كثيرًا. أظن أنه ليس لديك وقت لتناول المثلجات معي؟»

«لا يمكنني للأسف. دعينا نؤجل الأمر حتى أعود إلى ويستوفر، هل يمكنك ذلك؟»

«بالطبع، ستعود. لقد نسيت ذلك.» وأضافت كي تفتح معه حوارًا: «رأيت ضحيتك بالأمس.»

«ضحيتي؟»

«أجل، الرجل الذي فقد الوعي.»

«رأيته! أين؟»

«والدي أخذني لتناول الغداء في مطعم مارين.»

«لكنني ظننت أن والدك يكره مطعم مارين.»

«هذا صحيح. قال إنه لم يرَ مثل هذه المجموعة من الأسماك المملحة السامة في حياته. أعتقد أن (الأسماك المُملَّحة) قوية بعض الشيء. لم تكن سيئة للغاية. والبطيخ كان جيدًا جدًّا.»

«هل أخبرك والدك أن تيسدول يعمل نادلًا هناك؟»

«لا، لقد أخبرني السيرجنت. إنه لا يبدو محترفًا للغاية. أعني السيد تيسدول، وليس السيرجنت. فهو ودود للغاية ومهتم. لا يوجد نادل محترف يبدو مهتمًّا. في الواقع لا يوجد. وقد نسي ملاعق المثلجات. لكنني أظن أنك أزعجته للغاية في اليوم السابق.»

«أنا أزعجته!» أخذ جرانت نفَسًا عميقا وأعربَ عن أمله في أن إريكا لن تسمح لمحنة شاب حسن المظهر أن تُحطِّم قلبها.

«أوه لا. لا شيء من هذا القبيل. إن أنفه طويل جدًّا. بالإضافة إلى ذلك، أنا مغرمة بتوجاريه.»

«من هو توجاريه؟»

«مروِّض الأسود، بالطبع.» والتفتت لتنظر إليه بريبة. «هل تقصد حقًّا أنك لم تسمع عن توجاريه؟»

شعَر جرانت بالأسف لأنه لم يسمع عنه من قبل حقًّا.

«ألا تذهب إلى أوليمبيا في عيد الميلاد؟ لكن يجب عليك ذلك! سأجعل السيد ميلز يرسل إليك تذاكر للدخول.»

«شكرًا لك. ومنذ متى وأنت مغرمة بتوجاريه هذا؟»

«منذ أربع سنوات. أنا مخلصة للغاية.»

أقرَّ جرانت بأنها لا بدَّ أن تكون كذلك.

قالت بنفس اللهجة التي أعلنت بها إخلاصها: «أوصلني إلى مقر أورينت أوفيسز، هلا فعلت؟» فأنزلها جرانت بجوار سفينة الركاب ذات المدخنة الصفراء.

وسأل: «هل ستذهبين في نزهة بحرية؟»

«أوه، لا. سأتجول هناك لأجمع كتيبات من أجل مربيتي. إنها تحبها. لم تسافر أبدًا خارج إنجلترا لأنها تخشى البحر، لكنها تحب الجلوس بأمان وتتخيل. لقد حصلت لها على بعض الكتيبات المليئة بالجبال الرائعة من المقر النمساوي في ريجنت ستريت في الربيع. وهي على دراية كبيرة بالمنتجعات الألمانية. وداعًا. شكرًا لك على توصيلي إلى هنا. كيف لي أن أعرف عندما تأتي إلى ويستوفر؟ أعني، كي نذهب لتناول المثلجات.»

«سأخبرك من خلال والدك. هل هذا مناسب؟»

«أجل. إلى اللقاء.» واختفت داخل المبنى.

وذهب جرانت في طريقه للقاء محامي كريستين كلاي وزوج كريستين كلاي، وقد تحسَّن مزاجه.

الفصل الثامن

كان من الواضح على الفور لماذا لم يدعُ أحد إدوارد تشينس بأي اسم سوى إدوارد. كان شخصًا طويل القامة، وقورًا للغاية، وسيمًا للغاية، ومتحفِّظًا للغاية، ولديه أسلوب جاد، أو بالأحرى، مثير للاهتمام، وابتسامته نادرة ولكنها جذابة. إلى جانب الحركات العصبية للسيد إرسكين الذي يَصعُب إرضاؤه، كان اتزانه يشبه اتزان سفينة ركاب يقطرها زورق صغير.

لم يقابله جرانت من قبل. وقد وصل إدوارد تشينس إلى لندن بعد ظهر الخميس، بعد قُرابة ثلاثة أشهر من الغياب، حيث استُقبل بنبأ وفاة زوجته. فتوجه على الفور إلى ويستوفر وتعرف على الجثة، وفي يوم الجمعة أجرى مقابلةً مع شرطة المقاطعة، التي كانت تحقق بخصوص الزر، وساعدهم في اتخاذ قرار بأن الأمر يستدعي الاستعانة بشرطة سكوتلاند يارد. ومن ثَم تطلبت الآلاف من الأشياء التي تنتظر القيام بها في المدينة نتيجة وفاة زوجته وغيابه الطويل أن يعود إلى لندن في نفس الوقت الذي تركها فيه جرانت.

بدا متعبًا جدًّا، الآن، لكنه لم يُظهر أي انفعال. تساءل جرانت تحت أي ظروف سيُظهر هذا الرجل المتحفظ، الذي هو نتاج خمسمائة عام من الامتياز والالتزام، انفعاله. وبعد ذلك، فجأة، بينما يجلس على الكرسي، خطَر له أن إدوارد تشينس هو أبعد ما يكون عن التحفظ. لو كان يمتثل لتقاليد المجتمع، مثلما يبدو عليه، لكان قد تزوج من ابنة عم، والتحق بالخدمة، وأدار إقطاعية، وواظب على قراءة صحيفة «مورنينج بوست». لكنه لم يفعل شيئًا من هذا. تزوج من فنانة التقطها في الجانب الآخر من العالم، واستكشف العالم من أجل المتعة، وألف الكتب. كان هناك شيء يكاد يكون غريبًا في فكرة أن المظهر الخارجي يمكن أن يصبح مضللًا تمامًا.

قال إرسكين: «لقد اطلع اللورد إدوارد، بالطبع، على الوصية.» وتابع: «لقد كان، في الواقع، على دراية ببنودها الأكثر أهمية منذ بعض الوقت، فقد أخبرته الليدي إدوارد برغباتها في وقت كتابة الوصية. ومع ذلك، هناك مفاجأة واحدة. ولكن ربما ترغب في قراءة الوثيقة بنفسك.»

ومن ثم أدار الورقة ذات المظهر المهم على الطاولة بحيث تواجه جرانت.

«لقد كتبت الليدي إدوارد وصيتين سابقتين، كلتاهما في الولايات المتحدة، ولكن جرى إلغاؤهما بناءً على تعليماتها من قبل محامييها الأمريكيين. كانت حريصة على أن تدار ممتلكاتها من إنجلترا، من أجل الاستقرار الذي تقدره كثيرًا.»

لم تترك كريستين شيئًا لزوجها. «لم أترك أي أموال لزوجي، إدوارد تشينس، لأنه كان لديه دائمًا، وسيظل لديه، أكثر مما يستطيع إنفاقه، ولأنه لم يهتم أبدًا بالمال على نحوٍ كبير.» ورغم ذلك أيًّا كان ما يرغب في الاحتفاظ به من ممتلكاتها الشخصية فهو له، باستثناء الحالات التي تنص فيها الوصية على خلاف ذلك على وجه التحديد. أوصت بمنح أموال، سواء بمبالغ تمنح كاملة في مرة واحدة أو تمنح سنويًّا، للأصدقاء والتابعين. فأوصت بإعطاء مبلغ لبندل، مديرة منزلها ومُلبِّستها السابقة. وإلى سائقها الزنجي. وإلى جو مايرز، الذي أخرج أعظم نجاحاتها. وإلى حمَّال حقائب في شيكاغو «لشراء محطة الوقود التي يَحلُم بها.» وإلى ما يقرب من ثلاثين شخصًا في جميع أنحاء العالم وفي جميع مجالات الوجود. لكن لم يكن هناك أي ذكر لجيسون هارمر.

نظر جرانت على تاريخ الوصية. فوجده منذ ثمانية عشر شهرًا. ربما لم تكن قد قابلت هارمر في ذلك الوقت.

ورغم أن المبالغ المورثة سخية، فقد تركت الجزء الأكبر من ثروتها الضخمة كما هي. والمدهش أنها تركت تلك الثروة، ليس لأي فرد، ولكن «من أجل الحفاظ على جمال إنجلترا.» حيث ستصبح هناك وديعة، يمكن الاستفادة منها في شراء أي مبنى أو مكان جميل مهدد بالتدمير وتوفير الصيانة له.

كانت تلك مفاجأة جرانت الثالثة. وجاءت الرابعة في نهاية بنود الوصية. كان آخر بند في الوصية: «لأخي هربرت، شلن واحد من أجل الشموع.»

قال جرانت: «هل لديها أخ؟»، ورفع عينه عن الوصية مستفسرًا.

«لم يكن اللورد إدوارد على علم بأن السيدة إدوارد لديها أخ إلا بعد أن قُرِأت عليه الوصية. لقد تُوفي والدا السيدة إدوارد منذ سنوات عديدة، ولم يكن هناك أي ذكر لأي أفراد من عائلتها على قيد الحياة باستثنائها.»

التفت إلى تشينس وسأل: «شلن واحد من أجل الشموع. هل تفهم من هذا أي شيء يا سيدي؟» لكنه هزَّ رأسه نافيًا.

«نزاعًا عائليًّا، حسبما أظن. ربما شيء قد حدث عندما كانا طفلين. غالبًا ما تكون هذه هي الأشياء التي لا يسامح فيها المرء أبدًا.» ثم نظر إلى المحامي. وتابع: «الشيء الذي أتذكره عندما ألتقي بأليسيا هو أنها كانت دائمًا ما تحطم مجموعة بيض الطيور الخاصة بي.»

قال جرانت: «لكن ليس بالضرورة شجارًا في مرحلة الطفولة.» وتابع: «لا بدَّ أنها عرفته لوقت أطول.»

«إن بندل هي الشخص الذي يجب أن يسأل عن هذا الأمر. لقد كانت مساعدة زوجتي منذ أيامها الأولى في نيويورك. لكن هل هذا أمر مهم؟ ففي نهاية الأمر، لم يحصل الرجل إلا على شلن.»

«إن الأمر مهم لأنها أول علامة على عداء حقيقي اكتشفتها بين علاقات الآنسة كلاي. لا أحد يعرف أبدًا ما الذي قد تقودنا إليه.»

قال إرسكين: «قد لا يعتقد المفتش أن الأمر بالغ الأهمية عندما يرى هذه.» وتابع: «هذه هي المفاجأة التي تحدثت عنها والتي سأقدمها لك لقراءتها.»

إذن فالمفاجأة لم تكن واحدة من تلك التي في الوصية.

أخذ جرانت الورقة من يد المحامي الجافة والمرتعشة قليلًا. وكانت ورقة مصقولة وسميكة وكريمية اللون من تلك التي يمكن الحصول عليها من متاجر أي قرية في جميع أنحاء إنجلترا، وعليها رسالة من كريستين كلاي إلى محاميها. كانت مرسلة من عنوان «برايارز، ميدلي، كنت»، وتحتوي على تعليمات تكميلية لوصيتها. لقد تركت مزرعتها في كاليفورنيا، مع كل الماشية والتجهيزات، علاوة على مبلغ خمسة آلاف جنيه، إلى روبرت ستاناواي، القاطن سابقًا في يومانز رو، لندن.

قال المحامي: «هذا كُتب يوم الأربعاء كما ترون. وفي صباح الخميس ...» وتوقف عن الكلام على نحوٍ مُوحٍ.

سأل جرانت: «هل هذه الرسالة قانونية؟»

«لا ينبغي أن أعترض عليها. إنها مكتوبة بالكامل بخط اليد وموقعة بشكل صحيح باسمها الكامل. وشهدت مارجريت بيتس التوقيع. الإجراء واضح تمامًا، والأسلوب عقلاني بشكل واضح.»

«هل توجد فرصة للتزوير؟»

«ليس هناك فرصة على الإطلاق. أنا أعرف خط يد السيدة إدوارد جيدًا — ستلاحظ أنه مميز وليس من السهل تقليده ... علاوة على ذلك، فأنا على دراية جيدة بأسلوبها، الذي لا يزال من الصعب تقليده.»

قال جرانت: «حسنًا.» بينما يقرأ الرسالة مرة أخرى، وهو يكاد لا يصدق بوجودها. وأضاف: «هذا يغير كل شيء. يجب أن أعود إلى سكوتلاند يارد. هذا سيعني على الأرجح حدوث عملية إلقاء قبض قبل حلول الليل.» ونهض واقفًا.

قال تشينس: «سآتي معك.»

وافق جرانت تلقائيًّا: «حسنًا، يا سيدي.» وتابع: «إذا سمحت لي، سأجري مكالمة هاتفية أولًا للتأكد من أن المأمور سيكون موجودًا هناك.»

وبينما يرفع السماعة قال لنفسه: كان هارمر على حق. نحن بالفعل نعامل الناس بشكل مختلف. إذا كان الزوج وكيل تأمين في بريكستون، فلن نعتبر أنه من المسلم به أن بإمكانه المشاركة في اجتماع بسكوتلاند يارد!

«هل المأمور باركر موجود في مكتبه؟ ... أوه ... متى؟ هذا بعد نحو عشرين دقيقة. حسنًا، أخبره أن المفتش جرانت لديه معلومات مهمة ويريد عقد اجتماع على الفور. نعم، المفوض، أيضًا، إذا كان هناك.»

ثم أنهى المكالمة.

قال مودعًا إرسكين: «أشكرك على مساعدتنا للغاية.» وتابع: «وبالمناسبة، إذا تمكنت من العثور على الأخ، سأصبح ممتنًّا إن أبلغتني.»

ونزل هو وتشينس عبر السلالم الضيقة المظلمة وخرجا إلى أشعة الشمس الحارة.

سأل تشينس، بينما يمسك باب سيارة جرانت بيد واحدة: «هل تظن أن هناك وقتًا لتناول مشروب. أشعر بالحاجة إلى بعض التقوية. لقد كان ... صباحًا مرهقًا.»

«أجل، بالتأكيد. لن يستغرق الأمر منا أكثر من عشر دقائق عبر شارع إمبانكمنت. إلى أين تريد أن تذهب؟»

«حسنًا، النادي الذي أرتاده في كارلتون هاوس تيريس، لكنني لا أريد مقابلة أشخاص أعرفهم. سافوي ليس أفضل كثيرًا ...»

قال جرانت: «هناك حانة صغيرة لطيفة في الجوار»، وانعطف بالسيارة. وهو يضيف: «إنها هادئة جدًّا في هذا الوقت. ورائعة، أيضًا.»

وبينما ينعطفون عند الناصية، لمح جرانت عناوين الصحف لدى باعة الصحف. جنازة كلاي: مشاهد غير مسبوقة. إغماء عشر نساء. وداع لندن لكلاي. وصحيفة «سنتينل» آخر جمهور لكلاي.

نزلَت قدم جرانت على دواسة البنزين.

وقال الرجل الذي بجانبه بهدوء: «كان الأمر مُروِّعًا بشكل لا يُصدَّق.»

«أجل، أستطيع التخيل.»

«تلك النساء. أعتقد أن نهاية عظمتنا كعرق لا بدَّ أن تكون قريبة جدًّا. لقد تجاوزنا الحرب بالفعل، لكن ربما كان الجهد كبيرًا للغاية. لقد تركتنا الحرب مصابين بالصرع. إن الصدمات الكبيرة تفعل ذلك، في بعض الأحيان.» ظل صامتًا للحظةٍ، ومن الواضح أنه كان يستحضر كل ذلك مرة أخرى في مُخيِّلته. إذ أضاف: «لقد رأيت المدافع الرشاشة تطلق على القوات في العراء — في الصين — وتمردت على تلك المذبحة. لكنني كنت أرى تلك الهستيريا الجماعية اللاآدمية تتكرر هذا الصباح في الجنازة بفرح أكثر مما أستطيع أن أصفه لك. ليس لأنها كانت ... كريس، ولكن لأنهم جعلوني أخجل من كوني بشر، ومن كوني أنتمي إلى نفس العرق.»

«كنت آمُل أنه في تلك الساعة المبكرة سيكون هناك تجمع قليل للغاية. أعرف أن الشرطة كانت تُعوِّل على ذلك.»

«لقد عوَّلنا على ذلك أيضًا. لهذا اخترنا تلك الساعة. الآن بعد أن رأيت بأم عيني، أعرف أنه لا يوجد شيء كان يمكن أن يُجنِّبنا ما حدث. إن الناس مجانين.»

توقف، وضحك بلا استمتاع. ثم قال: «إنها لم تكن تحب الناس كثيرًا. ذلك لأنها كانت ترى الناس ... مخيبين للآمال؛ لذا تركت أموالها كما فعلت. لقد برر معجبوها هذا الصباح حُكمها.»

كانت الحانة مثلما وعد به جرانت، فهي رائعة وهادئة وبسيطة. لم ينتبه أحد إلى تشينس. من بين الرجال الستة الحاضرين أومأ ثلاثة برأسهم لجرانت وبدا الثلاثة الآخرون حذرين. قال تشينس، اليقظ حتى في ألمه: «أين تذهب عندما تريد ألا يتعرف عليك أحد؟» وابتسم جرانت. ثم قال معترفًا: «لم أجد مكانًا بعد.» وتابع: «ذهبت ذات مرة إلى لابرادور في يختِ صديقٍ لي، وقال رجل في متجر القرية: «لقد أصبح شاربك أقصر الآن أيها السيرجنت.» من بعدها تخليت عن التوقع.»

تحدثا قليلًا عن لابرادور، ثم عن جاليريا، حيث قضى تشينس الأشهر القليلة الماضية.

«اعتدت الظن أن آسيا بُدائية، وبعض قبائل الهنود الحمر في أمريكا الجنوبية، لكن شرق أوروبا فاقهم جميعًا في البُدائية. باستثناء المدن، لا تزال جاليريا في الظلام البُدائي.»

قال جرانت: «أظن أنهم قد ضيعوا رجُلهم الوطني المذهل.»

«هل تقصد ريمنيك؟ أجل. سيظهر مرة أخرى عندما يصبح حزبه جاهزًا. هذه هي الطريقة التي يديرون بها البلاد المظلمة.»

«كم عدد الأحزاب هناك؟»

«نحو عشرة، على ما أظن، دون احتساب التقسيمات الفرعية. هناك ما لا يقل عن عشرين عرقًا في هذا البلد الذي يشبه القِدْر المغلي، كلهم يطالبون بالحكم الذاتي، وجميعهم من القرون الوسطى في مظهرهم. إنه مكان رائع. يجب عليك الذَّهاب إلى هناك يومًا ما. إن العاصمة هي نافذة العرض الخاصة بهم — تقريبًا نسخة طبق الأصل من كل عاصمة أخرى بقدر ما يمكنهم صنعها. الأوبرا، والترام، والضوء الكهربائي، ومحطة السكك الحديدية المهيبة، ودور السينما — ولكن على بُعد عشرين ميلًا داخل الريف ستجد مقايضة العرائس. حيث تجلس الفتيات في صفوف ومهرهن عند أقدامهن، في انتظار الذَّهاب إلى أعلى مزايد. لقد رأيت امرأة ريفية عجوز تكاد تجن وهي تُخرَج من المصعد في أحد مباني المدينة. إذ ظنت أنها كانت ضحية للسحر. وكان عليهم أن يأخذوها إلى المصحة. الكسب غير المشروع في المدينة والخرافات في الريف — ومع ذلك فهي مكان واعد للغاية.»

تركه جرانت يتحدث، سعيدًا لأنه حتى لبضع دقائق قد يصبح قادرًا على نسيان رعب الصباح. لكن تفكيره لم يكن منصبًّا على جاليريا ولكن على ويستوفر. إذن لقد فعلها، ذلك العاطفي حسن المظهر! لقد احتال ليحصل على مزرعة وخمسة آلاف جنيه من مضيفته ثم حرَص ألَّا يُضطر إلى انتظار وفاتها الطبيعية. ومن ثم وُئدت رغبة جرانت الخاصة في أن يحب هذا الشاب من فورها. من الآن فصاعدًا، لن يكون روبرت تيسدول بالنسبة إليه أكثر من ذبابة ذات صوت مزعج ضربها على زجاج النافذة، مصدر إزعاج تخلَّص منه بأسرع ما يمكن وبأقل قدر ممكن من الجلَبة. وإذا كان، في أعماق نفسه، يشعر بالأسف لأن الشخص اللطيف الذي بدا عليه تيسدول لم يكن موجودًا، فإن عاطفته الرئيسية والمسيطرة كانت هي الراحة من أن القضية ستُحل بسهولة. لم يكن هناك شك يُذكر في نتيجة الاجتماع. إذ إن لديهم أدلة كافية. وسيصبح لديهم المزيد قبل أن يصل إلى المحاكمة.

وافقه باركر، المأمور، وكذلك فعل المفوض. كانت قضية واضحة بما فيه الكفاية. فالرجل مُفلِس، وبلا مأوًى، وليس بيده حيلة. تلتقطه امرأة ثرية في هذه اللحظة النفسية.

وبعد أربعة أيام تكتب وصية لصالحه. وفي صباح اليوم التالي مباشرة، تذهب المرأة للسباحة في وقت مبكر جدًّا. فيتبعها بعد عشر دقائق. وعندما عُثر على جثتها كان قد اختفى. ثم يظهر مرة أخرى بقصة لا تُصدق عن سرقة السيارة وإعادتها. وقد عثر على زر أسود مشتبك في شعر جثة المرأة. كما فُقد المعطف الغامق الخاص بالرجل. ويقول إنه قد سرق قبل يومين. لكن هناك رجل شهِد أنه كان يرتديه في ذلك الصباح.

أجل، إنها قضية مكتملة الأركان بما فيه الكفاية. فهناك الفرصة، والدافع، والدليل.

الغريب في الأمر هو أن الشخص الوحيد الذي احتج على إصدار أمر القبض عليه، كان هو إدوارد تشينس.

حيث قال: «إن الجريمة بهذا الشكل وكأنها مفصلة عليه بشكلٍ مبالغ فيه، ألا تعتقد ذلك؟» وتابع: «أعني، هل هناك أي رجل في رشده يمكن أن يرتكب جريمة القتل مباشرة في صباح اليوم التالي؟»

قال باركر: «لقد نسيت، يا لورد إدوارد، أنه لو لم ينتهز هذه الفرصة الوحيدة لم يكن ليتمكن من تنفيذ جريمة القتل على الإطلاق.»

وقال جرانت: «علاوة على ذلك، كان الوقت ثمينًا بالنسبة إليه.» وتابع: «حيث لم يتبقَّ سوى أيامٍ قليلة. وسينتهي إيجار الكوخ في نهاية الشهر. وقد كان يعلم ذلك. وربما لا تذهب للسباحة مرة أخرى. وقد يسوء الطقس، أو قد تراودها الرغبة في الذَّهاب إلى المدينة. وبعبارة أكثر تحديدًا ربما لا تذهب للسباحة في الصباح الباكر مرة أخرى. لقد كان مسرح الجريمة مثاليًّا: شاطئ منعزل في الصباح الباكر للغاية، بينما يزداد الضباب. فرصة مثالية للغاية لا يجب إضاعتها.»

أجل، كانت قضية مكتملة الأركان. ومن ثم عاد إدوارد تشينس إلى المنزل في ريجنت بارك الذي ورثه مع ثروة بريمر، والذي كان يعتبره بين رِحْلاته الطويلة منزله الذي يعود إليه. وذهب جرانت إلى ويستوفر ومعه أمر القبض في جيبه.

الفصل التاسع

إذا كان هناك شيء واحد يكرهه توسيلي أكثر من أي شيء آخر فهو الشرطة. طَوال حياته كان توسيلي لا يُحجم عن الكره أبدًا. فعندما كان مساعد طاهٍ، كان يكره المتردوتيل، وعندما أصبح متردوتيل، كان يكره المدير، وعندما أصبح المدير، كان يكره العديد من الأشياء: الطاهي، والطقس الرطب، وزوجته، وشارب كبير الحمالين، والعملاء الذين يطلبون مقابلته في وقت الإفطار … أوه، أشياء كثيرة! لكنه كان يكره الشرطة أكثر من أي شيء آخر. فهي تضرُّ العمل وتضرُّ قدرته على الهضم. حيث يتوقف تدفُّق عصارته الهضمية بمجرد رؤية أحدهم يدخل من خلال الأبواب الزجاجية. كما أنه أمرٌ سيئ بما فيه الكفاية أن يتذكر فاتورته السنوية «للهدايا» التي يقدمها إلى الضباط المحليين بمناسبة العام الجديد — فقد وصل الأمر لأنه قدَّم في العام الماضي ثلاثين زجاجة من السكوتش، وثلاثين من الجن، وعشرين من الشمبانيا، وستًّا من البراندي — أما أن يعانيَ من انتهاك الضباط الذين لم تتم «مراضاتهم» بعد، ومن ثم يتعاملون بقسوة مع الطبيعة الحساسة الهشة لسمعة الفندق، فقد كان هذا أكثر مما يستطيع توسيلي بضغط دمه المرتفع ولحمه السمين أن يتحمله.

هذا هو السبب في أنه ابتسم بلطف شديد لجرانت — طَوال حياته كانت ابتسامة توسيلي تملأ وجهه رغم غضبه — وأعطاه ثاني أفضل سيجار لديه. لقد أراد المفتش جرانت مقابلة النادل الجديد، أليس كذلك؟ بالتأكيد! كانت هذه ساعة راحة للنادل — بين الغداء وشاي فترة ما بعد الظهر — ولكن ينبغي استدعاؤه على الفور.

قال جرانت: «انتظر!» وتابع: «أنت تقول إن الرجل في وقت راحته؟ هل تعرف أين يمكن أن يكون؟»

«من المحتمل جدًّا أن يكون في غرفته. الندل يحبون أن يجلسوا ويرتاحوا قليلًا، كما تفهم.»

«أودُّ أن أقابله هناك.»

«بكل تأكيد. يا توني!» نادى توسيلي على أحد العمال كان يمر أمام باب المكتب. وتابع: «خذ هذا السيد المحترم إلى غرفة النادل الجديد.»

قال جرانت: «شكرًا لك.» وأضاف: «هل ستكون هنا عندما أنزل؟ أودُّ التحدث معك.»

«سأكون هنا.» عبَّرت نبرة توسيلي عن استسلام دراماتيكي. وتعمقت ابتسامته وهو يرفع يديه. ثم قال: «الأسبوع الماضي كانت قضية طعن في المطبخ؛ فما الأمر هذا الأسبوع؟ سرقة؟ نصب؟»

«سأخبرك بكل شيء عن الأمر بعد قليل، يا سيد توسيلي.»

«سأظل هنا.» وأصبحت ابتسامته شرسة. وأضاف: «ولكن ليس لفترة طويلة، كلا! سأشتري واحدًا من تلك المطاعم حيث يضع المرء ستة بنسات في فتحة فتخرج له الوجبة. نعم. هكذا، وهكذا فقط، سأشعر بالسعادة.»

قال جرانت وهو يتبع توني إلى المصعد: «حتى في هذه الحالة، توجد عملات معدِنية مزوَّرة.»

قال وهم يمرون عبر الصالة المزدحمة: «سانجر، تعالَ معي.» وتابع: «يمكنك انتظارنا هنا، يا ويليامز. سنحضره من هذا الطريق. فهذا سيُحدث ضجة أقل بكثير من ناحية الخدم. لن يلاحظ أحد أيَّ شيء. هل السيارة تنتظر؟»

«أجل، يا سيدي.»

صعِد جرانت وسانجر في المصعد. خلال تلك الثواني القليلة من الصمت المفاجئ والأحداث المتوقفة، وجد جرانت وقتًا ليتساءل لماذا لم يُظهر أمر القبض ويخبر توسيلي بما جاء من أجله. كان من المفترض أن يكون ذلك هو التصرف الطبيعي. لماذا كان حريصًا جدًّا على الإمساك بالطائر في يده أولًا؟ هل كان ذلك مجرد دهاء أسلافه الاسكتلنديين، أم كان هناك إحساس داخلي بأن ... بأن ماذا؟ لم يكن يعلم. كان يعلم فقط أنه ما دام موجودًا هنا الآن فلا يمكنه الانتظار. يمكن أن تأتيَ التفسيرات فيما بعد. يجب أن يلقي القبض على الرجل.

كان الصوت الناعم للمصعد في الصمت يشبه صوت ارتفاع الستارة.

في أقصى الجزء العلوي من المبنى الضخم لفندق ويستوفر مارين، تقع أماكن إقامة هؤلاء الندل المقيمين: غرف فردية صغيرة تقع في صف واحد قريبة بعضُها من بعض تحت

السطح. وعندما حاول العامل بقبضة نحيلة الطرق على الباب، منعه جرانت. وقال: «حسنًا، شكرًا لك»، فاختفى العامل ومشغل المصعد في الرَّدهة العميقة المزدحمة والفاخرة، تاركين الشرطيين على بسطة خالية مفروشة ببساط رُسم عليه أشجار جوز الهند. كان المكان هادئًا للغاية هناك.

وطرق جرانت على الباب.

فطلب منه صوت تيسدول اللامبالي أن يدخل.

كانت الغرفة صغيرة جدًّا لدرجة أن جرانت ظنَّ تلقائيًّا أن الزنزانة التي تنتظره لن تحدث عليه تغييرًا كبيرًا. سرير على جانب، ونافذة على الجانب الآخر، وفي الحائط البعيد بابان للخزانة. وعلى السرير يرقد تيسدول وقد خلع سترته وترك حذاءه على الأرض. وبجواره كتاب مفتوح، ووجهه لأسفل، على الغلاف.

كان يتوقع أن يفتح الباب زميل له. بدا ذلك واضحًا. ومن ثم اتسعت عيناه عندما رأى جرانت، وبينما يوجههما نحو سانجر، الذي يقف خلف جرانت في المدخل، أدرك الموقف.

قبل أن يتكلم جرانت، قال تيسدول: «لا يمكنك أن تقصد ذلك!»

قال جرانت: «أجل، للأسف نقصد ذلك.» وتلا عليه البيان القانوني والتحذير، بينما يجلس تيسدول وأقدامه مدلاة من على حافة السرير، وهو لا يبدو أنه يستمع.

عندما انتهى، قال تيسدول ببطء: «أتوقع أن هذا هو شكل الموت عندما تقابله. نوع من الظلم الشديد ولكن لا مفرَّ منه.»

«كيف كنت متأكدًا للغاية مما أتينا من أجله؟»

«لا يحتاج الأمر لاثنين منكم للسؤال عن صحتي.» ارتفع صوته قليلًا. وتابع: «ما أريد أن أعرفه هو لماذا تقبض عليَّ؟ ما الدليل الذي لديك ضدي؟ لا يمكنك إثبات أن ذلك الزر يخصني لأنه لا يخصني. لماذا لا تخبرني بما وجدته حتى أتمكن من تفسيره أيًّا كان؟ إذا كان لديك دليل جديد يمكنك بالتأكيد أن تسألني عن تفسير. لديَّ الحق في أن أعرف، أليس كذلك؟ سواء أكان بإمكاني الشرح أم لا.»

«لا يوجد أي شيء يمكنك تفسيره، يا تيسدول. من الأفضل أن تستعد للحضور معنا.»

نهض تيسدول على قدمَيه، وما زال عقله منشغلًا في عدم تصديق ما يحدث له. وقال، وهو ينظر إلى ثوب النادل: «لا أستطيع الذَّهاب مرتديًا هذه الملابس.» وتابع: «هل يمكنني تغيير ملابسي؟»

«أجل، يمكنك التغيير، وأخذ بعض الأشياء معك.» وتفحصت يدا جرانت جيوب تيسدول في تفتيش خبير، وخرجت فارغة. فقال: «لكن عليك أن تفعل ذلك معنا هنا.

ولا تستغرق وقتًا طويلًا، هلا فعلت؟ يمكنك الانتظار هناك، يا سانجر»، وأغلق الباب، تاركًا سانجر في الخارج. هو نفسه تحرك ليتكئ على عتبة النافذة. لقد كان الارتفاع بعيدًا عن الأرض، وتيسدول، في رأي جرانت، هو من النوع الميَّال للانتحار. ليس لديه ما يكفي من الشجاعة لمواجهة الأمور. وليس لديه ما يكفي من الكبرياء، ربما، كي يتحمل تركيز الأضواء عليه بأي ثمن. بالتأكيد هو من نوع «الجميع سيأسفون عندما أموت.»

راقبه جرانت الآن باهتمام دقيق. بالنسبة إلى من يراه من الخارج، هو زائر عادي، يستند إلى النافذة بشكل عرضي بينما ينغمس في محادثة غير رسمية. وفي الواقع كان جاهزًا للطوارئ الفورية.

لكن لم يكن هناك إثارة. سحب تيسدول حقيبته من تحت السرير، وبدأ بطريقة آلية في ارتداء بنطال من الفلانيل وسترة من صوف التويد. شعَر جرانت بأنه إذا كان الرجل يحمل السُّم، فهو في مكانٍ ما في ملابس العمل الخاصة به، واسترخى قليلًا دون وعي حين نُحِّيَ ثوب النادل جانبًا. لن تصبح هناك مشكلة. فالرجل سيأتي بهدوء.

قال تيسدول: «لم يكن هناك داعٍ للقلق بشأن الطريقة التي سأعيش بها.» وتابع: «يبدو أن هناك مغزًى من هذا الإجراء غير الأخلاقي للغاية. بالمناسبة، ماذا أفعل بشأن الاستعانة بمحامٍ بينما لا أملك مالًا ولا أصدقاء؟»

«سنوفر لك محاميًا.»

«محامٍ ضعيف الإمكانيات. فهمت.»

ومن ثم فتح دولابًا بالقُرب من جرانت، وبدأ يأخذ الملابس من على الشماعات ويطويها داخل حقيبته.

وقال بعد بُرهة، كما لو كانت الفكرة قد طرأت على ذهنه: «هل يمكنك على الأقل أن تخبرني ما هو دافعي لارتكاب الجريمة؟» ثم أضاف: «يمكن أن تخطئ في تحديد الأزرار؛ ويمكن افتراض أن الزر يخصُّ معطفًا ما وهو لا يخصه على الإطلاق؛ لكن لا يمكنك اختلاق دافع وهو غير موجود بالأساس!»

«إذن هل تدعي أنه لم يكن لديك دافع؟»

«بكل تأكيد. لم يكن لديَّ دافع. إنَّ ما حدثَ في صباح يوم الخميس الماضي كان أسوأ شيء حدثَ لي في حياتي. ظننت أن هذا واضح حتى لشخص غريب.»

«وبالطبع ليس لديك أيُّ فكرة أن الآنسة كلاي كتبت ملحقًا تكميليًّا لوصيتها تمنحك بموجبه مزرعة ومبلغًا كبيرًا من المال.»

كان تيسدول يطوي إحدى قطع الملابس. فتوقف الآن، بينما لا تزال يداه تمسك بالقطعة، ولكن دون حَراك، وهو يُحدِّق في جرانت.

وقال: «كريس فعلت ذلك!» وتابع: «كلا. كلا، لم أكن أعلم. يا له من تصرُّف مدهش!»

وللحظةٍ ساورَ الشك جرانت. لقد كان ردُّ فِعله طبيعيًّا للغاية. في التوقيت، والتعبير، والتصرف. لا يوجد ممثل محترف يمكن أن يصدر عنه رد الفعل هذا على نحوٍ أفضل من ذلك. لكن الشك زال. وعدل من وضع قدميه، وهو يهز نفسه، بينما يتذكر جاذبية وبراءة بعض القتلة الذين حقق في قضاياهم من قبل (أندرو هامي، الذي تخصص في الزواج من النساء ثم إغراقهن، وكان يبدو مثل عازفٍ منفرد في فرقة غنائية، وآخرين ممن هم أكثر جاذبية وشرًّا) ثم أراح ذهنه بالهدوء الذي ينتج عند إلقاء مفتش شرطة القبض على قاتل كان يتتبعه.

«إذن فقد كشفت عن الدافع المثالي. كريس المسكينة! لقد ظننت أنها تُسدي إليَّ معروفًا. هل لدي أيُّ حُجةٍ للدفاع على الإطلاق؟»

«لست أنا من يقرر هذا.»

«أنا أُكنُّ لك احترامًا كبيرًا، أيها المفتش جرانت. وأظن أنه من المحتمل ألا أستطيع إثبات براءتي على المشنقة.»

ودفع باب الدولاب الأقرب إليه، ثم فتح الباب الأبعد عنه. فانفتح الباب بعيدًا عن جرانت، بحيث أصبح ما داخل الدولاب غير مرئي. «لكنك خيبت ظني من ناحية أخرى. لقد ظننت أنك على دراية أفضل بعلم النفس. عندما كنت أخبرك بقصة حياتي في صباح يوم السبت، ظننت حقًّا أنك أكثر عدلًا من أن تعتقد أني قد ارتكبت الجريمة التي تتهمني بها. والآن اكتشفت أنك مجرد شرطي تقليدي.»

وبينما هو ما زال يمسك بمقبض الباب، انحنى إلى داخل الدولاب كما لو كان سيلتقط حذاءً من على أرضيته.

وصدر صوت صرير مفتاح يُنتزَع مِن قُفْله، وأغلق باب الدولاب، وبينما يندفع جرانت نحوه أغلق المفتاح من الداخل.

فصاح قائلًا: «تيسدول!» وتابع: «لا تكن أحمق! هل تسمعني؟!» سارع عقله للتفكير في الترياق المناسب للعديد من السموم. أوه، يا إلهي، يا له من أحمق! «سانجر! ساعدني كي أكسر هذا الدولاب وأفتحه. لقد أغلق على نفسه من الداخل.»

حاول الرجلان كسر الباب تحت تأثير وزنيهما مجتمعين. لكنه قاوم جهودهما.

قال جرانت وهو يلهث: «أصغِ إلي، يا تيسدول، إن السُّم هو خدعة الحمقى. سنخرجك من هنا بسرعة كافية كي تحصل على الترياق، وكل ما سيحدث هو أنك ستعاني آلامًا رهيبة بلا داعٍ. لذا فكر في الأمر على نحو أفضل من ذلك!»

لكن ما زال الباب يقاوم جهودهما لكسره.

فقال جرانت: «أحضر فأس الحريق!» وتابع: «لقد رأيته عندما صعِدنا. على الحائط في نهاية الممر. أسرع!»

هُرع سانجر وعاد بالفأس بعد ثماني ثوانٍ.

وبعد أن سقطت أول ضربة على الدولاب، ظهر من الغرفة المجاورة أحد زملاء تيسدول وهو نصف نائم ونصف عارٍ وقال: «أنتم تصنعون ضوضاء مثل الشرطة!»

وأضاف، بعد أن رأى الفأس في قبضة سانجر: «توقف!» وتابع: «ماذا تظن نفسك فاعلًا؟»

«ابتعد، أيها الأحمق! هناك رجل في هذا الدولاب يحاول الانتحار.»

«الانتحار! دولاب!» فرك النادل شعره الأسود في حَيرة، مثل طفل نصف نائم. وقال: «هذا ليس دولابًا!»

«ليس دولابًا!»

«أجل، هذا ما يمكن أن تُسمِّيه … سُلمًا خلفيًّا صغيرًا. من أجل الحريق.»

قال جرانت: «يا إلهي!» واقترب بسرعة من الباب.

ثم قال للنادل: «إلى أين يؤدي … السُّلم؟»

«إلى الممر المؤدي للبهو الأمامي.»

قال جرانت لسانجر: «إننا في الدور الثامن.» وتابع: «المصعد أسرع.» ثم أضاف، محاولًا طمأنة نفسه: «ويليامز سيوقفه إذا حاول الخروج من الباب.»

«إن ويليامز لم يره من قبل، يا سيدي. حسبما أظن.»

استخدم جرانت كلمات كان قد نسيها منذ أن توقَّف عن التخييم في فرنسا.

«هل يعرفه الرجل الذي في الخدمة عند البوابة الخلفية؟»

«أوه، أجل، يا سيدي. هو هناك من أجل هذا، كي يوقفه. لكن السيرجنت ويليامز كان في انتظارنا فقط.»

خذلت الكلمات جرانت تمامًا.

وظهر المِصعد.

وبعد ثلاثين ثانية أصبحا في البهو.

فأنبأهم الأمل المبتهج الذي ارتسم على وجه ويليامز الوردي بأسوأ ما كانا يتوقعان. فويليامز بالتأكيد لم يستوقف أيَّ أحد.

كان الناس يأتون، ويغادرون، ويذهبون لشرب الشاي في المطعم، ويأكلون المثلجات في الرَّدهة المشمسة، ويشربون في الحانة، ويتقابلون ويذهبون لشرب الشاي في مقهى ليونز — كان بهو فندق مارين أمريكيًّا من حيث تنوُّع رواده. وكي يمكن تمييز شخص وسط هذا التجمع يجب أن يقف على يديه ويسير على هذا النحو.

قال ويليامز إن شابًّا ذا شعر بني، بدون قبعة ويرتدي جاكت من صوف التويد وبنطلون من الفلانيل قد خرج منذ خمس دقائق. في الواقع، هناك شخصان ممن لهما نفس المواصفات قد خرجا.

«شخصان! تقصد معًا!»

كلا، قصد ويليامز أن شخصَين غير مترافقَين ممن لهم نفس المواصفات قد خرجا خلال الدقائق الخمس الماضية. وإذا كان هذا ما يتم البحث عنه، فها هو شخص آخر.

أجل، ها هو آخر. وعند رؤيته، امتلأ جرانت بيأسٍ استشرى من قدميه لأعلى جسده مثل موجة تضربه وتُغرقه بالكامل. أجل، بالفعل قد يكون هناك آخرون. في كنت وحدها في هذه اللحظة هناك عشرة آلاف شخص ممن تنطبق أوصاف تيسدول عليهم.

استجمع جرانت رباطة جأشه وتوجَّه للمهمة المزعجة الخاصة بفرض حصار من الشرطة حول المكان.

الفصل العاشر

كان هذا أكبر سبق صحفي في حياة جامي هوبكينز. حيث ظهرت الصحف الأخرى في ذلك المساء وبها صور مروعة للحشد الذي حضر جنازة كلاي في جولدرز جرين — برءوس تُشبه وحش ميدوسا، في صور مقربة، وهم يصرخون في وجه الكاميرا: كأرواح منتقمة شعثاء بأفواه مفتوحة يهاجمون بعضهم البعض في كراهية مطلقة — وظنت الصحف بذلك أنها أحسنت صنعًا. فلم يكن هناك في ذلك اليوم، بكل تأكيد، ما يعادل أهمية جنازة كلاي. وقد أجاد مصوروهم عملهم بدرجة كبيرة. ومن ثم جاز لهم أن يشعروا بالبهجة.

لكن لم يذهب هباءً تتبُّع هوبكينز لجرانت من شارع ويجمور، إلى مقر أورينت أوفيسز، ومن أورينت أوفيسز إلى تيمبل، ومن تيمبل إلى سكوتلاند يارد. ولم يذهب هباء انتظاره على الناصية بينما يراقب الشخص الذي استعان بخدماته سكوتلاند يارد إلى أن منحه إشارة عندما غادر جرانت سكوتلاند يارد. ولم يذهب هباءً تَتبُّعه له طَوال الطريق إلى ويستوفر.

حملت صحيفة «سنتينل» عنوان «قتل كلاي.» «قتل كلاي: القبض على القاتل!» وتجمهر الناس حول بائعي الصحف المتحمسين. وفي مقرات الصحف الأخرى ساد حنَقٌ بالغ، وسرَت شائعات عن تسريح بعض المحررين من العمل. وعبثًا جرى التوضيح لرؤساء التحرير الحانقين أن إدارة سكوتلاند يارد قد قالت إنها ستُبلغهم حالما تصبح هناك أخبار يمكن نشرها. فكان رد رؤساء التحرير: ولماذا تدفع لهم رواتبهم؟ هل لكي يجلسوا في انتظار أن يجري استدعاؤهم، ليبلغوا بمعلومات رسمية مقتضبة لا قيمة لها؟ ماذا يظنون أنفسهم؟ موظفو نقل؟

لكن جامي قُدِّر تقديرًا بالغًا من قِبل مديريه الذين يُوقِّعون على شيك راتبه. حيث أقام في غرفة في فندق مارين — أكثر فخامةً من غرفة جرانت، الذي أقام في غرفة هناك

ولكن كان عليه أن يقضيَ أغلب حياته في المستقبل القريب في قسم الشرطة — وشكر الله الذي قدر مثل هذه النهاية الدراماتيكية لكريستين كلاي.

أمَّا بالنسبة إلى جرانت فقد كان يجابه عاصفةً من المعلومات، كما كان يتوقع. فبحلول ظهر يوم الثلاثاء كان تيسدول قد شوهد في كل ركن من إنجلترا وويلز، وعند موعد تناول الشاي بدأت مشاهدته في اسكتلندا. كما شوهد وهو يصطاد السمك من فوق جسرٍ على جدول في يوركشاير وقد أسدل قبعته فوق وجهه على نحوٍ مريب حينما اقترب منه المُبلِّغ. وشوهد وهو يخرج من السينما في أبريستويث. وقد استأجر غرفة في لينكولن وغادر دون سداد ثمنها. (لاحظ جرانت، تَكرار معلومة أنه قد غادر دون سداد ما عليه في كثير من البلاغات.) وقد طلب اصطحابه في رحلة على متن قارب في لويستوفت. (وقد طلب اصطحابه في رحلة على متن قارب في العديد من الأماكن الأخرى. إن عدد البلاغات عن شباب لم يسددوا ثمن الغرفة لصاحباتها ويريدون مغادرة البلاد كان يدعو للقلق.) كما عُثر عليه ميتًا في مستنقع بالقرب من بينريث. (شغل هذا البلاغ وقت جرانت طَوال فترة ما بعد الظهر.) وقد عثر عليه ثملًا في أحد أزقة لندن. كما اشترى قبعة في هايث، وجرانثام، لويس، تونبريدج، دورتشستر، أشفورد، لوتن، إيلزبري، ليستر، تشاتام، إيست جرينستيد، وفي أربعة متاجر في لندن. واشترى علبة دبابيس مشبك في سوان وإدجارز. وتناول شطيرة كابوريا في كشك للوجبات السريعة في شارع أرجايل، وتناول كعكتين وفنجان قهوة في متجر للمخبوزات بهيستينجز، وخبزًا وجُبنًا في فندق هايواردز هيث. وقد سرق كل ما يمكن تخيُّله في كل مكان يمكن تخيله — بما في ذلك قارورة من متجر خزف وزجاج في كرويدون. وعندما سئل المبلغ لماذا قد يريد تيسدول قارورة، قال إنها قد تستخدم كسلاح.

وجرى تلقي البلاغات عبر ثلاثة خطوط تليفونية ظلت ترن بجنون، وعبر البريد، والبرقيات، واللاسلكي، وبالحضور شخصيًّا لقسم الشرطة. وكانت نسبة تسعين بالمائة منها عديمة الجدوى، لكن كلًّا منها تستوجب الاستماع: وبعضها يتطلب الكثير من التحريات قبل أن يتضح عدم جدواها. نظر جرانت نحو كومة البلاغات المتراكمة، وفقد السيطرة على نفسه قليلًا.

وقال: «هذا ثمن باهظ أدفعه مقابل افتقاد التفكير السليم للحظة.»

فقال ويليامز: «ابتهج، يا سيدي.» وتابع: «كان من الممكن أن يسوء الأمر أكثر.»

«كان من الممكن أن يسوء الأمر أكثر! هل تخبرني ما هو الحدث الذي، في رأيك، قد يزيد الموقف سوءًا؟»

«أوه، حسنًا، حتى الآن لم يأتِ أي مخبول ليعترف بارتكابه الجريمة، ويضيع وقتنا بهذه الطريقة.»

لكن المخبول جاء في الصباح التالي.

رفع جرانت عينيه من على مِعطفٍ مُبلَّل أُحضر إليه للتو وكان يفحصه، ليرى ويليامز يُغلق الباب بغموض ويتقدم نحوه بغموض.

فسأله بحدَّة نتجت عن توقع الأسوأ: «ما الأمر، يا ويليامز؟»

قال ويليامز: «الشخص المخبول.»

«ماذا؟»

قال ويليامز: «الشخص الذي سيعترف، يا سيدي.» وقد اعترت صوته نبرة بها مسحة من الشعور بالذنب، كما لو كان يشعر بأنه قد جلب الشر عندما ذكر هذا الأمر بالأمس.

تأوَّه جرانت.

«ليس من النوع المعتاد مطلقًا، يا سيدي. مثير للاهتمام حقًّا. ومتأنق للغاية.»

«من الداخل أم من الخارج؟»

«أوه، أعني، ملابسها، يا سيدي.»

«ملابسها! هل هي امرأة؟»

«أجل، إنها سيدة راقية، يا سيدي.»

قال: «أدخلها.» وتأجج الغضب بداخله. كيف تجرؤ أنثى مخبولة على تضييع وقته كي تُرضي رغبتها المنحرفة الفاسدة.

فتح ويليامز الباب على مِصراعيه وأدخل امرأة أنيقة متألقة.

واتضح أنها جودي سلرز.

لم تَقُل شيئًا، لكنها دخلت إلى الحجرة ببطء عابس. ورغم أنه فوجئ برؤيتها، اعتقد جرانت أنها وقحة للغاية رغم مظهرها الخارجي الأنيق. كان هذا الإحساس بالامتعاض من العالم بوجه عام ومن مصيرها بوجه خاص مألوفًا للغاية بالنسبة إليه.

فسحب كرسيًّا في صمت. يمكن لجرانت أن يُصبح مخيفًا للغاية.

ثم قال: «حسنًا، أيها السيرجنت، ليست هناك حاجة إلى أن تبقى.» وبعد ذلك، وجه حديثه إلى جودي بينما يغادر ويليامز: «ألا تعتقدين أن هذا غير عادل بعض الشيء، يا آنسة سلرز؟»

«غير عادل؟»

«أنا أعمل ثلاثًا وعشرين ساعة في الأربع والعشرين، في عمل هام للغاية، وأنت تجدين أنه من المناسب تضييع وقتي من خلال اعتراف زائف.»

«إنه ليس زائفًا.»

«إنه زائف للغاية لدرجة أنني أودُّ أن أدعوك للانصراف الآن، دون كلمة واحدة أخرى.»

أوقفت تحركه نحو الباب. حيث قالت: «لا يمكنك فعل هذا. سأذهب إلى قسم شرطة آخر وأعترف وسيرسلونني إليك ثانيةً. لقد ارتكبت الجريمة، هل تفهم!»

«أوه، كلا، لم ترتكبيها.»

«ولمَ لا؟»

«لسبب واحد، أنتِ لم تكوني بالقرب من المكان.»

«كيف تعرف أين كنت؟»

«لقد نسيتِ أنه في سياق الحديث ليلة السبت كان من الواضح أنكِ كنتِ في ليلة الأربعاء في منزل الآنسة كيت في تشيلسي.»

«لقد كنت هناك من أجل حفلة كوكتيل. وانصرفت مبكرة لأن ليديا كانت ذاهبةً إلى حفل عبر النهر.»

«حتى وإن كان الأمر كذلك، هذا يجعل من غير المحتمل أن تستطيعي الوجود على شاطئ بالقرب من ويستوفر بعد الفجر بوقت قصير في صباح اليوم التالي.»

«من السهل للغاية أن أكون موجودة في شمال إنجلترا في صباح اليوم التالي. لقد قدت سيارتي إلى هناك إذا أردت أن تعرف. يمكنك أن تجريَ تحرياتك في شقتي. وستخبرك الفتاة التي أعيش معها أنني لم أعد إلى المنزل إلا في وقت الغداء يوم الخميس.»

«هذا لا يثبت البتة أنك كنت تقتلين.»

«ورغم ذلك، كنت أفعل. لقد قدت سيارتي إلى شاطئ جاب، واختبأت في الغابة، وانتظرت حتى جاءت لتسبح.»

«وكنت، بالطبع، ترتدين معطف رجل أليس كذلك؟»

«أجل، رغم أني لا أعرف كيف علمت. لقد كان الجو باردًا وأنا أقود السيارة، فارتديت معطف أخي الذي وجدته في السيارة.»

«هل ارتديتِ المِعطف وأنتِ على الشاطئ؟»

«أجل. لقد كان الجو باردًا للغاية. وأنا لا أحب السباحة عند الفجر.»

«ذهبت للسباحة!»

«بالطبع. لم يكن بإمكاني أن أغرقها من على الشاطئ، أليس كذلك؟»

«وهل تركت المعطف على الشاطئ؟»

قالت باستهزاء واضح: «أوه، كلا.» وتابعت: «لقد ذهبت للسباحة فيه!»

وتنفس جرانت الصعداء في ارتياح. لقد ساوره الخوف للحظة.

«إذن فقد استبدلت ثيابك وارتديت ثوب السباحة، وذهبت إلى الشاطئ وأنت ترتدين معطف أخيك، ثم ... ماذا حدث بعد ذلك؟»

«كانت تسبح على مسافة بعيدة. فنزلت، وسبحت حتى وصلت إليها وأغرقتها.»

«كيف؟»

«لقد قالت: «مرحبًا، يا جودي.» فقلت: «مرحبًا.» فلكمتها لكمة خفيفة في الذقن. علمني أخي كيف ألكم شخصًا في ذقنه، بحيث يفقد اتزانه. ثم غطست تحتها وجذبتها من كعبها نحو الأعماق حتى غرقت.»

قال جرانت: «بارع للغاية.» وتابع: «لقد فكرت في كل الجوانب، أليس كذلك؟ هل اخترعت لك دافعًا على ارتكاب الجريمة أيضًا؟»

«أوه، أنا فقط لم أَكُن أحبها. أو بالأحرى، كنت أكرهها. نجاحها ومظهرها واستقلالها. لقد أصبحت مصدر إزعاج لي حتى لم أعد قادرة على احتمالها ليوم آخر.»

«فهمت. لكن هل يمكنك تفسير لماذا، بعد أن أنجزت الجريمة الكاملة على نحو عملي، توجب عليك أن تأتيَ بهدوء إلى هنا وتضعي حبل المشنقة حول رقبتك؟»

«لأنك اعتقلت شخصًا آخر لارتكاب الجريمة.»

«هل تقصدين بسبب قبضنا على روبرت تيسدول. هذا يفسر كل شيء. والآن بعد أن أضعت بعض الدقائق الثمينة من وقتي، يمكنك أن تعوضيني وتردي اعتبار نفسك في الوقت نفسه، عن طريق إخباري بما تعرفينه عن تيسدول.»

«لا أعرف عنه شيئًا. عدا أنه آخر شخص في العالم يمكنه ارتكاب جريمة. لأي سبب.»

«إذن أنتِ تعرفينه حق المعرفة، أليس كذلك؟»

«كلا. بالكاد أعرفه.»

«ألم تكونا ... صديقين؟»

«كلا، ولا عاشقَين، إذا كان هذا ما تحاول قوله. إن بوبي تيسدول لم يكن يعتبرني موجودة على قيد الحياة، إلا كي يناولني كوكتيل.»

تغيرَت نبرة جرانت. وقال بلطفٍ شديد: «ورغم ذلك أنت على استعداد للتمادي إلى هذا الحد لإخراجه من هذه الورطة؟»

ازداد استياؤها إزاء هذا اللطف. وقالت: «إذا ارتكبت جريمة قتل ألن تعترف بها لإنقاذ شخص بريء؟»

«هذا يتوقف على إلى أي مدى أظن أن الشرطة ساذجة. لقد قللت من تقييمك لقدراتنا، يا آنسة سلرز.»

«أظن أنكم مجموعة من الحمقى. لقد اتهمتم رجلًا بريئًا. وانشغلتم بمطاردته حتى الموت. وترفضون الإنصات لاعتراف سليم تمامًا عندما يقدم إليكم.»

«حسنًا، أتدرين، يا آنسة سلرز، هناك دائمًا أمور عن القضايا تعلمها الشرطة فقط ولا يمكنك معرفتها من خلال الصحف. إن الخطأ الذي وقعت فيه هو أنك نسجت خيوط قصتك عبر الاستعانة بمقالات الصحف. هناك أمر واحد لم تعرفيه. وأمر واحد نسيتِه.»

«ماذا نسيت؟»

«أنه لا أحد كان يعلم أين تقيم كريستين كلاي.»

«القاتل كان يعلم.»

«أجل. هذا مقصدي. والآن ... أنا مشغول للغاية.»

«إذن فأنت لا تصدق كلمة مما قلت.»

«أوه، كلا. أنا أصدق الكثير مما قلته. لقد كنتِ خارج المنزل طَوال ليلة الأربعاء، وعلى الأرجح ذهبت للسباحة، وعدت إلى المنزل عند موعد الغداء يوم الخميس. لكن كل ذلك لا يجعلك مدانة بارتكاب جريمة قتل.»

نهضت، بنفس الطريقة المتراخية العنيدة، وأخرجت أحمر الشفاه الخاص بها. ثم قالت بتأنٍّ وهي تَطلي شفتيها: «حسنًا، بعد أن فشِلت في محاولتي الصغيرة لتحقيق الشهرة، أظن أنني يجب أن أستمر في لعب دور الشقراء البلهاء لبقية حياتي. إنه لأمر جيد أنني اشتريت تذكرة ذَهاب وعودة.»

قال جرانت، وهو يبتسم ابتسامة باهتة بينما يفتح لها الباب: «أنت لن تخدعيني.»

قالت مندفعة: «حسنًا، إذن، ربما أنت محق في ذلك، وسُحقًا لك على أي حال.» ثم تابعت وهي تخرج: «لكنك مخطئ في اتهامه بارتكاب الجريمة. مخطئ لدرجة أن سمعتك ستتأثر قبل أن تنتهيَ هذه القضية.»

وتجاوزت ويليامز المذهول واثنين من الموظفين واختفت.

قال ويليامز: «حسنًا، هذه هي الأولى. إن البشر في غاية الغرابة، أليس كذلك يا سيدي؟ أتعلم، إذا أعلنَّا أن المعطف الذي نبحث عنه به زر مفقود، فسيقطع بعض الأشخاص أزرارًا

من معاطفهم ويحضرونها إلى هنا. بدافع التسلية فقط. كما لو أن الأمور ليست صعبة بما فيه الكفاية بدون ذلك. إنها ليست من النوع المعتاد، رغم ذلك، أليس كذلك يا سيدي؟»

«أجل. ما رأيك فيها يا ويليامز؟»

«ممثلة خفيفة. تبحث عن الدعاية للمساعدة في حياتها المهنية. ذات شخصية قوية.»

«كل ذلك خطأ. ممثلة قوية جدًّا. تكره حياتها المهنية. رقيقة القلب لدرجة التضحية بنفسها.»

بدا ويليامز محبطًا قليلًا. وقال مذكرًا جرانت: «بالطبع، لم تُتَح لي الفرصة للتحدث معها.»

«أجل. بناء على المظهر فإن استنباطك لشخصيتها جيد، يا ويليامز. أتمنى أن أتمكن من استنباط هذه القضية بالجودة نفسها.» ومن ثم جلس ومرَّر أصابعه عبر شعره. وقال: «ماذا كنت ستفعل، يا ويليامز، بمجرد أن تتمكن من الهرب من فندق مارين؟»

أدرك ويليامز أنه من المفترض أن يضع نفسه في موضع تيسدول.

«كنت سأستقل حافلةً مزدحمة إلى مكانٍ ما. أول ما قد أعثر عليه. وأنزل مع حشد من الآخرين، وأنطلق كما لو كنت أعرف إلى أينٍ أنا ذاهب. في الواقع، أينما ذهبت، فعليَّ أن أبدوَ كما لو أنني أعرف إلى أين أنا ذاهب.»

«ثم ماذا؟»

«ربما سأُضطر إلى ركوب حافلة أخرى للابتعاد عن المدن الكبرى.»

«سوف تخرج من المناطق السكنية، أليس كذلك؟»

قال ويليامز، مندهشًا: «بالتأكيد!»

«يسهل تمييز المرء في المناطق الريفية المكشوفة.»

«هناك غابات. في الواقع، قد تُخفي بعض الغابات في هذا الجزء من العالم رجلًا إلى أجلٍ غير مُسمًّى. وإذا وصل رجل إلى أقصى الغرب عند غابة أشداون، فسيتطلب الأمر نحو مائة رجل لتمشيط أشداون بشكل صحيح.»

هزَّ جرانت رأسه. «أهناك طعام؟ أهناك مأوًى؟»

«يمكنه النوم في العراء. إنه طقس دافئ.»

«إنه هارب منذ ليلتين الآن. إذا كان قد ذهب إلى الريف، فلا بدَّ أن مظهره قد أصبح مزريًا الآن. ولكن هل ذهب؟ هل لاحظت أن أحدًا لم يُبلغ أنه شاهده يشتري ماكينة حلاقة؟ هناك احتمال أن يكون مختبئًا عند أصدقاء له. إني أتساءل ...» شردت عيناه إلى الكرسي

حيث كانت جودي جالسة. وتابع: «لكن لا! لن تخاطر أبدًا بخدعة كبيرة كهذه. لا داعي لها.»

تمنى ويليامز أن يذهب جرانت إلى الفندق وينام بعض الوقت. فهو يتحامل على نفسه كثيرًا لفشله في القبض على تيسدول. إن الأخطاء تحدث لأفضل الناس، ويعلم الجميع أن جرانت مفتش جيد. وإدارة سكوتلاند يارد تدعمه. لماذا يجلد نفسه بشأن شيء قد يحدث لأي شخص؟ وهناك واحد أو اثنان ممن يصطادون في الماء العكِر بالطبع — الأشخاص الطامعون في وظيفته — لكن لا أحد يعير أمثالهم انتباهًا. حيث يعرف الجميع ما يصبون إليه. إن جرانت مفتش جيد، والجميع يعرف ذلك. لذا من السخف أن ينزعج كل هذا الانزعاج بسبب زلة صغيرة.

إذا كان من الممكن القول إن قلب الشرطي يتألم، فإن قلب ويليامز القوي يتألم من أجل مديره.

قال جرانت، مشيرًا إلى المعطف: «يمكنك التخلص من هذا الشيء المثير للاشمئزاز. إن عمره عشرون عامًا، على الأقل، وليس به زر واحد خلال العشرة الأواخر. هذا شيء يحيرني، كما تعلم، يا ويليامز. كان معه عند الشاطئ، وأصبح مفقودًا عندما عاد. كان عليه أن يتخلص من ذلك المعطف في مكان ما عبر طريقه. إنه ليس طريقًا طويلًا للغاية، في واقع الأمر. ولم يكن هناك وقت ليذهب بعيدًا عنه. ولا بدَّ أنه كان قلقًا جدًّا كي يعود ويتلاشى خطؤه في الهروب. ومع ذلك لم نعثر على المعطف. بركتا بط، كلتاهما ضحلتان، جرى البحث فيهما على نحو جيد. ثلاثة جداول ماء لا يمكنها أن تُخفيَ عملة معدنية واحدة ولن يطفوَ عليها قارب ورقي. كما فتشنا المصارف، وجدران الحدائق من الجانب الآخر، وخميلتين صغيرتين. ولم نجد شيئًا! ماذا فعل به؟ ماذا ستفعل به لو كنت في مكانه؟»

«أحرقه.»

«ليس هناك وقت كافٍ. كما أنه رطب أيضًا. مبتل للغاية، على الأرجح.»

«أطبقه إلى حجم صغير وأخفيه بين أغصان شجرة. إن الجميع ينظر نحو الأرض بحثًا عن الأشياء.»

«ويليامز، أنت مجرم بالفطرة. أخبر سانجر بنظريتك واطلب منه التحقيق فيها هذا المساء. أفضل العثور على ذلك المعطف أكثر من العثور على تيسدول. في الواقع، لا بدَّ أن أحصل على ذلك المعطف!»

«بالحديث عن ماكينات الحلاقة، هل تظن أنه ربما، أخذ معه ماكينة الحلاقة الخاصة به، يا سيدي؟»

«لم أفكر في ذلك. لم أظن أنه يتمتع بحضور الذهن. لكن أنا لم أظن أيضًا أنه ستواتيه الجرأة الكافية كي يهرب. لقد ركزت على الانتحار. أين متعلقاته؟»

«لقد تَحفَّظ عليها سانجر هنا في الحقيبة. كل شيء يخصه.»

«هل تأكدت مما إذا كانت ماكينة الحلاقة موجودة؟ من الجيد أيضًا معرفة ما إذا كان قد حلق ذقنه أم لا.»

لم تكن هناك ماكينة حلاقة.

قال جرانت: «عجبًا! من كان يتوقع ذلك؟ يشغل انتباهي وهو يقول: «لقد خيبت ظني، أيها المفتش»، وفي الوقت نفسه يضع ماكينة الحلاقة في جيبه بهدوء، ويرتب لهروبه بينما المحقق الأحمق يراقبه. أنا مخطئ تمامًا بشأن هذا الفتى، أيها السيرجنت. مخطئ للغاية. لقد ظننت في البداية، عندما أخذته من جلسة التحقيق أنه واحد من هذه المخلوقات العفوية الهستيرية. ثم بعد أن علمت بالوصية، غيرت رأيي. ورغم ذلك، ظللت أعتقد أنه «شخص مسكين». والآن بعد اكتشاف أنه كان يخطط للهروب أمام عيني — ونجح في ذلك! ليس تيسدول هو من أخفق، بل أنا!»

قال ويليامز بحماس: «هوِّن على نفسك، يا سيدي. لقد فارقنا الحظ في الوقت الحالي. لكن بيني وبينك، ولا أحد غيرنا، أقسم على ذلك، سوف نضع هذا المتوحش ذا الدم البارد في المكان الذي ينتمي إليه»، بينما هو لا يعلم أن الشخص الذي من المفترض أن يصبح وسيلةً لتقديم قاتل كريستين كلاي إلى العدالة هو امرأة ضئيلة ساذجة في كانساس سيتي لم تسمع بأي منهما من قبل.

الفصل الحادي عشر

ضغطت إريكا على المكابح بشدة وأوقفت سيارتها الصغيرة ذات النوع الرديء. ثم أرجعتها للخلف بضع ياردات، وتوقفت مرة أخرى. وتفقدت باهتمام نعل حذاء رجل، يظهر وسط العشب والنباتات، ثم راقبت المرج الخالي المتسع والممر الطباشيري الذي يبلغ طوله ميلًا والذي تحده الزهور التي تتألق في ضوء الشمس.

وقالت: «يمكنك الخروج. لا يوجد أحد على مرمى البصر لأميال.»

اختفى نعل الحذاء وظهر وجه رجل مندهش من بين الشجيرات.

قالت إريكا: «هذا مصدر ارتياح كبير لي. اعتقدت للحظة أنك قد مت.»

«كيف عرفت أنه أنا؟ أظن أنك عرفت أنه أنا؟»

«أجل. هناك علامة متموجة غريبة على نعل حذائك عند مشط القدم، حيث وضع عليها السعر. لقد لاحظتها عندما كنت مستلقيًا على أرضية مكتب والدي.»

«أوه، أجل، هذه طبيعتك فعلًا. أنت محققة بارعة للغاية.»

«وأنت هارب سيئ للغاية. لا يمكن لأحد أن يخطئ في التعرف على قدمك.»

«أنتِ لم تمنحيني الكثير من الوقت. لم أسمع صوت سيارتك حتى كادت تدهسني.»

«لا بدَّ أنك أصم. إنها مثار سخرية المقاطعة، سيارتي تيني المسكينة. مثل قبعة ليدي ميدلواي ومجموعة أصداف السيد داين العجوز.»

«هل اسم سيارتك تيني؟»

«أجل. لقد اعتدت أن أسميها كريستينا، لكن حدث ما لا مفر منه. من غير المعقول أنك لم تسمع صوت محركها.»

«أعتقد أنني ربما كنت نائمًا لدقيقة أو دقيقتين. أنا ... أنا لم أنم منذ فترة.»

«أجل، أتوقع ذلك. هل أنت جائع؟»

«هل هذا مجرد سؤال أكاديمي، أم ... أم أنك تعرضين عليَّ الطعام؟»

وصلت إريكا إلى الجزء الخلفي من السيارة وأخرجت نصف دستة من الكعك الملفوف، ولحمًا معلبًا، ونصف رطل من الزُّبدة، وأربع حبات طماطم.

قالت، وهي تناوله علبة اللحم: «لقد نسيت فتاحة الغطاء، لكن إذا ضربت الغطاء بقوة باستخدام حجر صوَّان، فسيُحدث ثقبًا.» ثم قسمت الكعكات بسكين صغير أخرجته من جيبها وبدأت في دهنها بالزبدة.

سأل في شك: «هل تحملين الطعام معك دائمًا؟»

«أوه، دائمًا. أنا شخص جائع جدًّا. إلى جانب ذلك، غالبًا ما لا أوجد في المنزل من الصباح حتى الليل. ها هي السكين. اقطع قطعة كبيرة من اللحم وضعها على هذه.» ناولته الكعكة المدهونة بالزبدة. ثم قالت: «أريد استعادة السكين كي أقطع الكعكة الأخرى.»

ومن ثم فعل ما طُلب منه، وشغلت نفسها بالسكين مرة أخرى، وتجاهلته بأدب حتى لا يُضطر إلى التظاهر باللامبالاة التي يَصعُب تحقيقها.

وقال بعد برهة: «أظنكِ تعلمين أن كل هذا خطأ كبير؟»

«لماذا هو خطأ؟»

«لسبب واحد، أنتِ تساعدين مجرمًا هاربًا، وهذا خطأ في حد ذاته، وهو خطأ مضاعف بسبب وظيفة والدك. وسبب آخر — وهذا أسوأ بكثير — إذا كنتُ مجرمًا مثلما يعتقدون فأنتِ في خطرٍ داهم في هذه اللحظة. لا يجب أن تفعلي أشياء من هذا القبيل، كما تعلمين.»

«إذا كنتَ قاتلًا، فلن يساعدك كثيرًا أن ترتكب جريمة أخرى لمجرد منعي من قول إنني رأيتك.»

«إذا ارتكب المرء جريمة قتل، فأعتقد أنه لن يتورع عن ارتكاب أخرى. فهو لن يُشنق سوى مرة واحدة فقط. إذن، فأنت تعتقدين أنني لم أرتكب هذه الجريمة؟»

«أنا متأكدة من أنك لم تفعل.»

«ما الذي يجعلك على يقين من ذلك؟»

«أنت غير قادر على ذلك.»

قال بامتنان: «شكرًا لك.»

«لم أقصد ذلك بهذه الطريقة.»

«أوه! أوه، فهمت.» ثم افترَّ ثغرُه عن ابتسامة. وقال: «إنه أمر مُربِك لكنه مشجع. هل القديس جرجس هو أحد أسلافك؟»

«القديس جرجس؟ أوه. كلا. كلا، يمكنني أن أقول الأكاذيب على أفضل نحو.»

«سيتوجب عليك ذلك الليلة. إلا إذا كنت سوف تتخلين عني.»

قالت، متجاهلة النصف الأخير من ملاحظته: «لا أعتقد أن أحدًا سوف يستجوبني على الإطلاق. بالمناسبة، لا أعتقد أن اللحية تليق بك.»

«إنها لا تعجبني أنا شخصيًّا. لقد أخذت معي ماكينة الحلاقة لكني لم أستطع فعل أي شيء بدون الماء والصابون. أظن أنه ليس لديك صابون في السيارة، أليس كذلك؟»

«ليس لديَّ للأسف. أنا لا أغتسل كثيرًا مثلما آكل. ولكن معي زجاجة صابون سائل لتنظيف الأيدي — يسمونها «سنودروب» — أستخدمها لتنظيف يدي عندما أغير إطار السيارة. ربما ستفي بالغرض.» وأخرجت الزجاجة من السيارة. وقالت: «لا بدَّ أنك أكثر ذكاء مما ظننتك.»

«حقًّا؟ إلى أي مدًى يجعلني هذا ذكيًّا؟»

«الهروب من المفتش جرانت. إنه بارع في وظيفته، كما يقول والدي.»

«أجل، إنه كذلك على الأرجح. لو لم يتصادف أن شعرت بالرعب من وضعي في السجن، لَما توافرت لديَّ الجرأة للهروب. وفي واقع الأمر، فترة النصف ساعة تلك هي أكثر وقت مثير مرَّ بي على الإطلاق. أعرف الآن ما يعنيه العيش بأقصى سرعة. لقد ظننت أن امتلاك المال وفعل ما تحب — عشرين شيئًا مختلفًا في اليوم — هو العيش بسرعة. لكنني لم أكن أعرف شيئًا عن ذلك.»

«هل كانت لطيفة، أعني كريستين كلاي؟»

بدا مرتبكًا. وقال: «أنت تنتقلين بين الموضوعات بسرعة، أليس كذلك؟ أجل، لقد كانت شخصية عظيمة.» نسي طعامه للحظة. ثم أضاف: «هل تعرفين ماذا فعلت؟ لقد تركت لي مزرعتها في كاليفورنيا لأنها علمت أني مفلس وأكره العمل المكتبي.»

«أجل، أنا أعرف.»

«أنت تعرفين؟»

«أجل، لقد سمعت أبي والآخرين يناقشون الأمر.»

«أوه. أوه، أجل ... وما زلت تعتقدين أنني لم أرتكب الجريمة؟ لا بد أنني أبدو تافهًا للغاية في عينيك!»

«هل كانت جميلة جدًّا؟»

«ألم تشاهديها من قبل؟ أعني، على الشاشة؟»

«لا. لا أعتقد ذلك.»

«وأنا أيضًا لم أشاهدها. أمر غريب، أليس كذلك. أظن أنه خلال التَّجوال من مكان إلى آخر من السهل أن تفوتك مشاهدة الأفلام.»

«للأسف أنا لا أذهب إلى السينما كثيرًا. إن المسافة بعيدة بين منزلنا وبين أي دار عرض جيدة. فلتتناول المزيد من اللحم.»

«لقد قصدت أن تفعل معي تلك اللفتة الكريمة، كريس. هذا من سخرية القدر، أليس كذلك؟ أن تصبح هديتها عمليًّا هي تصريح الموت الخاص بي.»

«أظن أنه ليس لديك أي فكرة عمن ارتكب الجريمة؟»

«كلا. أنا لم أكن أعرف أيًّا من أصدقائها، كما تعلمين. لقد التقطتني من الطريق ذات ليلة.» ونظر متفحصًا تلك التلميذة الصغيرة التي تجلس أمامه. ثم قال: «أظن أن هذا يبدو مروعًا بالنسبة إليك؟»

«أوه، كلا. ليس إذا أعجبَ شكل أحدكما الآخر. أنا أحكم كثيرًا من خلال الشكل.»

«لا يمكنني التوقُّف عن الشعور بأن الشرطة ربما ترتكب خطأً ... أعني، لقد كان مجرد حادث. إذا رأيت الريف في ذلك الصباح. كان مهجورًا تمامًا. لم يكن أحد ليستيقظ قبل ساعة أخرى على الأقل. إنه أمر لا يُصدق تقريبًا؛ أن شخصًا ما قد يخرج لارتكاب جريمة قتل في ذلك الوقت وفي ذلك المكان. قد يكون ذلك الزر علق بشعرها مصادفة، في نهاية الأمر.»

«إذا عُثر على معطفك مع كامل الأزرار الموجودة عليه، فهل يثبت ذلك أنه لا علاقة لك بارتكاب الجريمة؟»

«أجل، أعتقد ذلك. يبدو أن هذا هو كل الأدلة التي تمتلكها الشرطة.» وابتسم ابتسامة خفيفة. وقال: «لكنك تعرفين عن ذلك أكثر مني.»

«أين كنت عندما فقدته ... أعني المعطف؟»

«لقد ذهبنا إلى ديمتشيرش يومًا ما؛ الثلاثاء، أجل. وغادرنا السيارة لنتمشى على الطريق الموازي لشاطئ البحر لنحو نصف ساعة. وكان معطفانا دائمًا موضوعَين في السيارة من الخلف. لم أنتبه لفُقدان معطفي حتى توقفنا للتزود بالوقود في منتصف الطريق تقريبًا إلى المنزل، واستدرت لإحضار الحقيبة التي ألقتها كريس هناك عندما ركبت السيارة.» وتحول وجهه فجأة إلى اللون القرمزي، وشاهدته إريكا في دهشة ثم في حرج. مرَّت لحظات قبل أن يخطر ببالها أن الاعتراف الضمني بأن المرأة كانت تدفع بدلًا منه هو أكثر إذلالًا له من

أي تهمة قتل. وتابع على عجل: «لم يكن المعطف موجودًا حينها؛ لذا فمن الممكن أنه سرق فقط أثناء تمشيتنا.»

«هل سرقه الغجر؟»

«لا أظن ذلك. لم أرَ أيَّ أحد منهم. من المرجَّح أن من سرقه هو أحد المارَّة.»

«هل هناك أي علامة مميزة تدل على أن المعطف يخصُّك؟ عليك أن تثبت ذلك للشرطة، كما تعلم.»

«إن اسمي على البطانة ... إحدى بطاقات الخياط، كما تعلمين.»

«ولكن إذا سرق، فهذا أول شيء سينتزعونه منه.»

«أجل. أجل، أظن ذلك. هناك علامة أخرى، بالرغم من ذلك. هناك حرق صغير على الجانب الأيمن أسفل الجيب، حيث ألصق به أحدهم سيجارة.»

«هذا أفضل، أليس كذلك! هذا من شأنه تسويةُ الأمر بشكل جيد للغاية.»

«إذا عُثر على المعطف!»

«حسنًا، إن من سرق معطفًا ليس من المحتمل أن يحضره إلى قسم الشرطة لمجرد أن الشرطة تريده. والشرطة لا تبحث عن معاطف يرتديها الناس. إنهم يبحثون عن المعاطف التي جرى التخلص منها. حتى الآن لم يفعل أحد أيَّ شيء بخصوص العثور على معطفك. أعني، نيابة عنك. ليصبح دليلًا في صالحك.»

«حسنًا، ماذا يمكنني أن أفعل؟»

«سلم نفسك للشرطة.»

«ماذا!»

«سلم نفسك. وعندئذٍ سيوفرون لك محاميًا وخلافه. وستصبح مهمته هي البحث عن المعطف.»

«لا أستطيع فعل ذلك. لا أستطيع فحسب، يا ... ما اسمك.»

«إريكا.»

«يا إريكا. إن التفكير في حبسي داخل زنزانة مغلقة بمفتاح تصيبني بتوتر عصبي.»

«هل أنت مصاب بمرض الخوف من الأماكن المغلقة؟»

«أجل. لا مانع لديَّ حقًّا من الوجود في الأماكن المغلقة ما دمتُ أعرف أنه يمكنني الخروج. الكهوف وخلافه. ولكن أن يغلق عليَّ بمفتاح، وبعد ذلك لا يصبح لديَّ ما أفعله سوى الجلوس والتفكير في ... لا أستطيع فعل ذلك فحسب.»

«أجل، أظن أنك لا تستطيع، إذا كنت تشعر هكذا حيال الأمر. إنه شيء مؤسف. إنها الطريقة الأكثر منطقية. ماذا ستفعل الآن؟»

«سأنام في العراء مرة أخرى، على ما أظن. ليس من المتوقع سقوط أمطار.»

«أليس لديك أي أصدقاء يمكن أن يعتنوا بك؟»

«في ظل تهمة القتل الموجهة ضدي؟ كلا! أنتِ تبالغين في تقييم الصداقة الإنسانية.» توقف للحظة، وأضاف بصوت مندهش: «كلا، كلا، ربما أنتِ لم تبالغي في ذلك. أنا فقط لم أقابل النوع المناسب من قبل.»

«إذن من الأفضل أن نحدد مكانًا يُمكنني أن أقابلك فيه غدًا وأُحضر لك المزيد من الطعام. هنا، إذا أردت.»

«كلا!»

«أين إذن؟»

«لم أقصد ذلك. أعني أنك لن تقابليني في أي مكان.»

«لمَ لا؟»

«لأنك بهذا سترتكبين جناية، أو أيًّا كانت. لا أعرف ما هي العقوبة، لكنك ستصبحين مجرمة. لا يمكن فعل ذلك.»

«حسنًا، لا يمكنك منعي من إلقاء الطعام من السيارة، أليس كذلك؟ لا يوجد قانون ضد ذلك، حسبما أعلم. سيتصادف فقط أن يسقط جبن ورغيف وبعض الشوكولاتة من السيارة على هذه الشجيرات صباح الغد. يجب أن أذهب الآن. يبدو المرج العشبي مهجورًا، ولكن إذا تركت سيارة واقفة لفترة طويلة بما يكفي، فدائمًا ما سيظهر شخص من مكان ما للاستفسار.»

حملت بقايا الطعام في السيارة، ثم ركبت هي أيضًا.

تحرك ليقف على قدميه.

فقالت بحدة: «لا تكن أحمق. ابقَ منخفضًا.»

فجلس على ركبتيه. وقال: «حسنًا. لا يمكنك الاعتراض على هذا الوضع. وهو يعبر عن مشاعري بشكل أفضل بكثير.»

أغلقت باب السيارة ومالت عليه.

«بالمكسرات أم عادية؟»

«ماذا؟»

«الشوكولاتة.»

«أوه! من النوع الذي به زبيب، من فضلك. في يوم من الأيام، يا إريكا بيرجوين، سأتوجك بالياقوت وأجعلك تمشين على بساط غني مثل ...»

لكن الجملة ضاعت وسط هدير مغادرة تيني.

الفصل الثاني عشر

قالت إريكا للسائس العجوز الذي يعمل لدى والدها: «كايندنس، هل لديك أي مدخرات؟»

توقف كايندنس عن مراجعة حساب الذرة، وأطلق نحوها نظرةً شاحبةً من عينٍ عجوز مُتغضِّنة، واستمر في حساباته.

وقال بعد فترة طويلة، بنبرة ممتعضة: «بنسان!»

قصد بذلك الحسابات التي يراجعها، فانتظرت إريكا. كان كايندنس يكره الحسابات.

وقال، بعد أن وصل إلى قمة عمود ورقة الحسابات مرة أخرى: «لدي ما يكفي لأُدفَن بشكلٍ لائق.»

«أنت لن تُدفن إلا بعد عمر طويل. هل يمكنك إقراضي عشرة جنيهات، هل تعتقد ذلك؟»

تَوقَّف الرجل العجوز عن لعق سنٍّ بقايا قلمه الرَّصاص، حتى أحدث الرَّصاصُ بقعةً أرجوانية على طرَف لسانه المكشوف.

ثم قال: «إذن هكذا هو الأمر! ماذا كنتِ تفعلين الآن؟»

«لم أفعل أيَّ شيء. ولكن هناك بعض الأشياء التي قد أرغب في فعلها. كما أن الوقود باهظ الثمن.»

كان ذكر الوقود فاصلًا سيئًا.

قال بغَيرة: «أوه، السيارة، أليس كذلك؟» كان كايندنس يكره تيني. وتابع: «إذا كنت تريدينها من أجل السيارة، فلماذا لا تطلبين من هارت؟»

قالت إريكا وهي شبه مصدومة: «أوه، لا أستطيع. إن هارت موظف جديد تمامًا.» كان هارت موظفًا جديدًا يعمل منذ أحد عشر عامًا فقط.

بدا كايندنس مسترخيًا.

فقالت مطمئنة إياه: «لن أفعل بها أي شيء مريب. لقد كنت سأحصل عليها من والدي الليلة على العشاء، أعني، النقود؛ لكنه ذهب إلى منزل العم ويليامز.» صمتت للحظة ثم أضافت: «والنساء فضوليات للغاية.»

كانت تقصد بذلك مربيتها، وقد حسَّن هذا من موقفها بعد أن ذكرت موضوع الوقود. إذ إن كايندنس كان يكره المربية.

فقال وهو يهز رأسه: «إن مبلغ عشرة جنيهات هو استقطاع كبير من مدخراتي التي أحتفظ بها من أجل كفني.»

«أنت لن تحتاجها قبل يوم السبت. وأنا أدخر ثمانية جنيهات في البنك، ولكن أنا لا أريد إضاعة الوقت في صباح الغد من أجل الذَّهاب إلى ويستوفر وسحبها. إن الوقت ثمين للغاية الآن. إذا حدث لي أي شيء، فستضمن الحصول على ثمانية جنيهات على أي حال. وسيتكفل والدي بمنحك الجنيهين الآخرين.»

«وما الذي جعلك تأتين إلى كايندنس؟»

كان هناك شعور بالرضا عن النفس في نبرته. وأي شخص آخر غير إريكا كان سيقول: لأنك صديقي القديم، ولأنك دائمًا ما تساعدني للخروج من المشاكل التي تواجهني منذ أن كنت في الثالثة من عمري وفي أول مرة أمتطي مهرة في حياتي، ولأنك لن تُكثر من الكلام، ولأنك على الرغم من سرعة غضبك فأنت عجوز لطيف.

لكن إريكا قالت: «لقد ظننت فقط أن الحصول على النقود من علب الشاي أسرع من الحصول عليها من البنك.»

«ماذا قلت؟»

«أوه، ربما لم يكن من المناسب قول ذلك. لقد أخبرتني زوجتك عن هذا الأمر، وأنا أتناول معها الشاي ذات يوم. لم يكن خطأها، في الواقع. لقد رأيت النقود مختفية وسط الشاي. وظننت أنه عرضةٌ للجراثيم هكذا. أقصد الشاي بالطبع. لكنها فكرة جيدة للغاية.» تابعت بينما بدا كايندنس عاجزًا عن الكلام. «إن الماء المغلي يقتل معظم الجراثيم، على أي حال.» ثم استأنفت كلامها وهي تدعم موقفها بما كان يجب أن تقوله من البداية: «بالإضافة إلى ذلك، إلى من غيرك يمكنني اللجوء؟»

ثم اقتربت منه وأخذت القلم الرَّصاص، وقلبت إعلانًا ورقيًّا عن سباق محلي للخيول موضوعًا على منضدة غرفة السروج، وكتبت على ظهر الورقة بخط طالبة مدرسية:

«أنا مدينة للسيد بارثولوميو كايندنس بمبلغ عشرة جنيهات.»

إريكا مير بيرجوين

ثم قالت: «سيَفي هذا بالغرض حتى يوم السبت. إن دفتر الشيكات الخاص بي قد انتهى، على أي حال.»

قال كايندنس متذمرًا: «أنا لا يعجبني أن تُسرفي في إنفاق أموالي عبر كنت.»

قالت إريكا: «أظن أن المقابض النُّحاسية مبهرجة للغاية. من الأفضل لك الحصول على حديد مسبوك.»

وبينما يسيران معًا عبر الحدائق متجهين نحو كوخه وعلبة الشاي الخاصة به، قالت إريكا:

«كم عدد مكاتب الرهن في كنت تقريبًا؟»

«نحو ألفين.»

قالت إريكا: «أوه، يا إلهي!» وإلى هنا انتهت المحادثة.

لكنها نامت في تلك الليلة وهي تفكر في مكاتب الرهن الألفين، واستيقظت وهي لا تزال تفكر فيها.

ألفان! يا إلهي!

لكن بالطبع كان كايندنس يخمن فقط. ومن المحتمل أنه لم يرهن أي شيء في حياته. كيف يمكن له أن يعرف عدد مكاتب الرهن في مقاطعة ما؟ ورغم ذلك، فعددها ليس بالكبير. حتى في مقاطعة غنية مثل كنت. فهي لم تلحظ حتى ولو مكتبًا واحدًا من قبل. لكنها افترضت أن المرء لن يلحظ أحدها إلا إذا تصادف أنه يبحث عنه. مثل البحث عن المشروم.

وعند الساعة السادسة والنصف من صباح حار ساكن أخرجت سيارتها تيني من المرأب، ولم يكن هناك أحد مستيقظًا في ذلك المنزل الأبيض اللطيف الذي كان يبتسم لها. إن تيني تُحدِث ضوضاء على الدوام، لكن الضوضاء التي أحدثتها وسط هدوء فترة ما قبل الإفطار في صباح صيفي كانت رهيبةً للغاية. وللمرة الأولى كانت إريكا مذنبةً بتهمة الخيانة في مشاعرها تجاه تيني. كانت في أغلب الأحيان منزعجة؛ أجل، غاضبة؛ ولكنه دائمًا غضب الاستحواذ، الذي يشعر به المرء تجاه من يحبه كما لو كان جزءًا من نفسه. لم تفكر مطلقًا وسط غضبها، وفي لحظات سخرية أصدقائها منها، في التخلص من تيني. لم يكن من الممكن أن تتخلى عنها.

لكنها الآن تفكر بهدوء تام، ينبغي بالفعل أن أحصل على سيارة جديدة.

كانت إريكا تزداد نضجًا.

اتخذت تيني طريقها عبر الأزقة الهادئة المضيئة، وراحت تهدر، وتنخر، وتهتز، بينما تجلس إريكا معتدلة على كرسي القيادة العتيق الطراز وقد توقفت عن التفكير فيها. وبجانبها صندوق يحتوي على نصف فرُّوج، وخبز وزبدة، وطماطم، وكعكات الزبد، وزجاجة من اللبن. كان هذا — «غداء الآنسة إريكا» — هو الإسهام غير المتعمد من مديرة منزل العائلة في ستاينس من أجل إرباك القانون. وخلفه، في لِفافة من الورق البني، كانت مشاركة إريكا الخاصة — وهي أقل لذة من الوجبة التي أعدتها مديرة المنزل، لكنها أكثر إشباعًا — وقد اشترتها من متجر السيد ديدز في القرية. («تاجر توريدات وتجارة عبر البحار. الأجود في الموسم») حيث يقدم السيد ديدز شرائح لحم العجل الطرية الوردية («هل تريدينها سميكةً هكذا، يا آنسة إريكا؟») لكنه لم يستطع توريد شوكولاتة محشوَّة بالزبيب. إذ ليس هناك طلب عليها.

لم يَجُل بعقل إريكا حتى إنها متعبة، وأنه قد تبقَّى أقل من ساعة على موعد الإغلاق، وأن الرجل الذي يتضوَّر جوعًا قد يتناول قطعًا من الشوكولاتة العادية رغم تفضيله الخفيف للزبيب. كلا؛ إن إريكا — على الرغم من أنها لم تكن لتخبرك بذلك — تعرف أهمية التفاصيل الصغيرة. خاصة أهمية التفاصيل الصغيرة عندما يكون المرء غير سعيد. لقد تجولت في تلك الأمسية الحارة والمتربة في القرى المجاورة بتصميم يتنامى مع افتقارها إلى النجاح. وهكذا صار لديها الآن، في جيب باب السيارة القديم المتآكل، أربعة ألواح، وزن كل منها نصف رطل من الشوكولاتة بالزبيب؛ وهو كل مخزون السيدة هيجز في ليثام، التي جرى إقناعها عند الساعة السابعة والربع أن تترك وجبة الغذاء المتأخرة («سأفعل ذلك فقط من أجلك، يا آنسة بيرجوين، وليس من أجل أي أحد آخر») وتدير المفتاح الضخم في بابها الصغير.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة قبل أن تشق طريقها بصخب عبر ملينجفورد النائمة وتتجاوزها إلى الريف الحار المكشوف. عندما دخلت إلى المسار الطويل غير الممهد حيث لاحظت عيونها السريعة المدربة على الملاحظة وسط الريف ذلك الحذاء بالأمس، تمنت أن يكون لدى تيسدول غطاء أفضل من تلك الشجيرات. ليس ليحتمي من القانون، ولكن ليحتمي من السماء عند منتصف النهار. فهو يوم حار للغاية. وسيحتاج تيسدول إلى كل زجاجة الحليب وتلك الطماطم. وقد ناقشت مع نفسها ما إذا كانت ستصبح خطوة جيدة أن يُنقل الهارب إلى أجواء أخرى. إلى تشارينج، على سبيل المثال. فهناك غابة تكفي لإيواء جيش في أمان بعيدًا عن الشمس والقانون. لكن إريكا لم تحب الغابات أبدًا، ولم تشعر أبدًا بالأمان على وجه التحديد فيها. لذا من الأفضل أن تشعر بالحر وسط الشجيرات القصيرة

وتصبح قادرًا على رؤية امتداد الطريق أمامك، بدلًا من الغرباء الذين قد يهاجمونك وسط برودة الأشجار الكثيفة. إلى جانب ذلك، قد يرفض تيسدول عرض منحه توصيلة.

ليس هناك شك في إجابة تيسدول، لكن الاقتراح لم يطرح عليه أبدًا. إمَّا أنه كان مستغرقًا في النوم لدرجة أنه حتى ضجة مجيء تيني لم توقظه، أو لم يَعُد في تلك القطعة من الريف. ذهبت إريكا إلى نهاية المسار، بينما تصدر تيني ضجيجًا مثل قطار سريع، وعادت إلى المكان الذي توقفت فيه أمس. وبعد إغلاقها للمحرك، ساد الصمت المطلق. ولم يكن هناك حتى تغريدة عصفور، ولا حركة.

انتظرت هناك، بهدوء، دون أن تتلفَّت حولها، وقد أسندت ذراعيها على عجلة القيادة في موقف من تفكر في حركاتها المستقبلية. لا بدَّ أن ظهورها لم يكن ليثير الشكوك في عقل أي عابر سبيل. وظلت جالسةً لمدة عشرين دقيقة، ومسترخية ولا مبالية. ثم تمطَّت، وتأكدت أثناء تمطيها من أن المسار لا يزال خاليًا، ثم خرجت من السيارة. إذا أراد تيسدول التحدث إليها، لكان قد وصل إليها قبل الآن. أخذت اللفافتين والشوكولاتة وخبأتهما في المكان الذي كان تيسدول ممددًا فيه بالأمس. أضافت إلى هذه الأشياء علبة سجائر أخرجتها من جيبها الفضفاض. إن إريكا لا تدخن — لقد جربت التدخين، بالطبع، ولم يعجبها كثيرًا، وبالمنطق الذي كان الصفة الحاكمة لها لم تستمر في التدخين — ولم تكن تعلم أن تيسدول يدخن. هذه السجائر، والثقاب، كانت فقط «تحسبًا» في حالة ما إذا كان يدخن. إن إريكا دائمًا ما تؤدي مهامها على نحوٍ مُتقَن وكامل.

ومن ثم ركبت السيارة مرة أخرى، وأدارت محرك تيني، وبدون توقف أو نظرة إلى الوراء عادت عبر المسار، وتحول وجهها وأفكارها إلى الساحل البعيد وديمتشيرش.

كانت نظرية إريكا السليمة للغاية مفادها أنه لا يوجد «شخص من المنطقة» قد سرق ذلك المعطف. لقد عاشت طَوال حياتها في مجتمع ريفي، وعرفت جيدًا أن معطفًا أسود جديدًا لا يمكن أن يرتديه أحقر الأشخاص دون أن يلفت إليه الأنظار بقدر ملحوظ. كانت تعلم أيضًا أن الريفيين لا يستطيعون التعامل بلباقة مع مكاتب الرهن، وأن المعطف الملقى في سيارة لن يمثل له قيمة نقدية محتملة، كما هو الحال بالنسبة إلى أي شخص «عابر على الطريق.» وإذا رغب فيه من الأساس، سيصبح ذلك من أجل الاحتفاظ به؛ ونظرًا لصعوبة تفسير ظهوره، فإنه سيتركه حيث كان. لذلك، وفقًا لمنطق إريكا، فإن المعطف قد سرق من قبل «عابر سبيل.»

جعل هذا الاستنتاج الأمور أسهل وأصعب في الوقت نفسه. إن «عابر السبيل» هو شخص لافت للانتباه أكثر من «الشخص الذي يعيش في المنطقة»، وبالتالي يسهل التعرف

عليه. من ناحية أخرى، «فعابر السبيل» هو شخص متنقل ويصعب تتبعه. في الأسبوع الذي مضى منذ وقوع السرقة، ربما اجتاز هذا المعطف معظم منطقة كنت. قد يكون الآن …

منح الجوع أجنحة لخيال إريكا. بحلول الوقت الذي أصبحت فيه على مقربة من ديمتشيرش، كانت قد تخيلت أن المعطف بحوزة موظف في مكتب عمدة بوردو، وذلك بفضل الأساليب الحديثة في التنقل المجاني عبر التطفل على سائقي الطرق السريعة والأساليب القديمة بالاختباء على متن سيارات النقل. لقد تخيلته موظفًا شاحبًا ضئيلًا ذا زوجة نحيلة وطفل رضيع ضعيف، وتألم قلب إريكا عند التفكير في الاضطرار إلى أخذ المعطف منه، حتى من أجل تيسدول.

في هذه المرحلة، قررت إريكا أنها لا بدَّ أن تأكل. إن الصوم مفيد للخيال ولكنه سيئ للمنطق. لذا ضغطت على الفرامل عند رؤية استراحة «رايزينج سن»، وقد كتب عليها: «استراحة جيدة لقائدي السيارات، مفتوحة طَوال الليل.» كانت عبارة عن سقيفة من الصفيح، مقامة على جانب الطريق وهي في ضآلتها تشبه علبة أعواد ثقاب، ومطلية باللون البنفسجي والأصفر المائل للحمرة، وتحيط بها نباتات إبر الراعي. كان الباب مفتوحًا بطريقة مرحبة ودية، وتعلو الأصوات عبر الهواء الدافئ.

وجلس في الاستراحة الصغيرة من الداخل رجلان ضخمان للغاية. وكان صاحب الاستراحة يقطع شرائح كبيرة جدًّا من رغيف خبز طازج جدًّا، بينما يحتسي الرجل الآخر مشروبًا ساخنًا جدًّا من كوب كبير جدًّا محدثًا صوتًا عاليًا جدًّا. وتوقفت كل هذه الأنشطة فجأة عند رؤية إريكا على عتبة الباب.

قالت إريكا وسط الصمت: «صباح الخير.»

قال المالك: «صباح الخير، يا آنسة. هل تودين تناول كوب من الشاي؟»

نظرت إريكا حولها وقالت: «حسنًا … ألا يمكن أن أجد لديك لحمًا مقددًا؟»

قال صاحب الاستراحة على الفور: «لديَّ لحم مقدد شهي للغاية. يذوب في فمك.»

قالت إريكا بسعادة: «أعطني كمية كبيرة.»

«هل تودين تناول البيض معه؟»

قالت إريكا: «ثلاث بيضات.»

مد المالك رقبته لينظر خارج الباب، ووجد أنها بمفردها.

فقال: «تفضلي. هذا شيء جيد. من اللطيف أن أرى فتاة صغيرة تعتني بتغذيتها هذه الأيام. اجلسي، يا آنسة.» نفض كرسيًّا حديديًّا لها بزاوية مئزره. وتابع: «سأحضر اللحم المقدد على الفور. سميك أم رقيق؟»

«سميك، من فضلك. صباح الخير.» وجهت هذه التحية للرجل الآخر، حيث جلست وبالتأكيد أصبحت شريكًا في الأكل والشرب. وتابعت: «هل هذه شاحنتك هناك؟ لطالما أردت قيادة واحدة من هؤلاء.»

«أجل، وأنا لطالما أردت أن أُصبح بهلوانًا يسير على الحبل.»

قالت إريكا بجدية: «إن جسدك لا يصلح لذلك. من الأفضل الاستمرار في قيادة الشاحنات.» وعندئذٍ، توقَّف المالك عن تقطيع اللحم ليضحك.

قرَّر سائق الشاحنة أن المزحة قد ضاعت إذ أُلقيت على عقل حَرفي لا يتفهم المزاح. فاسترخى في ود.

«أوه، حسنًا، من الجيد أن يصبح لديك صحبة من النساء على سبيل التغيير، أليس كذلك يا بيل؟»

سألت إريكا: «أليس لديك الكثير منها؟ أظن أن الشاحنات تحظى بشعبية كبيرة.» وقبل أن يتمكن الرجل المذهول من حسم أمره حول ما إذا كانت هذه الطفلة النحيفة وقحةً أم استفزازية أم أنها تسرد حقيقةً واقعةً فحسب، تابعت: «هل تمنح توصيلات للمتسكعين، هل سبق أن فعلت، بالمناسبة؟»

قال السائق على الفور: «مطلقًا!» وهو مسرور أنه يشعر بقدميه على أرض صُلبة.

«هذا أمر مؤسف. أنا مهتمة بالمتسكعين.»

سأل بيل، بينما يقلب اللحم الذي ينضج في المقلاة: «هل هو اهتمام بدافع التعاطف الإنساني؟»

«كلا. اهتمام أدبي.»

«حسنًا. هل تؤلفين كتابًا؟»

قالت موجهةً حديثها للسائق في إصرار: «ليس بالضبط. أنا أجمع المادة لشخص آخر. لا بدَّ أنك ترى الكثير من المتسكعين، حتى لو لم تمنحهم توصيلة.»

«ليس هناك وقت لرؤية أي شخص أثناء قيادة هذا الشيء.»

حثه بيل على الحديث وهو يكسر البيض: «أخبرها عن هاروجيت هاري. لقد رأيته في سيارتك الأسبوع الماضي في وقتٍ ما.»

«أنت لم ترَ أحدًا في سيارتي، مطلقًا.»

«أوه، لا تكن كتومًا من فضلك. ليس هناك ما تخشاه من هذه الآنسة الصغيرة. إنها ليست من النوع الذي يثرثر حتى لو أنك منحت توصيلة لمتسكع غريب.»

«هاروجيت ليس متسكعًا.»
سألت إريكا: «من هو إذن؟»
«إنه تاجر مصنوعات خزفية. إنه تاجر جوَّال.»
«أوه، أعرفهم. وعاء أزرق وأبيض مقابل جلد أرنب.»
«كلا، لا شيء من هذا القبيل. إنه يصلح مقابض أباريق الشاي وما إلى ذلك.»
«أوه. هل يكسِب الكثير؟» هذا من أجل إبقاء السائق في الموضوع.
«ما يكفي لتسيير أموره. وهو يتسول معطفًا قديمًا أو زوجًا من الأحذية بين الحين والآخر.»

لم تَقُل إريكا شيئًا للحظة، وتساءلت عما إذا كانت دقات قلبها مسموعة لهذين الرجلين كما كانت في أذنيها. معطف قديم، بين الحين والآخر. ماذا يجب أن تقول الآن؟ لم تستطع أن تقول: هل كان يرتدي معطفًا يوم رأيته؟ سيصبح ذلك بمثابة كشفٍ تام للموضوع.

قالت أخيرًا: «يبدو مثيرًا للاهتمام.» ثم قالت لبيل: «الخردل، من فضلك.» وتابعت: «أود أن ألتقيَ به. لكنني أفترض أنه في الطرف الآخر من المقاطعة الآن. في أي يوم رأيته؟»

«دعيني أتذكر. لقد ركِب معي خارج ديمتشيرش وأنزلته بالقرب من تونبريدج. يوم الإثنين الماضي كان قد مرَّ أسبوع على لقائه.»

إذن لم يكن هاروجيت. يا للأسف! لقد بدا مبشرًا بالوصول للهدف، مع اهتمامه بالمعاطف والأحذية، وتَجواله، وصداقته مع سائقي الشاحنات الذين يبعدون رجلًا بسرعة عن منطقة ربما تكون غير ودية. أوه، حسنًا، لم يكن من الجيد تخيُّل أن الأمر سيصبح سهلًا مثلما بشَّر به هذا الحوار.

وضع بيل الخردل بجانب طبقها. وقال: «ليس يوم الإثنين. ربما لن يُحدث ذلك أيَّ فرق. لكن جيمي كان هنا يفرغ المخزون عندما مررت. كان ذلك يوم الثلاثاء.»

ربما لن يُحدث ذلك أيَّ فرق! أخذت إريكا قضمةً كبيرة من البيض واللحم المقدَّد لتهدئة قلبها الذي يرقص طربًا.

ساد الصمت قليلًا في استراحة «رايزينج سن»؛ يعود ذلك جزئيًّا إلى أن إريكا كانت لديها عادة ذكورية تتمثل في الصمت أثناء تناولها الطعام، وجزئيًّا إلى أنها لم تكن قد قررت بعد ما هو القول الصائب بعد ذلك. وانتفضت في قلق عندما دفع سائق الشاحنة الكوب الخاص به بعيدًا عنه ونهض لينصرف.

«لكنك لم تخبرني عن هاروجيت ... ما اسمه؟»

«ماذا تريدين أن أخبرك؟»

«حسنًا، لا بدَّ أن مصلح الخزف المتجول مثير للاهتمام. أودُّ أن أقابله وأتحدث معه.»

«إنه لا يحب التحدث كثيرًا.»

«سأجعل الأمر مجزيًا بالنسبة إليه.»

ضحك بيل. وقال: «إذا منحت هاروجيت خمسة شلنات، فسوف يتحدث حتى ينفجر رأسُه. ومقابل عشرة سيخبرك كيف وجد القطب الجنوبي.»

التفتت إريكا إلى الشخص الأكثر تعاطفًا بين الاثنين.

«هل تعرفه؟ هل لديه منزل؟»

«في الشتاء، يبقى في منزله، في الغالب، على ما أعتقد. لكن في الصيف يعيش في خيمة.»

قال السائق، الذي لم يعجبه تحول الاهتمام إلى بيل: «إنه يعيش مع كويني ويبستر في مكانٍ ما بالقرب من بيمبري.»

وضع بعض العملات المعدِنية على المنضدة المقشورة وتحرك نحو الباب.

«وإذا كنتِ ستجعلين الأمر مجزيًا لأي شخص، فعليك إرضاء كويني أولًا، وهذا ما كنت سأفعله لو أنني في مكانك.»

قالت إريكا: «شكرًا لك. سأتذكر. شكرًا لك على مساعدتك.»

دفء الامتنان الحقيقي في صوتها جعله يتوقف. وقف في المدخل ينظر إليها. وقال: «إن المتسكعين هم ذوق غريب بالنسبة إلى فتاة تتمتع بشهية مفتوحة»، ثم خرج إلى شاحنته.

الفصل الثالث عشر

امتدت شهية إريكا المفتوحة إلى الخبز والمربى والعديد من أكواب الشاي، لكنها استوعبت القليل من المعلومات مع الغذاء. إن بيل، على الرغم من استعداده لمنحها أيَّ معلومات تريدها، لم يكن يعرف سوى القليل جدًّا عن هاروجيت هاري. كان عليها الآن أن تقرر ما إذا كانت ستترك ديمتشيرش «الدافئة» وتتبع هاري المجهول والمراوغ في «برودة» ريف تونبريدج.

سألت بينما تدفع فاتورتها: «هل معظم المتسكعين أمناء، في رأيك؟»

قال بيل، وهو يفكر في الأمر: «حسنًا، إنهم أمناء إلى أن تسنح لهم الفرصة، إذا كنت تعرفين ما أعنيه.»

وقد عرفت إريكا ما يعنيه. إذ إنه ما من متسكع من بين خمسين متسكعًا سيرفض فرصة الحصول على معطف ملقًى دون رقابة. وهاروجيت هاري كان يحب بالتأكيد الحصول على المعاطف والأحذية. وقد كان هاري في ديمتشيرش منذ أسبوع يوم الثلاثاء الماضي. ومن ثم، فإن مُهمَّتها، هي تتبع مصلح المصنوعات الخزفية عبر المساحات الخضراء المكشوفة حتى تلحق به. وإذا حل الليل أثناء بحثها، فعليها التفكير في كذبة مطمئنة حقًّا حتى يمكنها إبلاغها هاتفيًّا لوالدها في ستاينس لتفسير غيابها. تسببت الحاجة إلى الكذب في أول ألم تعاني منه حتى الآن في حملة البحث عن الحقيقة التي عينت نفسها فيها بنفسها؛ لم تكن بحاجة أبدًا إلى إقصاء والدها عن معرفة أي تصرف تفعله. وللمرة الثانية في غضون ساعات قليلة، يتشتت ولاؤها. لم تكن قد لاحظت عدم ولائها لتيني؛ لكنها هذه المرة لاحظت واهتمت.

حسنًا، كان اليوم في بدايته، وأصبحت الأيام طويلةً الآن. وقد تكون تيني عتيقةً لكنها لم تكن معطلة. وإذا ظل الحظ حليفًا لها، فربما ستعود إلى منزلها في ستاينس الليلة. ستعود إلى ستاينس — مع المعطف!

توقفت أنفاسها عند هذا الاحتمال تحديدًا.

قالت وداعًا لبيل الطيب، ووعدت بأن توصيَ جميع أصدقائها بتناول وجبات الإفطار عنده، وقادت تيني غربًا وشمالًا عبر الريف المزهر الحار. كانت الطرق غير واضحة المعالم الآن في وهج السماء، وبدأ السراب يظهر في الآفاق. وعانت تيني بشدة عبر هذا الفرن الأخضر، وسرعان ما أصبحت غير مريحة مثل مقلاة ساخنة. وعلى الرغم من حماسها، اضطُرت إريكا كل بضعة أميال للتوقف وفتح كلا البابين بينما تبرد تيني. أجل، يجب عليها حقًّا الحصول على سيارة أخرى.

بالقرب من كيبينجز كروس، على طريق تونبريدج الرئيسي، كررت الطريقة نفسها التي وجدتها بالصدفة مفيدة؛ حيث توقفت لتناول الغداء في استراحة على جانب الطريق. لكن هذه المرة لم يحالفها الحظ. كانت صاحبة الاستراحة امرأة مرحة تحب التحدث ولكنها ليست مهتمة بالمتسكعين. كانت تُبغض المُبذِّرين، شأنها شأن الكثير من النساء، وهي «لا تشجع المتشردين.» أكلت إريكا باعتدال وشربت قهوتها المعبَّأة، وهي مبتهجة بالظل المؤقت؛ لكنها نهضت بعد فترة قصيرة وخرجت لتجد «مكانًا أفضل.» وكلمة «أفضل» لا تشير إلى الطعام ولكن إلى المعلومات الممكنة. ومع ضبط نفس يفوق المديح، حولت عينيها بعيدًا عن المطاعم المفتوحة الكثيرة التي تقدم الشاي، وتتميز بالخضرة والبرودة، وتتألق فيها الملابس المبهجة مثل الأحجار المبللة في الظل. لكن هذا الترف ليس لها اليوم. فمثل هذه المطاعم لا تعرف شيئًا عن المتسكعين.

وانعطفت عبر زقاق يؤدي إلى جاودهيرست، وبحثت عن فندق صغير. إذ إن الفنادق دائمًا تمتلك خزفيات لتصلحها، والآن بعد أن أصبحت في موطن هاروجيت، إذا جاز التعبير، ستجد بالتأكيد شخصًا يعرفه.

ومن ثم تناولت لحم البقر البارد والسلطة الخضراء في غرفة جميلة مثل أي غرفة في ستاينس، وكانت تدعو الله أن تجد أحد الأطباق الموجودة على طاولتها، على الأقل، يحتوي على تشققات. وعندما ظهرت الفاكهة المعلبة في وعاء خزفي أنيق مكسور تم إصلاحه، كادت تصرخ بصوت عالٍ.

أجل، وافقتها النادلة، لقد كان وعاءً جميلًا. لم تكن تعرف ما إذا كان قيمًا أم لا، إن هذا هو أول موسم تعمل فيه هنا (من المفهوم أن القيمة المحتملة للسلع المحلية لا يمكن أن

تهم أي شخص ملعبه هو العالم). أجل، هي تظن أن شخصًا من المنطقة يُصلِح المصنوعات الخزفية بالفندق لكنها لم تكن تعلم من هو. أجل، يمكنها أن تسأل بالطبع.

قال مالك الفندق، عند سؤاله عمن أصلح وعاء الخزف بشكل جميل، إن هذا الوعاء بالذات جرى شراؤه على حالته، مع مجموعة كبيرة من ماتفيلد جرين. وعلى أي حال، هذا الإصلاح قديم للغاية لدرجة أن الرجل الذي أصلحه ربما مات الآن. ولكن إذا أرادت إريكا أحدًا ليصلح لها الخزف، فهناك رجل جوَّال ماهر يأتي بين الحين والآخر. واسمه، بالمر. يمكنه تجميع خمسين قطعة معًا عندما يكون في كامل وعيه دون إظهار أي وصلة. لكن عليك أن تتأكدي من أنه في كامل وعيه.

استمعت إريكا إلى رذائل وفضائل بالمر، وسألت عمَّا إذا كان هو الوحيد في المنطقة.

إنه الوحيد الذي يعرفه المالك. لكن لا يمكنك العثور على من هو أفضل من هاري.

«هاري؟»

كان هذا اسمه. يطلقون عليه هاروجيت هاري. كلا، لا يعلم المالك أين يمكن العثور عليه. كان يعيش في خيمة على طريق برينشلي، حسبما يعلم. وهو ليس من ذلك النوع من البيوت الذي ينبغي أن تزوره إريكا بمفردها، وهو يظن أنه من الأفضل له قول ذلك. لم يكن هاري نموذجًا للمواطن الصالح.

خرجت إريكا إلى حرارة الجو، وقد شجعتها الأخبار القائلة بأن هاري لا يغادر منزله المؤقت لأيام وأحيانًا لأسابيع. بمجرد أن يجنيَ القليل من المال الإضافي، يجلس مسترخيًا ليتناول الخمر.

حسنًا، إذا كان المرء سيجري مقابلةً مع مُصلِح خزف، فإن الضرورة الأولى له هي الحصول على خزف مكسور. قادت إريكا سيارتها إلى تونبريدج ويلز، آملةً أن تكون عمتها الكبيرة التي تعيش حياة كئيبة في كالفرلي بارك قد نامت ناسيةً معجناتها اللعينة، ومن ثم لن تجدها تتجول تحت أشجار الليمون، وأنفقت جزءًا من أموال كايندنس التي كان سينفقها على جنازته في متجر أنتيكات؛ إذ اشترت منه تمثالًا خزفيًّا صغيرًا تافهًا لامرأة ترقص. ثم عادت إلى بيمبري، وفي هدوء فترة ما بعد الظهر، وسط زقاقٍ عميق حاولت كسر التمثال ملقيةً إياه على مسند الأقدام الجانبي في السيارة. لكنه كان صُلبًا. وحتى عندما أمسكته إريكا بقوة من قدميه وضربته بدعامة الباب، ظلَّ سليمًا. في النهاية، خوفًا من أن يؤديَ المزيد من العنف إلى تحطيمه تمامًا، قطمت الذراع بإصبعي السبابة والإبهام، ومن ثم حصلت على وسيلة التعارف على هاروجيت هاري.

لا يمكنك طرح أسئلة حول متسكعٍ غامض، تظن أنه قد سرق معطفًا. لكن البحث عن مصلح المصنوعات الخزفية هو بحث مشروع تمامًا، ولا ينطوي على مفاجأة أو شك في أذهان من تسألهم. استغرق الأمر من إريكا تسعين دقيقة فقط كي تعثر على هاروجيت وتقابله وجهًا لوجه. كان الأمر ليستغرق وقتًا أقل، لكن الخيمة كانت بعيدة جدًّا عن أي طريق مُمهَّد؛ أولًا، عليك أن تسير عبر مسار مترب يخترق الغابة، وهو مسار يَصعُب عبوره حتى بالنسبة إلى تيني طليقة الحركة، ثم تسير عبر مساحة مفتوحة من أرضٍ عشبية تؤدي إلى وادي ميدواي، ثم تسير عبر غابة ثانية حتى تصل إلى منطقة منزوعة الأشجار عند طرفها الآخر، حيث يجري جدول ماء وصولًا إلى بركة عميقة.

تمنت إريكا ألا تكون الخيمة في غابة. منذ طفولتها المبكرة كانت لا تخاف بطبيعتها (ذلك النوع من الأطفال الذين يقول كبار السن عن ثباتهم: لا يتحرك عصب في جسدها)، ولكن لا يمكن إنكار أنها لا تحب الغابات. كانت تحب أن ترى مساحةً خالية ممتدة أمامها. وعلى الرغم من أن الجدول كان متألقًا وصافيًا ومبهجًا في ضوء الشمس، فإن البركة الموجودة في الغور كانت ساكنةً وعميقةً ومخيفة. إحدى برك الماء العميقة المفاجئة والغامضة الأكثر شيوعًا في ساسكس عنها في كنت.

عندما جاءت عبر المنطقة الخالية من الأشجار وهي تحمل التمثال الصغير في يدها، اندفع كلب نحوها، ممزقًا الهدوء باحتجاج هستيري. وعند سماع الضجيج جاءت امرأة إلى باب الخيمة ووقفت هناك تراقب إريكا وهي تقترب. كانت امرأة طويلةً للغاية، عريضة المنكِبين ومستقيمة، وتولد لدى إريكا شعور مجنون بأن هذا الدرب الطويل الذي سارت به مجتازة تلك المساحة المفتوحة الخالية من الأشجار يجب أن ينتهيَ بانحناءة.

قالت بابتهاج، بصوت يعلو فوق ضجيج الكلب: «مساء الخير.» لكن المرأة انتظرت دون أن تتحرك. وتابعت: «لدي قطعة خزفية — ألا يمكنك إسكات ذلك الكلب؟» كانت في مواجهتها الآن، لا يفصل بينهما سوى نباح الكلب.

ركلت المرأة ضلوع الحيوان بقدمها، فتوقف فجأة عن نباحه العالي. وعاد صوت انسياب الجدول إلى الآذان.

أظهرت إريكا التمثال الخزفي المكسور.

ونادت المرأة: «هاري!»، بينما عيناها السوداوان المتفحصتان لا تتركان إريكا. وجاء هاري إلى باب الخيمة: وهو رجل ضئيل يشبه ابن عِرْس بعيون حمراء كالدم، ومن الواضح أنه في أسوأ حالاته المزاجية. فقالت المرأة: «عمل لك.»

قال هاري، وهو يبصق: «أنا لا أعمل.»

«أوه، أنا آسفة. سمعت أنك ماهر للغاية في إصلاح الأشياء.»

أخذت المرأة التمثال والقطعة المكسورة من يدي إريكا. وقالت: «إنه يعمل.»

بصق هاري مرةً أخرى، وأخذ القطعتين. وسأل، بغضب: «هل لديك مال للدفع؟»

«كم سيتكلف؟»

«شلنين.»

قالت المرأة: «شلنين وستة بنسات.»

«أوه، أجل، معي هذا القدر.»

عاد إلى الخيمة، ووقفت المرأة في الطريق، بحيث لم تستطع إريكا اتباعه أو حتى رؤية ما داخل الخيمة. في عقلها اللاواعي، عند تخيُّلها هذه اللحظة، كانت دائمًا ما تضع نفسها داخل الخيمة — والمعطف مطوي وموضوع عند الزاوية. الآن لم يُسمح لها حتى رؤية الداخل.

قالت كويني: «لن يستغرق وقتًا طويلًا. بحلول الوقت الذي تقطعين فيه صافرة من شجرة الدردار، سيصبح جاهزًا.»

اقتحمت وجه إريكا الصغير الرصين إحدى ابتساماتها النادرة. وقالت: «تظنين أنني لا أستطيع فعل هذا، أليس كذلك؟» لأن عبارة المرأة تشبه لطمة على وجه فتاة من المفترض أنها تسكن في المدينة.

ومن ثم قطعت الخشب بسكين جيبها، وشكلته، وشقته، وبللته في الجدول، على أمل أن الانشغال قد يقلل من تحفز كويني وشريكها. حتى إنها كانت تأمُل في أن تتم العمليات الأخيرة لتصنيع الصافرة في صحبة ودودة مع عملية إصلاح الخزف. ولكن في اللحظة التي عادت فيها إلى الخيمة، تركت كويني جمع الحطب من الغابة لتقف في حراسة الخيمة. ومن ثم وجدت إريكا أنها قد انتهت من صنع الصافرة في ذات الوقت الذي وجدت فيه التمثال المرمم بين يديها، دون أن تحصل على أي معلومات جديدة. كانت تود أن تبكي.

وأخرجت كيس نقودها الصغير (إذ إن إريكا تكره حقائب اليد) ودفعت لها المبلغ المطلوب، ثم قادها إلى التهور اليائس، منظر النقود المطوية في الجزء الخلفي من الكيس والتي تنتظر أداء مهمة الإنقاذ. ومن دون أي إنذار، ومن دون أن تدري أنها كانت ستقول ذلك، سألت الرجل:

«ماذا فعلت بالمعطف الذي أخذته من ديمتشيرش؟»

ساد الصمت التام للحظة، ثم سارعت إريكا بالحديث:

«أنا لا أريد أن أفعل أي شيء حيال الأمر. أعني، تقديم اتهام، أو أي شيء من هذا القبيل. لكنني أريد ذلك المعطف بشدة. سأشتريه منك إذا كان لا يزال لديك. أو إذا كنت قد رهنته ...»

انفجر الرجل قائلًا: «أنت فتاة عجيبة!» وتابع: «تأتين إلى هنا كي تصلحي تمثالك ثم تتهمين رجلًا مكافحًا بمثل هذه الجرأة. اخرجي من هنا قبل أن أفقد أعصابي وأصفعك على وجهك. أيتها الصفيقة — ذات اللسان المنفلت. لديَّ رغبة قوية في أن أقتلعه من رأسك اللعين، وعلاوة على ذلك ...»

دفعته المرأة جانبًا ووقفت بينه وبين إريكا، بجسدها الطويل وملامحها المخيفة.

وقالت: «ما الذي يجعلك تظنين أن زوجي أخذ معطفًا؟»

«إنه المعطف الذي كان معه عندما منحه جيك، سائق الشاحنة، توصيلة منذ أسبوع يوم الثلاثاء الماضي، وقد أُخذ من سيارة في ديمتشيرش. نحن نعلم ذلك.» كانت تأمُل أن تمنحها كلمة «نحن» الحماية المرجوة. كما تأمُل ألَّا توحي جملتها بالشك الذي تشعر هي به. بدت عليهما البراءة والسخط. فتابعت: «لكن الأمر لا يستدعي توجيه اتهام. نحن فقط نريد استرجاع المعطف.» ثم أضافت، حينما كانا على وشك نهرها مرة أخرى: «سأعطيك جنيهًا مقابله.»

لمحت تغيُّر تعبير عيونهما. وعلى الرغم من موقفها الصعب غمرها ارتياح كبير. فالرجل هو الرجل المنشود. إذ إنهما يعلمان عن أي معطف تتحدث.

فقالت: «وإذا كنت قد رهنته، فسأمنحك عشرة شلنات كي تخبرني أين.»

قالت المرأة: «ماذا ستستفيدين من ذلك؟ ماذا تريدين من معطف رجل؟»

سرى الانتصار في جسدها مثل صدمة كهربية وهي تقول: «أنا لم أَقُل أي شيء عن كونه مِعطف رجل.»

توقفت كويني بنفاد صبر عن المزيد من التصنع وقالت: «أوه، لا يهم! ماذا يمثل بالنسبة إليك؟»

إذا ذكرت صلته بجريمة قتل فسيصاب كلاهما بالهلع، وينكران حتى آخر نفس أي معرفة بالمعطف. وهي تعرف جيدًا، بفضل محادثات والدها، مدى هلع مخالفي القانون من الجرائم الكبرى. فهو سيذهب إلى أبعد مدى كي يتفادى التورط في اتهام كبير، حتى ولو عن بعد.

ومن ثم قالت: «من أجل إنقاذ هارت من الوقوع في مشكلة. لم يكن ينبغي أن يترك السيارة دون حراسة. ومالك السيارة سيعود غدًا، وإذا لم نعثر على المعطف قبل عودته فسيفقد هارت وظيفته.»

سألت المرأة: «من هو هارت؟ هل هو أخوك؟»

«كلا. إنه سائقنا.»

أطلق هاري ضحكة عالية تشير إلى أنه وجد الأمر مسليًا، وقال: «سائق! هذه مزحة جيدة. أظن أن لديك سيارتين رولز رويس وخمس سيارات بنتلي.» وراحت عيناه الحمراوان الضيقتان تتفحصان ملابسها البالية القديمة.

«كلا. فقط سيارة لانشستر وسيارتي القديمة موريس.» وعندما بدا لها عدم تصديقهما قالت: «إن اسمي إريكا بيرجوين، ووالدي هو مدير الأمن.»

«حقًّا؟ إن اسمي هو جون دي روكفيلر، ووالدي هو دوق ويلينجتون.»

رفعت إريكا طرف تنورتها الصوفية الذي يحمل علامةً كتب عليها اسمها وقربتها منهما.

وقالت: «هل يمكنك القراءة؟»

قرأ الرجل المذهول ما كتب على العلامة باللون الأحمر: «إريكا إم بيرجوين.»

فقالت: «إنه خطأ كبير أن تصبح مفرطًا في الارتياب.»

حدَّق فيها هاري بخُبث، محاولًا استعادة ثباته: «إذن فأنت تفعلين هذا من أجل سائق، أليس كذلك؟ أنت مهتمة للغاية بسائق، أليس كذلك؟»

قالت إريكا: «أنا واقعة في غرامه»، قالتها بنبرة كما لو كانت تقول: «وعلبة ثقاب، من فضلك.» فإريكا لا تجيد التمثيل وفي مسرحيات المدرسة كانت هي المسئولة عن رفع وإنزال الستار فقط.

لكن الأمر مرَّ بسلام. فعقلاهما كانا مشغولين بالصفقة أكثر من الاهتمام بالعاطفة.

قالت المرأة: «كم ستدفعين؟»

«مقابل المعطف؟»

«كلا، مقابل إخبارك أين ستجدينه.»

«لقد أخبرتك، سأدفع عشرة شلنات.»

«لا يكفي.»

«لكن كيف أعرف أنك ستخبرينني بالحقيقة؟»

«كيف نعرف نحن أنك تقولين الحقيقة؟»

«حسنًا، سأدفع جنيهًا. فما زال يتوجب عليَّ شراؤه من متجر الرهن، كما تعلمين.»

قال الرجل: «إنه ليس في متجر رهن. لقد بعته للحجَّار.»

صاحت إريكا في يأس: «ماذا؟! هل سيتوجب عليَّ البدء في البحث عن شخص آخر؟»

«أوه، لا داعي للبحث، لا داعي على الإطلاق، سلميني النقود، وسأخبرك أين ستجدين الرجل.»

أخرجت إريكا ورقة نقود من فئة الجنيه وأرته إياها. «حسنًا، أخبرني؟»

«إنه يعمل في مفترق طرق فايف ونتس، على طريق بادوك وود. وإذا لم يكن هناك، فهو يعيش في كوخ في كابل. بالقرب من الكنيسة.»

أمسكت إريكا بالورقة النقدية. لكن المرأة رأت محتويات كيس النقود.

وقالت وهي تقف بين إريكا وطريق المغادرة عبر الغابة: «انتظر، يا هاري! سوف تدفع أكثر.»

قالت إريكا بحسم: «أنا لن أعطيك بنسًا واحدًا زيادة.» وتغلب الغضب على وعيها بوجود البركة العميقة، والسكون، وعدم ارتياحها في الغابات. فأضافت: «هذا غش.»

حاولت المرأة الإمساك بكيس نقودها؛ لكن إريكا كانت تمارس لعبة اللاكروس في فريق مدرستها في الشتاء الماضي. فارتطمت اليد المتلهفة لكويني، مع دهشتها الكبيرة، بذراع إريكا الأخرى وليس بكيس النقود، وارتفعت تلك الذراع لتضرب وجهها بعنف مفاجئ. والتفت إريكا حول جسدها الضخم وركضت عبر المنطقة المنزوعة الأشجار مثلما كانت تجري في خط متموج، أثناء ممارستها تلك اللعبة في أيام الشتاء وهي تشعر تارة بالملل، وتارة بالبهجة.

سمعتهما يعدوان وراءها، وتساءلت ماذا سيفعلان بها إذا أمسكاها. لم تكن تخشى المرأة، لكن الرجل كان ضئيلًا وخفيفًا، ورغم أنه سكران من الممكن أن يكون سريعًا. وهو يعرف المسار جيدًا. وسط ظلال الأشجار، بعد الشمس الساطعة، لم يكن بإمكانها رؤية الطريق جيدًا. وتمنت لو أنها قالت إن هناك من ينتظرها في السيارة. كان هذا ...

وتعثرت قدمها في أحد الجذور، فتدحرجت حول نفسها عدة مرات.

سمعت صوت خطواته المكتوم على المسار الناعم، وبينما تعتدل وتجلس ظهَر وجهه، كما لو كان يسبح نحوها، فوق الشجيرات القصيرة. وخلال ثوانٍ قليلة سيصبح فوقها. لقد سقطت بشدة لأنها كانت لا تزال تمسك بأشياء في كلتا يديها. فنظرت لترى ماذا كانت تمسك. فوجدت في يدٍ التمثالَ الخزفي؛ وفي الأخرى كيس النقود و... الصافرة.

الصافرة! ومن ثم وضعتها في فمها وأصدرت نوعًا من الإيقاع. طويلة وقصيرة، مثل كود. كانت إشارة صوتية.

عند سماع الصوت توقَّف الرجل، على بُعد ياردات قليلة منها، وهو متشكك.

وصاحت بأعلى صوت لها: «هارت! يا هارت!» وأطلقت الصافرة مرة أخرى.

قال الرجل: «حسنًا، حسنًا! يمكنك أن تستنجدي بهارت. وفي يوم من الأيام سأخبر أباك بما يحدث في منزله. وأراهن أنك ستدفعين لي أكثر من جنيه فقط عندئذٍ، يا سيدتي!»

قالت إريكا: «إلى اللقاء. اشكر زوجتك نيابةً عني على الصافرة.»

الفصل الرابع عشر

قال مدير الأمن، وهو يرتدي معطف المطر: «وبالطبع، إن ما تحتاج إليه، أيها المفتش، هو الراحة. استرخاء لبعض الوقت. أنت تُنهك نفسك في العمل بشدة. وهذا لن يقودك إلى أي مكان. إلا إلى المقبرة. نحن الآن في يوم الجمعة، وأنا أكاد أقسم أنك لم تنم لليلةٍ كاملة أو تحصل على وجبةٍ لائقة هذا الأسبوع. هذا أمرٌ سخيف! لا يجب أن تأخذ الأمر على قلبك بهذا الشكل. إن المجرمين كانوا يهربون وسيظلون يهربون.»

«ليس مني أنا.»

«إذن فقد فات الأوان. هذا كل ما في الأمر. فات أوان الحديث. الجميع يرتكب أخطاء. من كان يظن أن بابًا في غرفة نوم هو مهرب طوارئ الحريق، على أي حال؟»

«كان يجدر بي أن أفتش الخزانات.»

«أوه، يا سيدي العزيز الطيب ...!»

«الباب الأول فتح باتجاهي، بحيث أستطيع أن أرى الداخل. وعندما فتح الثاني كان قد خدعني كي ...»

«أنا أرى أنك تفقد القدرة على الحكم الصائب! وإذا لم تحصل على القدر الكافي من الراحة، فستبدأ في رؤية الخزانات في كل مكان. وستصبح مثلما يقول السيرجنت ويليامز «مخفقًا في وظيفتك.» ستأتي لتناول العشاء معي ولا تحاول التهرب! إن المنزل على بُعد عشرين ميلًا.»

«لكن في هذه الأثناء قد يحدث ...»

«لدينا هاتف، وقد طلبَت مني إريكا أن أحضرك معي. وقالت إنها ستوصي بإحضار المثلجات على وجه الخصوص. هل تحب المثلجات؟ على أي حال، لقد قالت إن لديها شيئًا ستريه لك.»

سأل جرانت وهو يبتسم: «هل هي الجراء؟»

«لا أعلم. ربما. يبدو لي أن الكلاب تُنجب طَوال العام في ستاينس. ها هو بديلك المتميز. مساء الخير، يا سيرجنت.»

قال ويليامز، وقد توردت وجنتاه بعد تناول غدائه المتأخر: «مساء الخير، يا سيدي.»

«سأصحب المفتش جرانت لتناول العشاء في منزلي.»

«هذا خبر مبهج، يا سيدي. سيفيد المفتش كثيرًا أن يتناول وجبة لائقة.»

«هذا هو رقم هاتفي، في حالة ما إذا أردت التحدث معه.»

اتسعت ابتسامة جرانت وهو يشاهد الروح المرتفعة التي انتصرت للإمبراطورية. لقد كان متعبًا للغاية. وكان الأسبوع عبارة عن معاناة طويلة. وكانت فكرة الجلوس لتناول وجبة في غرفة هادئة وسط أناس مسترخين، تشبه استعادة أجواء السعادة التي كان يعرفها منذ زمن طويل مضى وكاد ينساها. وعلى نحوٍ تلقائي جمَّع الأوراق معًا على المكتب.

وقال وهو يمسك بقبعته: «لنقتبس أحد أقوال السيرجنت ويليامز المفضلة: «بصفتي محققًا فأنا موظف محترم.» شكرًا لك، أود أن آتي لتناول العشاء. إنه تصرُّف نبيل من الآنسة إريكا أن تفكر فيَّ.»

«إن إريكا تفكر كثيرًا فيك. رغم أنها كقاعدة عامة ليست من الشخصيات السريعة التأثر. لكن يبدو أنك شخصية مؤثرة، على ما يبدو.»

«للأسف لدي منافس قوي.»

قال بينما يتوجهان إلى السيارة: «أوه، أجل. أوليمبيا. أنا أتذكر. أنا لا أعرف الكثير عن تربية الأطفال، كما تعلم، يا جرانت.» وأضاف: «إن إريكا هي ابنتي الوحيدة. وقد ماتت والدتها عندما ولدت، فجعلت من نفسي رفيقًا لها بدلًا من تركها تكبر في الحضانة. كنت أنا ومربيتها العجوز دائمًا ما نتجادل بهذا الخصوص. وهي سيدة شديدة التمسك بالنظام من حيث السلوك والإتيكيت. ثم ذهبت إلى المدرسة. يجب أن تكتشف إمكانياتك وقدراتك، وهذا هو جوهر التعليم؛ أن تتعلم التعامل مع الناس. لم تعجبها المدرسة، لكنها واظبت عليها. إنها فتاة شجاعة، بالفعل.»

قال جرانت بإخلاص: «أعتقد أنها طفلة رائعة»، مجيبًا على لهجة «التبرير» ونظرة الكولونيل القلقة.

«تلك هي المشكلة يا جرانت، تلك هي المشكلة! إنها لم تَعُد طفلةً. يجب أن تخرج إلى المجتمع. وتذهب إلى الحفلات الراقصة. وتقيم مع عماتها في المدينة وتقابل الناس. لكنها لا تريد ذلك. فقط تبقى في المنزل وتتصرف بلا قيود. وهي لا تهتم بالملابس أو أدوات

التجميل أو أي من الأشياء التي يجب أن تهتم بها في سنها هذه. إنها في السابعة عشرة من عمرها، كما تعلم. وهذا يقلقني. لقد اعتادت التجول في كل مكان بسيارتها الصغيرة تلك. وأنا لا أعرف أين تكون في أغلب الوقت. لا يعني ذلك أنها لا تخبرني إذا سألت. فهي دائما طفلة صادقة. لكن هذا يقلقني.»

«لا أظن أن هناك ما يدعو للقلق، يا سيدي. سوف تصنع سعادتها بنفسها. سترى ذلك. من النادر أن تقابل أي شخص في هذا العمر لديه معرفة أكيدة بما يريده.»

قال الكولونيل: «حسنًا. وهي تحصل عليه أيضًا! إن جورج سيحضر لتناول العشاء معنا. جورج مير. ابن عم زوجتي. ربما تعرفه؟ إنه طبيب أعصاب.»

«أعرفه جيدًا بالسمعة، لكنني لم أقابله من قبل.»

«إن إريكا هي من دعته. وهو رجل لطيف، لكنه ممل قليلًا. وأنا لا أفهم ما يتحدث عنه أغلب الوقت. ردود الفعل، وأشياء من هذا القبيل. ولكن يبدو أن إريكا تفهم تلك اللغة. ومع ذلك فهو يمثل فرصةً عظيمة. رجل لطيف!»

كان السيد جورج بالفعل رجلًا لطيفًا. أعجب جرانت عندما رآه، وبملاحظة وجهه النحيل، شعَر أن بعض السمات الأخرى فيه قد أعجبت إريكا للتغلب على خصائصه الجسدية. وهو بالتأكيد شخص لطيف، إذ لم يتصف بالتفاخر أو التعالي الشائع جدًّا في ويمبول ستريت. وكان اختبارًا لقدراته، أنه استطاع مواساة جرانت بشأن إخفاقه دون جعل جرانت يريد ضربه. في الواقع، لجأ جرانت إليه وهو في ضيق شديد، كما يلجأ لشخص سيتفهم ذلك. كان هذا رجلًا يمثل له الفشل الإنساني أمرًا عاديًّا للغاية.

لقد طلب الكولونيل بيرجوين عدم ذكر قضية كلاي أثناء العشاء، لكنه ربما طلب أمرًا مستحيلًا. فقبل الانتهاء من تناول السمك، كانوا جميعًا، ومن بينهم الكولونيل، يتحدثون عن تيسدول. الجميع باستثناء إريكا، التي جلست عند طرَف الطاولة مرتدية فستانها الأبيض الوقور المخصص لحفلات العشاء المدرسية، وهي تستمع بهدوء. كانت قد وضعت مساحيق التجميل على وجهها، لكنها لم تَبدُ أكبر مما كانت عليه في النهار.

قال جرانت ردًّا على سؤال مير: «لم نقتفِ أثره على الإطلاق. لقد اختفى تمامًا منذ اللحظة التي غادر فيها الفندق. أوه، كانت هناك عشرات الروايات عن رجالٍ يشبهونه، بالطبع. لكنها جميعًا لم تُفضِ إلى أي شيء. لا نعرف شيئًا أكثر مما عرفناه يوم الإثنين الماضي. ربما كان ينام بالخلاء، في الليالي الثلاث الأولى. لكنك تعرف كيف كانت الليلة الماضية. حيث هطلت السيول. ولا يمكن حتى لحيوانٍ أن يبقى في الخارج. لا بدَّ أنه وجد

مأوًى في مكان ما، إذا كان لا يزال على قيد الحياة. لم تكن العاصفة محلية. هناك فيضانات من هنا حتى نهر التاين. ومع ذلك، فقد مضى يوم كامل آخر وليس هناك أي معلومة عنه.»

«هل هناك فرصة لهروبه عن طريق البحر؟»

«ليس من المحتمل. الغريب أنه لا يهرب مجرم واحد من بين الألف بهذه الطريقة.»

قال مير وهو يضحك: «هذا كثير على العرق البشري الذي يسكن جزيرتنا! فالبحر هو آخر شيء يفكرون فيه. كما تعلم، أيها المفتش، لا أعرف ما إذا كنت تعرف ذلك، لكنك جعلت الرجل ينبض بالحياة خلال النصف ساعة التي تحدثنا فيها. وهناك شيء آخر جعلته واضحًا، على ما أعتقد؛ شيء ربما أنت نفسك لا تعيه.»

«ما هو؟»

«لقد فوجئت في أعماق قلبك بأنه فعل ذلك. وربما شعرت بالأسف حتى. ولم تصدق ذلك.»

قال جرانت، وهو يبتسم: «أجل، أعتقد أن هذا صحيح. كنت ستأسف أنت نفسك، يا سير جورج. إنه منطقي للغاية. وتمسك بالحقيقة بقدر ما كانت تخدمه. وكما أخبرتك، لقد تحققنا من أقواله من البداية إلى النهاية. وهي صحيحة بقدر ما يمكن التحقق منه. ولكن هذه القصة الهزيلة حول سرقة السيارة! وفُقدان معطفه ... المعطف المهم للغاية!»

«الغريب أنني لا أعتقد أن واقعة السرقة غير قابلة للتصديق كما تبدو. كان تفكيره الرئيسي في الأسابيع القليلة الماضية هو الهروب. الهروب من وصمة ثروته التي أُنفقت، ومن صحبته (التي يبدو أنه بدأ في معرفة قيمتها الحقيقية)، ومن ضرورة كسب لقمة العيش مرة أخرى (كان التسكع فكرة مجنونة تمامًا، في حالة صبي ذي صلات مؤثرة، مثل سرقة السيارة: فكرة الهروب مرة أخرى)، ثم الهروب أخيرًا من الوضع المبهم في الكوخ. لا بدَّ أنه تطلع، كما تعلم، بخوفٍ لا شعوري إلى المغادرة التي كانت من المقرر أن تحدث خلال يوم أو يومين. كان في حالة انفعالية للغاية بسبب اشمئزازه من نفسه واستجوابه لنفسه (في الأساس ما أراد الهروب منه هو نفسه). في لحظة الهمة المنخفضة (السادسة صباحًا) عرضت عليه وسيلة للهروب المادي. ريف مهجور وسيارة مهجورة. واستحوذت عليه الفكرة وقتها. وعندما تعافى شعَر بالفزع، كما يقول. فانعطف بالسيارة دون الحاجة إلى إعادة التفكير، ثم عاد بأقصى سرعة ممكنة. حتى يوم احتضاره لن يفهم أبدًا ما الذي جعله يسرق السيارة.»

قال الكولونيل بنوع من النقد اللاذع: «لن تصبح السرقة جريمة على الإطلاق قريبًا، بسببكم أيها المتخصصون.»

قال جرانت لمير: «ليست نظرية سيئة، يا سيدي. هل يمكنك تبرير الحكاية الهزيلة التي قصها عن المعطف أيضًا؟»

«إن الحقيقة غالبًا ما تكون هزيلةً للغاية، ألا تعتقد ذلك؟»

«هل تتبنى وجهة النظر التي ترى أن الرجل قد يكون بريئًا؟»

«لقد فكرت في ذلك.»

«لماذا؟»

«أنا أثق تمامًا بحكمك.»

«حكمي؟»

«أجل. لقد فوجئت بأن الرجل فعل ذلك. وهذا يعني أن انطباعك الأول قد حجبَته الأدلة الظرفية.»

«في الحقيقة، أنا منطقي وخيالي على حدٍّ سواء. وهذا شيء جيد، لأنني ضابط شرطة. قد تكون الأدلة ظرفية لكنها مُرضية للغاية ومرتبة.»

«مرتبة أكثر مما ينبغي، ألا تشعر بذلك؟»

«اللورد إدوارد قال ذلك. لكن لا يوجد شرطي يشعر أن الأدلة مُحكَمة أكثر مما ينبغي، يا سير جورج.»

قال الكولونيل: «تشينس المسكين! إن الأمر مُحزِن للغاية بالنسبة إليه. لقد كانا زوجين مخلصَين للغاية، حسبما قيل لي. وهو رجل لطيف. لم أكن أعرفه، لكنني عرفت الأسرة في أيام شبابي. هم أناس طيبون. أمر محزن للغاية بالنسبة إليهم!»

قال مير: «سافرت معه من دوفر يوم الخميس. لقد أتيت من كاليه — حيث عدت لتوي من مؤتمرٍ طبي في فيينا — وانضم هو إلى قطار الباخرة مع وقار تشينس المعتاد في دوفر. بدا سعيدًا جدًّا بالعودة. وأراني بعض الأحجار الكريمة التي أحضرها من جاليريا لزوجته. كانا يتراسلان كل يوم عبر البرقيات، على ما يبدو. وقد وجدت ذلك أكثر إثارة للإعجاب من الأحجار الكريمة نفسها، إذا أردتما الصراحة. كون البرقيات الأوروبية على ما هي عليه.»

«انتظر لحظة، يا سير جورج. هل تقصد أن تشينس لم يأتِ على متن الباخرة من كاليه؟»

«كلا، أوه، كلا. لقد عاد إلى الوطن على متن يخت. اسمه بترونيل. إنه ملك لأخيه الأكبر، لكنه أعاره إلى إدوارد من أجل رحلة العودة من جاليريا. إنه يخت صغير مبهج. كان يرسو في المرفأ.»

«إذن متى وصل اللورد إدوارد إلى دوفر؟»

«في الليلة السابقة، على ما أعتقد. في وقت متأخر للغاية بحيث لم يستطع الذَّهاب إلى المدينة.» توقف مؤقتًا ونظر بتساؤل إلى جرانت. ثم قال: «لا المنطق ولا الخيال سيجعلان إدوارد تشينس في موضع اشتباه.»

«أنا أدرك ذلك.» واصل جرانت بهدوء إخراج البذرة من ثمرة الخوخ، وهي العملية التي علقها فجأة عند سماعه عبارة مير حول انضمام تشينس إلى قطار الباخرة. وقال: «إن الأمر ليس له أهمية. إنها عادة الشرطة في التحقيق.»

لكن عقله كان مليئًا بالدهشة والتخمين. لقد جعله تشينس بشكل واضح يفهم أنه عبر من كاليه صباح الخميس. ليس بالكلمات بل ضمنًا. كان جرانت قد قال ملاحظة عادية؛ شيئًا عن الإقامة في البواخر الجديدة، ومن ثم ألمَحَ تشينس في رده إلى أنه كان على متن باخرة في ذلك الصباح. لماذا؟ كان إدوارد تشينس في دوفر ليلة الأربعاء، وكان مترددًا في جعل هذه الحقيقة معروفة. لماذا؟ بحق كل ما هو منطقي، لماذا؟

نظرًا لأن فترة توقف محرجة تلت الكشف عن وجود تشينس في إنجلترا، قال جرانت على نحوٍ مرح: «إن الآنسة إريكا لم تُرني الجراء، أو أيًّا كان ما ستعرضه عليَّ.»

ولدهشة الجميع، تورَّد وجه إريكا. كان هذا حدثًا لم يُسمع به من قبل لدرجة أن الرجال الثلاثة حدَّقوا فيها.

فقالت: «ليس الجراء. إنه شيء كنت تريده للغاية. لكنني أخشى بشدة أنك لن تصبح سعيدًا به.»

قال جرانت، متسائلًا عما تخيلت الطفلة أنه يريده: «يبدو الأمر مثيرًا.» كان يأمُل أنها لم تجلب له شيئًا. إن تقدير الأبطال أمر جيد، لكن من المحرج أن تُعطيَه شيئًا أمام مرأى ومسمع من الناس. وأضاف: «أين هو؟»

«إنه في لِفافة في غرفتي. لقد فكرت أن أنتظر حتى تنتهيَ من تناول مشروبك.»

سأل والدها: «هل هو شيء يمكنك إحضاره إلى غرفة الطعام؟»

«أوه، أجل.»

«إذن سيحضره بيرت.»

صاحت وأبعدت يد والدها عن الجرس: «أوه، كلا! سأحضره أنا. لن يستغرق الأمر دقيقة.»

عادت وهي تحمل لِفافةً كبيرة من الورق البني، قال والدها إنها تشبه يوم هدية جيش الخلاص. ففتحتها وأخرجت معطف رجل، لونه أسود مائل للرمادي.

وقالت: «هذا هو المعطف الذي كنت تريده. لكنه محتفظ بكل أزراره.»

أخذ جرانت المِعطف تلقائيًّا، وفحصه.

سألها والدها، مندهشًا: «عجبًا، من أين حصلت على هذا يا إريكا؟»

«اشتريته مقابل عشرة شلنات من حجَّار في بادوك وود. وقد اشتراه من متسكع مقابل خمسة شلنات، وظن أنه صفقة رابحة لدرجة أنه لم يكن يريد التنازل عنه. لذا كان عليَّ أن أتناول الشاي البارد معه، وأستمع لما فعله حرس الحدود في الأول من يوليو، وأشاهد ندبة الرَّصاص على عظمة ساقه، قبل أن يتخلى عن المعطف. وكنت أخشى أن أذهب وأتركه معه حتى لا يبيعه لشخصٍ آخر، ولا أجده مرة أخرى.»

سأل جرانت: «ما الذي يجعلك تظنين أن هذا هو معطف تيسدول؟»

قالت: «هذا»، وأظهرت حرق السيجارة. وأضافت: «قال لي أن أبحث عن ذلك.»

«من قال؟»

«السيد تيسدول!»

قال الرجال الثلاثة دفعة واحدة: «من؟»

«التقيت به بالصدفة يوم الأربعاء. ومنذ ذلك الحين وأنا أبحث عن المعطف. وقد حالفني الحظ للغاية.»

«التقيت به! أين؟»

«في طريق بالقرب من ملينجفورد.»

«ولم تبلغي عنه؟» كان صوت جرانت صارمًا.

«كلا.» ارتجف صوتها قليلًا، ثم تابعت بثبات. «كما ترى، لم أصدق أنه ارتكب الجريمة. وأنا معجبة بك للغاية. فاعتقدت أنه سيصبح من الأفضل لك إذا أمكن إثبات براءته قبل القبض عليه بالفعل. وعندئذٍ لن تُضطر إلى إطلاق سراحه مرة أخرى. فالصحف ستقول كلامًا مروعًا بشأن ذلك.»

ساد صمت مذهول للحظة.

ثم قال جرانت: «ويوم الأربعاء قال لك تيسدول أن تبحثي عن هذا.» ورفع القطعة المحترقة إلى الأمام، بينما نهض الآخران من مكانيهما لفحصها.

قال مير: «لا توجد علامة على استبدال زر. هل تعتقد أنه المعطف؟»

«ربما. لا يمكننا تجربته على تيسدول، ولكن ربما تتمكن السيدة بيتس من التعرف عليه.»

تمتم الكولونيل: «لكن ... لكن، إذا كان هذا هو المعطف، فهل تدرك ما يعنيه ذلك؟»

«تمامًا. هذا يعني البدء من جديد.»

وقعت عيناه المتعبتان، والباردتان من خيبة الأمل، على عينَي إريكا الرماديتين المتعاطفتين، لكنه رفض تعاطفهما. كان من السابق لأوانه التفكير في إريكا كمنقذ محتمل له. في هذه اللحظة كانت مجرد شخص ألقى بمفتاح ربط في الآلة.

ومن ثم قال: «يجب أن أعود. هل يمكنني استخدام هاتفك؟»

الفصل الخامس عشر

تعرفت السيدة بيتس على المعطف. لقد جففته على موقد المطبخ ذات يوم عندما سرَّب عليه وعاء ترموس الماء الساخن بعض الماء. وقد لاحظت حرقَ السيجارة آنذاك.

كما وجد السيرجنت ويليامز، وهو يستجوب المزارع الذي تعرَّف إلى سيارة تيسدول، أنه مصاب بعمى الألوان.

إن الحقيقة ظاهرة بوضوح مؤلم. لقد فقد تيسدول معطفه من السيارة يوم الثلاثاء. كما ابتعد بالسيارة عن الشاطئ بالفعل. وهو لم يقتل كريستين كلاي.

بحلول الساعة الحادية عشرة مساء يوم الجمعة، واجه جرانت حقيقة أنهم عادوا لنفس النقطة في القضية التي كانوا عندها قبل أسبوع، عندما ألغى حجزه لمقعد في المسرح وحضر إلى ويستوفر. والأسوأ من ذلك، أنهم طاردوا رجلًا حتى هرب واختبأ، وقد أضاعوا سبعة أيام في تحقيقٍ عديم الجدوى، بينما هرب الرجل الذي أرادوه.

اصطخب عقل جرانت بمزيج من النهايات المكسورة والحقائق غير المترابطة.

هارمر. لقد عاد إلى الصورة الآن، أليس كذلك؟ لقد فحصوا قصته بأكملها. لقد أجرى بالفعل تحريات، وسأل مالك بستان الكرز، ومكتب البريد في ليدلستون في الأوقات التي حددها. لكن ماذا بعد ذلك؟ بعد ذلك لم يعرف أحد أيَّ شيء عن تحركاته حتى دخل الكوخ في ميدلي، في وقت ما بعد الثامنة صباح اليوم التالي.

كما أن هناك — على نحوٍ لا يصدق! — إدوارد تشينس، الذي عاد بهدية من الأحجار الكريمة لزوجته، لكنه، لسببٍ ما، لم يكن راغبًا في التحقيق في تحركاته ليلة الأربعاء تلك. لا يمكن أن يكون هناك سبب آخر لرغبته في جعل جرانت يعتقد أنه وصل إلى إنجلترا صباح الخميس. وهو لم يأتِ إلى إنجلترا سرًّا. إذا كنت ترغب في الوصول سرًّا إلى بلد ما، فإن الوصول إلى ميناء مزدحم على متن يخت ليس هو السبيل للقيام بذلك. مدير الميناء وموظفو

الجمارك هم أناس فضوليون بطبعهم. لذلك لم تكن حقيقة وصوله هي ما أراد إخفاءه، ولكن الطريقة التي شغل بها وقته منذ ذلك الحين. كلما فكر جرانت في الأمر، أصبح أكثر غرابة. لقد كان تشينس في دوفر ليلة الأربعاء. وفي السادسة من صباح الخميس، لقيت زوجته المحبوبة حتفها. ولم يرغب تشينس في التحقيق في تحركاته. أمر غريب للغاية!

كما أن هناك، أيضًا، «شلن واحد من أجل الشموع.» هذا الأمر، الذي جذب اهتمامه في البداية ثم نحَّاه جانبًا لصالح خيوط أكثر وضوحًا يجب التحقيق فيها.

في صباح يوم السبت حملت الصحف، التي بدأت تملُّ من مطاردة رجل لمدة أربعة أيام، الأخبار السارة بأن الرجل المطارَد بريء. «معلومات جديدة وصلت إلى الشرطة.» كان من المتوقع بثقة أن يسلم تيسدول نفسه قبل حلول الظلام، وعلى هذا الأمل، ظل الصحفيون والمصورون يتجولون في قسم شرطة المقاطعة في ويستوفر؛ بمزيد من التفاؤل أكثر من المنطق، على ما يبدو، حيث كان من المحتمل أن يُسلِّم تيسدول نفسه في قسم على بعد أميال.

لكن تيسدول لم يسلم نفسه في أي مكان.

تسبب هذا في إثارة الدهشة في ذهن جرانت المشغول عندما كان يجد لحظة لتذكر تيسدول؛ لكن ذلك لم يحدث كثيرًا. تساءل لماذا لم يتمتع تيسدول بقدرٍ كافٍ من العقل والمنطق يجعله يخرج من مخبئه في الخلاء. لقد أمطرت مرة أخرى ليلة الجمعة وهبت عاصفة شمالية ممطرة طَوال يوم السبت. يظن المرء أنه سيصبح سعيدًا برؤية قسم للشرطة. وهو ليس مختبئًا عند أيٍّ من أصدقائه القدامى، هذا أمر مؤكد. لقد جرت مراقبتهم جميعًا بكفاءة عالية خلال الأيام الأربعة التي كان فيها «مطلوب القبض عليه.» استنتج جرانت أن تيسدول لم يرَ صحيفة بعد، وتوقف عن التفكير في الأمر.

ومن ثم وجَّه الآلية الرسمية كي تتحرك لاكتشاف مكان شقيق كريستين كلاي؛ وبدأ سلسلة من التحريات التي تهدف لإثبات أن جيسون هارمر كان يمتلك معطفًا داكنًا وتخلَّص منه مؤخرًا وأن به زرًّا مفقودًا. كما تولى هو بنفسه التحقيق الخاص باللورد إدوارد تشينس. وأدرك بوعيه الذاتي المعتاد أنه لا ينوي الذَّهاب إلى تشينس وطلب معرفة تحركاته في ليلة الأربعاء. فمن ناحية، سيصبح هذا أمرًا محرجًا للغاية، إذا أثبت تشينس أنه نام بسلام في سريره طَوال الليل. أو أنه قضى ليلته مع اللورد واردن. أو بخلاف ذلك كانت لديه حُجة غياب مثالية. ومن ناحية أخرى ... أوه، حسنًا، لم يكن هناك مفر من حقيقة أن المرء لا يطلب المعلومات من ابن حسب ونسب مثلما يطلبها من بائع متجول. إنه عالم فاسد، بلا شك، لكن يجب على المرء أن يتوافق معه.

علم جرانت أن اليخت بترونيل قد ذهب في رحلةٍ إلى كاوز، حيث سيعيش مالكه، جايلز تشينس، على متنه لمدة أسبوع من أجل سباق القوارب في كاوز. ومن ثم، في صباح يوم الأحد، طار جرانت إلى جوسبورت، وركب قاربًا عبر مياه سبيتهيد المتلألئة إلى الجزيرة. أما المياه التي كانت بالأمس مضطربة مزبدة بسبب هبوب الرياح والأمطار، فقد أصبحت الآن بحرًا متوسطيًّا ذا لون أزرق ساحر. إن الصيف الإنجليزي يسير على النحو المعتاد تمامًا.

ألقى جرانت صحف الأحد على المقعد المجاور له واستعد للاستمتاع بالعبور. ثم لفت نظره عنوان صحيفة «صنداي نيوزريل»: الحقيقة حول حياة كلاي المبكرة. ومرة أخرى جذبته القضية إلى داخلها. في يوم الأحد السابق، نشرت صحيفة «صنداي واير» مقالها «المُطوَّل» الرئيسي وهو مقال يستدر الدموع كتبه أمير الصحفيين، جامي هوبكينز. تألَّف المقال من مقابلة مع عاملة في مصنع دانتيل في نوتينجهام، الآنسة هيلين كوزينز، التي كانت، على ما يبدو، معاصرةً لكريستين كلاي في المصنع. وقد تطرق بشكل مؤثر لإخلاص كريس لعائلتها، وشخصيتها المبهجة، وعملها الممتاز، وعدد المرات التي ساعدتها فيها الآنسة هيلين كوزينز بطريقة أو بأخرى، وانتهى بلمسة هوبكينز الحقيقية للاجتماعية. وأشار إلى أن مصير إحدى هاتين الصديقتين كان هو الصعود إلى النجوم لإسعاد الملايين وتنوير العالم. لكن هناك مصائر أخرى متوهجة وإن كانت أقل إثارة؛ وهيلين كوزينز، في منزلها الصغير المكون من غرفتين، وهي تعتني بأم مريضة، كان لها مصير لا يقل روعة، ويستحق تكريم العالم. إنها مقالة جيدة، وكان جامي مسرورًا بها.

الآن ظهرت صحيفة «صنداي نيوزريل» مع مقابلة خاصة بها. وقد تسببت في الابتسامة الوحيدة التي استمتع بها جرانت هذا الأسبوع. أجريت المقابلة مع السيدة ميج هيندلر. وكانت فيما مضى عاملة مصنع، ولكنها الآن أمًّا لثمانية أطفال. وأرادت أن تعرف ما الذي تظن تلك العانس الملعونة نيل كوزينز أنها تتحدث عنه، وتمنت أن تنزل عليها صاعقة من السماء بسبب أكاذيبها، وإذا كانت والدتها تشرب الخمر، فالله وحده يعلم أن هذا ليس أمرًا عجيبًا، ما دامت بجوارها ابنة كئيبة متذمرة شكَّاءة كهذه، والجميع يعلم أن كريستينا جوتوبيد قد تركت المصنع وابتعدت عن المدينة قبل وقت طويل من وضع نيل كوزينز أنفها الملتوي في المكان على الإطلاق.

لم يتم وضعها على هذا النحو، ولكن بالنسبة إلى أي شخص يقرأ ما بين السطور كان الأمر واضحًا تمامًا.

كانت ميج تعرف كريستين حقًّا. وقالت إنها كانت فتاةً هادئة، تحاول دائمًا تطوير نفسها. ولم تكن تحظى بشعبية كبيرة بين رفيقاتها. وقد مات والدها وعاشت مع والدتها

وشقيقها في شقةٍ مُكوَّنة من ثلاث غرف. وكان الأخ أكبر سنًّا، وهو المفضل لدى الأم. وعندما كانت كريس في السابعة عشرة من عمرها ماتت الأم واختفت العائلة من نوتينجهام. فهم لا ينتمون إلى المدينة وليس لهم جذور هناك، ولم يأسف أحد عليهم عندما رحلوا. ولا سيَّما هؤلاء الذين لم يأتوا إلى المدينة إلا بعد سنوات.

تساءل جرانت عن رد فعل جامي تجاه أن تخدعه نيل ذات الخيال الواسع. إذن فقد كان الأخ الأكبر هو المفضل لدى الأم، أليس كذلك؟ تساءل جرانت عن مقدار ما يعنيه ذلك. شلن واحد من أجل الشموع. ما هو الخلاف الأسري الذي ترك مثل هذه العلامة بحيث يجب أن تخلده في وصيتها؟ أوه حسنًا! يظن الصحفيون أنهم بارعون، لكنَّ لدى إدارة سكوتلاند يارد طرقًا ووسائل غير معلومة للصحافة، وهي فعَّالة رغم ذلك. بحلول الوقت الذي يعود فيه الليلة، ستصبح حياة كريستين كلاي المبكرة على مكتبه بالتفصيل الكامل. ترك صحيفة «واير» والتفت إلى الصحف الأخرى في الرزمة. أقامت صحيفة «صنداي تليجراف» ندوة — وهي طريقة وقورة للغاية ورخيصة لملء صفحة. قدَّم الجميع من رئيس أساقفة كانتربري إلى جيسون هارمر وجهة نظره الشخصية عن كريستين كلاي وتأثير شخصيتها على فنها. (حيث تحب صحيفة «صنداي تليجراف» التأثير والفن. حتى الملاكمون لا يصفون لها اللكمات: إنهم يشرحون فنَّهم). كانت جميع الفقرات الصغيرة السخيفة تقليدية، باستثناء فقرة جيسون، التي تحتوي على إخلاص عنيف تحت عباراته السيئة. كانت مارتا هالارد لبقةً في تحدُّثها عن عبقرية كلاي، ولأول مرة أغفلت التغاضي عن أصلها المتواضع. أشاد وريث عرش أوروبي بجمالها. وطيار مقاتل بشجاعتها. وسفير بذكائها. لا بدَّ أن الأمر كلَّف صحيفة «التليجراف» الكثير من مكالمات الهواتف.

التفت جرانت إلى صحيفة «كورير»، ووجد أن الآنسة ليديا كيتس تقدم معلومات في جميع الصفحات الوسطى على علامات الأبراج الفلكية. وقد انخفضت أسهم ليديا قليلًا في دوائرها الخاصة خلال الأسبوع الماضي. وساد شعور بأنها إذا كانت قد توقعت نهاية حياة كلاي بمثل هذا الوضوح الشديد، فقد كان هناك ضعف في قدرتها، ما دامت لم تنتبه لتفصيلة صغيرة مثل القتل. لكنها كانت متألقة في نظر الجمهور. لم تكن محتالةً بأي شكل من الأشكال. لقد صرَّحت علانية، منذ عدة أشهر، بما تنبَّأت به النجوم لكريستين كلاي، وكانت النجوم على حق. وإذا كان هناك أي شيء يحبه الجمهور فهو نبوءة تتحقق. فقد طلبوا منها المزيد من النبوءات بينما تغمرهم مشاعر القلق والإثارة. وقد منحتهم ليديا ذلك. وظهرت بخط صغير في نهاية المقال معلومة توضح أنه، بفضل كرم صحيفة

«كورير»، يمكن لقُرائها الحصول على قراءة الأبراج من الآنسة كيتس البارعة بتكلفة شلن واحد، وهناك قسيمة في الصفحة الخلفية.

وضع جرانت الصحف الأصغر تحت ذراعه، واستعد للنزول من القارب. وشاهد بحَّارًا يلوي حبلًا ضخمًا حول عمود المرسى، وتمنَّى لو أنه اختار مهنةً تتعامل مع الأشياء وليس الناس.

كان اليخت بترونيل راسيًا على الرصيف. فاتفق جرانت مع مراكبي لتوصيله إلى اليخت. ودفع عامل سطح السفينة المسن غليونه في جيبه واستعد لاستقباله. فسأله جرانت عمَّا إذا كان اللورد جايلز على متن اليخت، وشعَر بسعادة عندما علِم أنه في باكينجهامشير. وعند سماعه أنه ليس متوقعًا عودته قبل أسبوع، أبدى جرانت إحباطه على نحوٍ مناسب، وسأل عما إذا كان من الممكن أن يصعد على متن اليخت؛ فقد كان يأمُل أن يسمح له جايلز بمشاهدة اليخت من الداخل. كان العامل مسرورًا وثرثارًا. فهو بمفرده على متن اليخت ويشعر بالملل الشديد. وسيصبح تغييرًا جيدًا أن يجعل صديق اللورد جايلز ذي المظهر الحسن يشاهد اليخت، ولا شك في أنه سيمنحه بقشيشًا سخيًّا. وقد قام بالمهمة بدقة أرهقت جرانت قليلًا، لكنه قدَّم له ثروة من المعلومات. وعندما علَّق جرانت على أماكن النوم الرائعة، قال الرجل إن اللورد جايلز لم يكن لينام أبدًا على الشاطئ إذا كان بإمكانه. لم يكن اللورد جايلز سعيدًا أبدًا إلا وهو في المياه المالحة.

قال جرانت: «واللورد إدوارد ليس مغرمًا بها»، فضحك الرجل.

«كلا، إن اللورد إدوارد لا يحب البحر. إنه يندفع إلى الشاطئ في اللحظة التي يرسو فيها اليخت أو يُلقى حبل الرسو على الرصيف.»

«أظن أنه مكث مع بيتشرز في الليلة التي ذهبتم فيها إلى دوفر؟»

لم يكن بحَّار اليخت يعرف بالفعل أين نام. كل ما كان يعرفه أنه لم يَنَم على متن اليخت. في الواقع، لم يرَوه مرةً أخرى. وقد أُرسلت حقيبة يده إلى قطار الباخرة وأُرسل الباقي إلى المدينة من بعده. بسبب الحادث المحزن الذي حدث لزوجته. هل رآها جرانت من قبل؟ إنها ممثلة سينمائية. وطيبة للغاية، أيضًا. إنها مروعة، أليس كذلك، تلك الأشياء التي تحدث في العائلات الطيبة هذه الأيام. حتى جرائم القتل. أحوال متقلبة بالفعل.

قال جرانت: «أوه، لا أعرف. إن العائلات القديمة في إنجلترا تعرضت لجرائم قتل أيضًا، إذا كانت كتب التاريخ تقول الحقيقة.»

كان الرجل سعيدًا جدًّا بالبقشيش الذي حصل عليه لدرجة أنه عرض عمل مشروب الكاكاو للزائر، لكن جرانت أراد الوصول إلى الشاطئ حتى يتمكن من التحدث إلى سكوتلاند

يارد. وفي طريق العودة تساءل كيف قضى تشينس تلك الليلة على الشاطئ. كان التفسير الأكثر ترجيحًا هو أنه أقام مع أصدقائه. ولكن إذا كان قد أقام مع أصدقاء، فلماذا الرغبة في تجنُّب الانتباه؟ كلما فكَّر جرانت في الأمر، وجده مخالفًا لشخصية الرجل أن يريد إخفاء أي شيء. كان إدوارد تشينس شخصًا يفعل ما يريد في وضح النهار ولا يهتم بمقدار ذرة للآراء أو العواقب. وجد جرانت صعوبةً في ربطه في ذهنه بأي نشاط خفي مهما كان. وهذه الفكرة بالذات أدت إلى تكملة منطقية ومذهلة إلى حد ما. لم يكن شيئًا تافهًا ذلك الذي توجَّب على تشينس إخفاءه. لا بدَّ أنه أمر ذو أهمية كبيرة ذلك الذي يدفع تشينس إلى المراوغة. ويمكن لجرانت أن يستبعد أيَّ فكرة عن علاقة حبٍّ عابرة. إذ إن سمعة تشينس، على أي حال، تكاد تقترب من التزمُّت. فإذا استبعد علاقة الحب فماذا بقي؟ ما هو النشاط المحتمل الذي يمكن لرجل من نوع تشينس أن يرغب في بقائه سرًّا؟ ما عدا القتل!

كان القتل ممكنًا. فإذا تحطم هذا الهدوء ولو مرة واحدة، فمن يدري ماذا قد يحدث؟ لقد كان رجلًا يعطي الإخلاص ويطالب به … ولن يرحم الخيانة. فلنفترض … كان هناك هارمر. ربما شك زملاء كريستين كلاي في أنها وهارمر كانا عاشقَين، لكن ذلك الرجل المنتمي للطبقة الراقية، غير المعتاد على شراكة العمل، لم يكن لديه أدنى شك. فهل أصبح تشينس يصدق ذلك؟ كان حبه وكريستين بعضهما لبعض حبًّا رصينًا متعقلًا، لكن كبرياءه سيصبح حقيقيًّا وهشًّا وعاطفيًّا. فهل …؟ كانت تلك فكرة! هل قاد سيارته إلى الكوخ في تلك الليلة؟ لقد كان هو، في نهاية الأمر، الشخص الوحيد الذي يعرف مكانها؛ فجميع البرقيات تقريبًا موجهة إليه. كان في دوفر، وكانت على بُعد ساعةٍ واحدة فقط منه. ما هو الشيء الطبيعي أكثر من أنه قد يسافر بالسيارة كي يفاجئها؟ وإذا كان الأمر كذلك …

طافت صورة في مخيلة جرانت. الكوخ وسط ظلام الصيف، والنوافذ المضاءة مفتوحة ليلًا، بحيث يمكن سماع كل كلمة، وكل حركة تقريبًا، في الخارج. وفي الحديقة ذات الشجيرات المزهرة المتشابكة يقف رجل، وقد استحوذت على انتباهه الأصوات. يقف هناك، صامتًا تمامًا، ساكنًا تمامًا، يراقب. وبعد برهة تنطفئ الأنوار. وبعد قليل يتحرك الرجل الواقف في الحديقة مبتعدًا. إلى أين؟ كي يفكر في عودته إلى المنزل؛ وفي خيانة زوجته له. ثم يتمشَّى عبر السهول العشبية حتى الصباح. إلى أن يراها تأتي إلى الشاطئ، على نحو غير متوقع، وحدها. ثم …

هزَّ جرانت رأسه والتقط سماعة الهاتف.

وقال لمحدثه: «إدوارد تشينس لم يقضِ ليلةَ الأربعاء على متن الباخرة. أريد أن أعرف أين قضاها. ولا تنسَ أن عدم لفت الانتباه هو الجزء الأهم. قد تجد أنه قضاها مع اللورد

واردن، أو أي شيء على نفس القدر من الرُّشد والالتزام، لكنني سأفاجأ إذا كان قد فعل. وستصبح فكرة جيدة إذا استطاع شخص ما أن يُصادق خادمه ويتفحَّص خزانة ملابسه بحثًا عن معطف داكن. أنت تعرف أن أقوى بطاقة لدينا هي أنه لا أحد خارج فريق البحث الجنائي يعرف معلومة عن هذا الزر. وحقيقة أننا طلبنا أن يجلب إلينا أي معطف مهمل عثر عليه لن تشي بتلك المعلومة لأي شخص. في اعتقادي، أن الاحتمالات هي عشرة إلى واحد، بخصوص أن المعطف لا يزال مع صاحبه. إن الاحتفاظ بمعطف، حتى مع وجود زر مفقود، أقل إثارة للشبهات من التخلص منه. وهذا البحث عن المعطف كان مجرد رسالة موجهة للشرطة فحسب، على أي حال، ولم تكن موجهةً للعامة. لذا فتش خزانة ملابس تشينس ... كلا، ليس لديَّ أي دليل ضده ... أجل، أعلم أن هذا تصوُّر مجنون. لكنني لن أخاطر بأي شيءٍ آخر في هذه القضية. فقط احرص على عدم لفت الانتباه، من أجل السماء. فأنا في موقفٍ سيئ بما يكفي بالفعل. ما الأخبار؟ هل ظهر تيسدول؟ ... أوه، حسنًا، أتوقع أنه سيفعل ذلك في الليل. قد يمنح الصحافة استراحة. إنهم ينتظرونه بفارغ الصبر. وكيف حال ملف كلاي؟ ... أوه. هل عاد فاين من مقابلة مساعدة كلاي للملابس — ما اسمها؟ بندل ... حتى الآن؟ كلا؟ حسنًا، سأعود مباشرة إلى المدينة.»

عندما أنهى جرانت المكالمة، أغلق عقله بسرعة على الفكرة التي حاولت السيطرة عليه. بالطبع كان تيسدول على ما يرام. ماذا يمكن أن يحدث لشخصٍ بالغ في الريف الإنجليزي في الصيف؟ بالطبع كان بخير.

الفصل السادس عشر

كان ملف كلاي يكتمل على نحوٍ جيد. حيث دلت التحريات على أن هنري جوتوبيد كان نجارًا يعمل في مزرعة بالقرب من لونج إيتون، وتزوج بعاملة غسيل في «السجن.» وقد لقيَ مصرعه في حادث طاحونة، وقد حصلت أرملته على معاشٍ ضئيل ... جزئيًّا لأن والده وجدَّه كانا خادمَين في مزرعة، وجزئيًّا لأنها لم تكن قوية بما يكفي للعمل. ونظرًا لأنها اضطُرت لإخلاء الكوخ في لونج إيتون، فقد أحضرت طفليها إلى نوتينجهام، حيث يوجد أمل أفضل في الحصول على عملٍ لهما. كانت الفتاة حينها في الثانية عشرة من عمرها والصبي في الرابعة عشرة. ومما يثير الفضول أنه أصبح من الصعب الحصول على معلومات عنها بعد ذلك. معلومات بخلاف السجل الرسمي المجرد، إذا جاز التعبير. وفي الريف، كانت التغييرات بطيئة، والاهتمامات مقيدة، والذكريات طويلة. أمَّا في الحياة المتقلبة للمدينة، حيث تبقى العائلة ربما ستة أشهر في منزل ثم تنتقل إلى منزلٍ آخر، كان الاهتمام سطحيًّا، هذا إذا كان موجودًا على الإطلاق.

أثبتت ميج هيندلر، بطلة مقالة صحيفة «نيوزريل»، أنها المساعدة الحقيقية الوحيدة. كانت امرأة ضخمة، عطوفة، طيبة القلب، ذات صوتٍ عالٍ، وكانت تُحكِم السيطرة على أطفالها الكثيرين، وفي الوقت نفسه تمنحهم الحنان المطلوب. كانت لا تزال تعاني قليلًا من رُهاب نيل كوزينز، لكن عندما أصبح من الممكن إبعادها عن مسار كوزينز، كانت مفيدة حقًّا. كانت تتذكر تلك العائلة، ليس بسبب تميُّزها أو وجود ما يُذكر عنها، ولكن لأنها كانت تعيش مع عائلتها في منزلٍ مقابل لمنزلهم، وكانت تعمل في نفس المصنع مع كريس، ومن ثم كانتا تعودان إلى المنزل معًا في بعض الأحيان. وكانت تحب كريس جوتوبيد حبًّا معتدلًا؛ لم توافق على أفكارها المتعالية، بالطبع؛ إذ إنك إذا كُتب عليك أن تكسِب رزقك من خلال العمل في مصنع، فعليك أن تكسِب رزقك من خلال العمل في مصنع، فلماذا تثير

ضجة حول ذلك؟ لم يكن الأمر أن كريس أحدثت ضجة، ولكن كان لديها طريقة لنفض غبار المصنع عنها كما لو كان ترابًا. وكانت ترتدي قبعة دائمًا. نوع من التكلف لا لزوم له. وقد عشقت والدتها، لكن والدتها لم تستطع رؤية أي شيء في الحياة سوى هربرت. وكان هربرت شخصًا سيئًا للغاية. قطعة من القمامة البشرية اللزجة، المتسللة، المتعفنة، المتعالية قلما تجد مثلها ولو ظللت تبحث عمرًا. لكن السيدة جوتوبيد اعتقدت أنه كان الأفضل في كل شيء. كان دائمًا يجعل الأمور صعبةً على كريس. تحدثت كريس ذات مرة مع والدتها للسماح لها بالحصول على دروس في الرقص — ولكن لماذا تريد دروس الرقص، لم تستطع ميج التفكير: عليك فقط مشاهدة الآخرين وهم يتحركون قليلًا وستحصل على الفكرة العامة، بعد ذلك يصبح الأمر مجرد ممارسة — ولكن عندما سمع هربرت عن ذلك، سرعان ما أوقف أي شيء من هذا القبيل. قال إنهم لا يستطيعون تحمُّل تكاليفه — لم يكن بمقدورهم تحمُّل أي شيء ما لم يكن هربرت يريده — وإلى جانب ذلك، كان الرقص شيئًا تافهًا، ولن يوافق عليه الخالق. عرف هربرت دائمًا ما يريده الخالق. لم يمنع فكرة درس الرقص فحسب، بل وجد طريقةً ما للحصول على المال الذي ادَّخرته كريس وكانت تأمُل في أن تزيد عليه والدتها للوصول إلى المبلغ المطلوب للحصول على دروس الرقص. وأشار إلى مدى أنانية كريس في توفير المال من أجل غاياتها الخاصة، بينما والدتهما في حالة فقر مدقع. تحدث كثيرًا عن صحة والدتهما السيئة لدرجة أن السيدة جوتوبيد بدأت تشعر بضعفٍ شديد بالفعل، وظلَّت طريحة الفراش. وساعد هربرت في أكل الأطعمة الشهية التي اشترتها كريس. وذهب هربرت مع والدته لمدة أربعة أيام إلى سكيجنس لأن كريس لم تتمكن من مغادرة المصنع، وتَصادفَ أن هذه كانت واحدةً من المناسبات العديدة التي كان فيها هربرت بدون وظيفة.

أجل، كانت ميج مفيدة. لم تكن تعرف ما حلَّ بالعائلة بالطبع. غادرت كريس نوتينجهام في اليوم التالي لجنازة والدتها، ولأن الإيجار قد دُفع حتى نهاية الأسبوع، فقد بقيَ هربرت بمفرده في المنزل لعدة أيام بعد ذلك. تذكر ميج ذلك لأنه كان لديه إحدى «مقابلاته» في المنزل — كان دائمًا ما يعقد مقابلاته حيث يمكنه سماع صوته — وكان الجيران يشتكون من ضجيج الغناء. كما لو لم يكن هناك خلافات كافية تدور دائمًا في شقةٍ مستأجَرة دون إضافة مقابلات إلى الأمر! أي نوع من المقابلات؟ حسنًا، بقدر ما يمكن أن تتذكر أنه بدأ بالخطب السياسية، لكنه سرعان ما انتقل إلى الدين؛ لأنه لا يهم كيف تخطب أمام جمهورك، فعندما يكون الدين هو الموضوع هم لا يرمون عليه الأشياء بسبب

استيائهم منه. هي شخصيًّا لم تعتقد أن ما كان يتحدث عنه يهمُّه ما دام أنه الشخص الذي يتحدث. لم تعرف أبدًا أي شخص لديه تفاخر بنفسه بلا سبب مثل هربرت جوتوبيد.

كلا، هي لا تعرف أين ذهبت كريس، أو ما إذا كان هربرت يعرف مكان وجودها. ومن خلال معرفتها بهربرت، هي تظن أن كريس ربما رحلت دون أن تقول وداعًا. لم تقل وداعًا لأي شخص، في واقع الأمر. كان شقيق ميج الأصغر، سيدني — وهو الآن في أستراليا — مولعًا بكريس، لكنها لم تُعطِه أيَّ تشجيع. لم يكن لديها أي محبوب، بكل تأكيد. من المضحك، فيما يبدو، أنها كانت ترى كريستين كلاي على الشاشة كثيرًا، لكنها لم تظن أبدًا أنها هي نفسها كريس جوتوبيد. لقد تغيرت كثيرًا، بكل تأكيد. لقد سمعت أنهم يصنعون منك شخصًا مختلفًا للغاية في هوليوود. ربما كان هذا هو السبب. وبالطبع مرت فترة طويلة بين سن السابعة عشرة وسن الثلاثين. انظر إلى ما فعلته بها سنوات قليلة، فكر في الأمر.

وقد ضحكَت ميج ضحكتها الطويلة وأدارت جسدها الضخم للمحقق، وأعطته كوبًا من الشاي المغلي مع تشكيلة من البسكويت الغني.

لكن المحقق — وهو سانجر الذي كان موجودًا في اليوم الذي هرب فيه تيسدول من الاعتقال، والذي كان أيضًا من معجبي كلاي — تذكر أنه حتى في أي مدينة هناك مجتمعات لها اهتمامات ضيقة وذكريات مثل التي لدى سكان أي قرية؛ ولذا فقد جاء في النهاية إلى المنزل الصغير في إحدى الضواحي خارج ترينت حيث عاشت الآنسة ستامرز مع كلب يوركشاير ترير صغير وراديو. وقد منحت كلًّا من الكلب والراديو عند تقاعدها. فهي لم تكن تملك الطموح ولا الدافع أبدًا بعد ثلاثين عامًا من التدريس في مدرسة بيسلي رود الابتدائية كي تحصل على أيٍّ منهما بنفسها. فقد كانت المدرسة هي حياتها، والمدرسة لا تزال تشغلها. وقد تذكرت كريستينا جوتوبيد بوضوح شديد بالفعل. ماذا يريد السيد سانجر أن يعرف عنها؟ ليس السيد؟ أأنت محقق؟ أوه، يا إلهي! كانت تأمُل ألَّا يكون هناك شيء خطير في الأمر. لقد مرَّ وقت طويل جدًّا، وبالطبع لم تكن على اتصال بكريستينا. فمن المستحيل البقاء على اتصال مع جميع تلاميذ المرء عندما يكون لديه ما يصل إلى ستين في الفصل. لكنها كانت طفلةً واعدةً بشكل استثنائي، واعدة بشكل استثنائي بالفعل.

سأل سانجر عمَّا إذا كانت لا تعرف أن تلميذتها الواعدة بشكلٍ استثنائي هي كريستين كلاي.

«كريستين كلاي؟ تقصد الممثلة السينمائية؟ يا إلهي! يا إلهي!»

ظنَّ سانجر أن التعبير غير كافٍ بعض الشيء إلى أن لاحظ أن عينيها الضيقتين اغرورقتا فجأةً بالدموع. ومن ثم خلعت نظارتها ومسحتها بمنديل مربع مطوي بعناية.

وتمتمت: «هل أصبحت شهيرة للغاية؟» وأضافت: «يا لها من طفلة مسكينة. مسكينة حقًّا.»

ذكَّرها سانجر بسبب بروز أخبار كريستين في الأخبار. لكنها بدت أقل انشغالًا بالنهاية القاسية للمرأة مقارنةً بإنجاز الطفلة التي عرفتها.

وقالت: «لقد كانت طموحةً للغاية. هذا أكثر ما كان يميزها وهذا ما يجعلني أتذكرها. لم تكن مثل الآخرين: حريصة على الخروج من المدرسة وترغب في أن تصبح عاملةً تحصل على أجر. وهذا هو ما يروق معظم الأطفال في المرحلة الابتدائية، كما تعلم، يا سيد سانجر: أجر أسبوعي في جيوبهم ومورد مالي يُمكِّنهم من الخروج من منازلهم المزدحمة. لكن كريستينا أرادت الذَّهاب إلى المدرسة الثانوية، وفازت بالفعل بمنحة دراسية ... «مكان مجاني»، كما يسمونه. لكن أهلها لم يستطيعوا تحمُّل تكاليف أن تقبل هذه المنحة. لقد أتت إليَّ وبكت من أجل ذلك. كانت المرة الوحيدة التي شاهدتها فيها تبكي؛ إذ لم تكن طفلةً عاطفية. وقد طلبتُ من والدتها أن تأتيَ لمقابلتي. وهي امرأة لطيفة للغاية، ولكن شخصيتها غير قوية. فلم أستطع إقناعها. يمكن أن يصبح الأشخاص ضعفاء الشخصية عنيدين للغاية. لقد أسِفتُ على ذلك لسنوات في ذهني؛ أنني قد فشِلت في إقناعها. كان لديَّ شعور كبير بطموح الطفلة. فقد كنت طموحةً للغاية وأنا في مثل سنها، واضطُررت لأن أنحِّيَ رغبتي جانبًا. لقد تفهمت ما كانت كريستينا تعانيه. ولم أعد أقابلها بعد أن تركت المدرسة. لقد ذهبت للعمل في المصنع، على ما أذكر. لقد كانت أسرتها بحاجة إلى المال. فأخوها لم يكن يعمل. وهو شخصية غير متعاطفة. وكان معاش الأم ضئيلًا. لكن كريس استطاعت أن تنجح في حياتها المهنية، في نهاية الأمر. يا لها من طفلة مسكينة. طفلة مسكينة حقًّا!»

سأل سانجر، وهو يغادر، كيف فاتتها المقالات في الصحف عن طفولة كريستين كلاي.

فقالت إنها لم ترَ صحف الأحد قط، وهي تتسلم الصحيفة اليومية متأخرة يومًا من قبل جيرانها الطيبين، عائلة تيمبسون، وفي الوقت الحالي هم يقضون إجازتهم على شاطئ البحر؛ لذا لم تطَّلع على الأخبار، باستثناء الملصقات. لا يعني هذا أنها تفتقد الصحف كثيرًا. إنها مسألة تَعَوُّد، ألا يظن السيد سانجر ذلك؟ بعد ثلاثة أيام بدون قراءة صحيفة واحدة، تلاشت رغبتها في قراءة الصحف. وبالفعل، يصبح المرء أكثر سعادة من دونها. إن قراءة

الصحف أصبحت محبطة للغاية نظرًا لما تحويه من أخبار في هذه الأيام. وبينما هي في منزلها الصغير تجد صعوبة في تصديق الكثير من أخبار العنف والكراهية.

ثم أجرى سانجر المزيد من التحريات مع العديد من الأشخاص حول تلك الشخصية غير المتعاطفة هربرت جوتوبيد. لكن لم يتذكره أحد. فهو لم يستقر أبدًا في وظيفة لأكثر من خمسة أشهر (كانت الأشهر الخمسة هي أطول فترة سجَّلها في متجر معدات) ولم يأسف أحد على تركه للعمل. كما أنه لا أحد يعرف ما حلَّ به.

لكن فاين، بعد عودته من مقابلة مساعدة الملابس الخاصة بكريس، واسمها بندل، في ساوث ستريت، جلَب معه أخبارًا عنه. أجل، كانت بندل تعرف بوجود أخ. حدَّقت عيونها البنية الحادة في المحقق بشدة عند ذكره. لقد رأته مرة واحدة فقط، وكانت تأمُل ألَّا تراه مرة أخرى. كان قد أرسل رسالة إلى سيدتها ذات ليلة في نيويورك، إلى غرفة تبديل الملابس الخاصة بها. كانت أول غرفة ملابس تحصل عليها لنفسها على الإطلاق، وكان العرض الأول الذي تشارك فيه. «ليتس جو!» (أي «هيا بنا!») هذا اسمه. وكانت ناجحة فيه للغاية. وقد ساعدتها بندل في ارتداء ملابس فتاة كورس، مع تسعٍ أخريات، ولكن عندما انطلقت سيدتها في الأدوار، أخذت بندل معها. هذه هي أخلاق سيدتها: لم تنسَ أبدًا صديقًا. كانت تتحدث وتضحك حتى تسلمت الرسالة. ولكن عندما قرأتها أصبحت مثل شخص كان على وشك تناول ملعقة من المثلجات ولاحظ وجود خنفساء فيها. وعندما جاء قالت: «إذن فقد ظهرت!» فقال إنه قد جاء ليحذرها من أن مصيرها هو جهنم، أو شيء من هذا القبيل. فقالت: «تقصد أنك جئت لترى كم أكسِب من عملي هذا.» لم يسبق أن رأتها بندل غاضبةً للغاية هكذا. كانت قد أزالت لتوِّها مكياجها اليومي لتضع مكياج المسرح، وقد شحبَ وجهُها للغاية. كانت قد أرسلت بندل خارج الغرفة في ذلك الوقت، ولكنها سمعت صوت شجار كبير. ولم تستطع بندل، بينما تقف حارسًا أمام الباب — كان هناك الكثيرون، حتى في ذلك الحين، ممن يرغبون في مقابلة سيدتها — أن تتجنب سماع بعض ما دار. في النهاية اضطُرت للدخول لأن سيدتها ستتأخر عن صعودها خشبة المسرح إذا لم تفعل. وانفعل الرجل عليها لمقاطعتهما، لكن سيدتها قالت إنها ستُبلغ الشرطة إذا لم يغادر. وقد غادر آنذاك، ولم يظهر بعد ذلك بحسب علمها مرة أخرى. لكنه كان يرسل إليها رسائل. حيث تأتي منه الرسائل من حين لآخر — تعرفت بندل على خطه — وبدا دائمًا أنه يعرف مكانهما، لأن العنوان كان العنوان الصحيح، وليست رسالة معادًا توجيهها. كانت سيدتها تعاني دائمًا من اكتئابٍ حاد بعد وصول الرسالة. في بعض الأحيان لمدة يومين أو أكثر. لقد

قالت ذات مرة: «إن الكراهية تهوي بك إلى أسفل، أليس كذلك، يا بندل؟» لم تكره بندل أبدًا أي شخص باستثناء شرطي اعتاد التعامل معها بوقاحة، لكنها كرهته كثيرًا، ووافقت على أن الكراهية تُضعِف للغاية. وتحرق المرء من الداخل حتى لا يتبقى منه شيء.

وأضيف تقرير الشرطة الأمريكية إلى رواية بندل حول شقيق كريستين. كان هربرت جوتوبيد قد دخل الولايات المتحدة بعد نحو خمس سنوات من شقيقته. وعمِل لفترة قصيرة خادمًا لعالم دين شهير من بوسطن استطاع أن يخدعه بأخلاقه وتقواه. ثم ترك عالم الدين بسبب فضيحةٍ ما — كانت الطبيعة الدقيقة للفضيحة غير معروفة لأن العالم، إمَّا بسبب إحسانه المسيحي أو على الأرجح بسبب إحجامه عن الاعتراف بسوء حكمه على الأشخاص على الملأ، فضَّل عدم توجيه أي تهم؛ وبعد ذلك اختفى من نطاق معرفة الشرطة. وكان من المفترض، رغم ذلك، أنه الرجل الذي، تحت اسم شقيق الإله، تجول عبر الولايات في دور النبي، وقد حقق، حسبما تقول التقارير، نجاحًا ماديًّا ومعنويًّا. ثم سُجن في كنتاكي بتهمة الكفر، وفي تكساس بتهمة الاحتيال، وفي ميسوري بتهمة إثارة الشغب، وفي أركنساس من أجل سلامته الشخصية، وفي وايومينج بتهمة الإغواء. وفي كل فترة احتجاز كان يُنكر أيَّ صلةٍ بهربرت جوتوبيد. وقال إنه ليس له اسم، بخلاف شقيق الإله. وحينما أشارت الشرطة إلى أن علاقته بالإله لن تعتبر من عقبة صعبة تَحول دون ترحيله من البلاد، فهم التلميح واختفى. وكانت آخر الأخبار التي سمعت عنه أنه قد ذهبَ في إرسالية لإحدى الجزر في مكانٍ ما — فيجي، حسبما يظنون — ثم هرب مع الأموال إلى أستراليا.

قال جرانت، وهو يبعد نظره عن الملف: «إنه شخص فاتن.»

قال ويليامز: «هذا هو الرجل الذي نبحث عنه، يا سيدي، ليس هناك شك في ذلك.»

«من المؤكد أن لديه كل الصفات السيئة: الجشع، الغرور الزائد، وانعدام الضمير. آمل أن يكون هو الرجل الذي نبحث عنه. سيمثل التخلص من ذلك الشخص السيئ صَنيعًا جيدًا للعالم. لكن لماذا فعلها؟»

«كان يأمُل في الحصول على المال، ربما.»

«هذا من غير المحتمل. لا بدَّ أنه كان يعلم جيدًا حقيقة شعورها تجاهه.»

«أنا لا أستبعد إقدامه على تزوير وصية، يا سيدي.»

«أجل، وأنا كذلك لا أستبعد هذا. لكن إذا كانت لديه وصية مزورة، لماذا لم يتقدَّم بها؟ قريبًا سيمر أسبوعان على موتها. وليس لدينا أي قرينة لنتتبعها. نحن حتى لا نعرف ما إذا كان موجودًا في إنجلترا.»

«إنه في إنجلترا بالفعل، يا سيدي. هل تذكر ما قالته مدبرة منزلها عن أنه يعلم دائمًا أين توجد؟ إن كلاي كانت موجودةً في إنجلترا منذ أكثر من ثلاثة شهور. من المؤكد أنه كان هنا أيضًا.»

«أجل. أجل، هذا صحيح. ماذا عن أستراليا؟ دعني أبحث الأمر.» وعاد ليقرأ تقرير نيويورك مرة أخرى. ثم قال: «كان هذا منذ سنتين. كان سيصعب علينا تعقُّب خطواته هناك، لكن لو أنه جاء إلى إنجلترا بعد كلاي فلن نجد صعوبة في تعقُّبه. فهو لا يستطيع الاحتفاظ بفمه مغلقًا. وأي شيء مسموع بوضوح لا بدَّ أن يصبح ملاحظًا.»

«هل عثر على أي رسائل منه وسْط مُتعلَّقاتها؟»

«كلا، لقد فحص اللورد إدوارد كلَّ متعلقاتها. أخبرني يا ويليامز، بناء على أي دافع، ومن أجل أيِّ سبب يمكن تخيُّله، قد يلجأ تشينس، في رأيك، إلى الكذب؟»

قال ويليامز، على الفور: «دافع نبيل للحفاظ على سمعة العائلة.»

حدَّق جرانت. ثم قال بعد فترة: «صحيح تمامًا. لم أفكِّر في هذا. ولا أستطيع أن أتصوَّر ما الذي كان يدافع عنه، رغم ذلك.»

الفصل السابع عشر

إذن لم تكن الشموع من النوع الذي يوضع في غرفة النوم، هكذا كان جرانت يفكر، بينما تسير السيارة بسرعة عبر الجسر في عصر يوم الإثنين في طريقها إلى تيمبل؛ لكنها من النوع الذي يوضع على مذبح الكنيسة. إن الخيمة المقدسة الخاصة بشقيق الإله لم تكن مثل أي من خيام الإرسالية غير المزخرفة. لقد كانت مُغطَّاة بقماش الكَتَّان الأرجواني الناعم ومزودة بضريح يتسم بالفخامة. وقد أثمر حب هربرت للتمثيل المسرحي في أغلب الحالات (باستثناء ما حدث في كنتاكي) عن مكاسب جيدة. إذ إن المتعطشين للجمال وذوي العقول التي تميل للأداء التمثيلي المسرحي قد انخدعوا بشدة … ودفعوا مبالغ ضخمة.

إن شلن كريستين كان وسيلةً للتعبير عن مدى احتقارها. ردها، ربما، على كل تلك المناسبات التي وجد فيها إله هربرت أنه من المناسب أن يمنع عنها الأشياء الصغيرة التي تتوق إليها روحها.

وسط الضوء الأخضر الذي يشبه لونَ ماء البحر في غرفة السيد إرسكين الصغيرة بجوار شجرة الدلب، قدَّم جرانت اقتراحه للمحامي. فهم يريدون كشف الستار عن مكان هربرت جوتوبيد، وهذه هي الطريقة لفعل ذلك. وهي طريقة تقليدية للغاية؛ لذا لم يجد المحامي مانعًا لتنفيذها. كما وافق اللورد إدوارد عليها.

وقد راوغ المحامي وجادل، ليس بسبب أن لديه أي اعتراضات حقيقية لكن بسبب أن عمل المحامي يستوجب عليه الأخذ في الاعتبار الاحتمالات المستبعدة، والموافقة المباشرة على أي شيء ستعتبر من قبيل عدم الاحترافية. وفي النهاية وافق على أن الأمر ربما يصبح قابلًا للتنفيذ.

قال جرانت: «حسنًا، سأترك الأمر لك. في صحف الغد، من فضلك»، ثم غادر وهو يتساءل لماذا يبتهج أصحاب العقول القانونية باختلاق المشكلات بينما هناك الكثير للغاية

من المشكلات الواقعة بالفعل في العالم. والكثير منها موجود في عقل جرانت المسكين في هذه اللحظة. «محاصر بالمشاكل»، مثلما تقول قارئات الطالع عندما يخبرنك بما تحمله لك الكروت: هكذا كان بالفعل. أوشك يوم الإثنين على الانتهاء ولم يكن هناك ما يدل على أن روبرت تيسدول ما زال حيًّا يُرزق. وكانت صحيفة «كلاريون» أول من أثار تساؤلات حول اختفائه في ذلك الصباح، وبحلول يوم الغد ستنتشر تلك التساؤلات الصاخبة في الصحف كافة. أين روبرت تيسدول؟ وماذا تفعل الشرطة كي تعثر عليه؟ وإحقاقًا للحق، كان القلق الذي يعتري جرانت منصبًّا على سلامة تيسدول أكثر منه على ذلك الصخب الوشيك. لقد اعتقد أصلًا خلال اليومين الماضيين أن عدم ظهور تيسدول يُعزى إلى نقص المعلومات لدى تيسدول. إذ ليس من السهل متابعة الصحف بينما الشخص هارب من الشرطة. لكن لا شك أن الشك الآن قد بدأ يتلاعب بأفكاره. كان هناك أمر خاطئ. فجميع عناوين الصحف في كل قرية في إنجلترا حملت خبر «براءة تيسدول». «المطارَد بريئ.» فما احتمالية عدم اطلاعه على الخبر؟ في كل حانة، وعربة قطار، وحافلة، ومنزل في الريف أصبح الخبر هو المادة المفضلة للنقاش. ورغم ذلك ليست هناك أخبار عن تيسدول. لم يره أحد منذ أن تركته إريكا يوم الأربعاء الماضي. وفي ليلة الخميس اجتاحت إنجلترا كلها أسوأ عاصفة منذ سنوات، وظلت تُمطر وتعصف خلال اليومين التاليين. وقد التقط تيسدول الطعام الذي تركته له إريكا يوم الخميس، ولكن لم يفعل بعد ذلك. لقد ظلَّ الطعام الذي تركته يوم الجمعة هناك، وأصبح مبتلًّا تمامًا، يوم السبت. وقد علِم جرانت أن إريكا أمضت يوم السبت ذاك وهي تجوب الريف بحثًا عنه؛ وقد فتَّشت الريف تفتيشًا يماثل كفاءة ومثابرة كلب صيد، فبحثت عنه في كل حظيرة، وفي كل ملجأ من أي نوع. وكانت نظريتها الوجيهة أنه قد لجأ إلى مكانٍ ما في مساء الخميس — فلم يكن لبشرٍ أن ينجوَ من مثل تلك العاصفة — ونظرًا لأنه كانٍ في ذلك الممر الحجري صباح الخميس كي يلتقط الطعام الذي تركته له، إذن فهو لم يذهب بعيدًا عن ذلك المكان.

لكن جهودها لم تُثمر عن شيء. واليوم أخذَت مجموعةٌ منظمةٌ من مقتفي الأثر الهواة على عاتقها هذه المهمة — إذ لم يكن لدى الشرطة قوات كافية لأداء المهمة — ولكن حتى الآن ليس هناك أي أخبار. ومن ثم تنامَى في ذهن جرانت خوف بطيء أنه قد حاول بكل ما أوتي من إدراك لذاته أن يهزمهم. لكن الأمر كان يشبه حريقًا في مستنقع. فأنت تضرب على الرماد محاولًا إطفاءه فقط لتجد النيران تنتشر تحت السطح إلى أن تندلع فجأة أمامك.

كانت الأخبار القادمة من دوفر بطيئةً أيضًا. حيث لا شيء يعوق التحقيق سوى صبر الشرطة بدافع ضرورة (أ) عدم إهانة شخص من طبقة النبلاء، ومن ناحية أخرى (ب) عدم

تنبيهه خوفًا من أن يهرب: والأولى تنطبق في حالة كونه بريئًا، أما الثانية ففي حالة كونه مذنبًا. إن الأمر برمَّته مُعقَّد للغاية. وعند رؤية وجه إدوارد تشينس الهادئ — حيث إن لديه حاجبَين يبعثان شعورًا غريبًا بالاسترخاء — بينما يناقش معه خُطة الإيقاع بهربرت، منع جرانت نفسه عدة مرات من قول: «أين كنت ليلة الأربعاء؟» ماذا سيفعل تشينس عندئذٍ؟ سيبدو مرتبكًا بعض الشيء، ثم سيفكر لبرهة، ويقول: «هل تقصد الليلة التي وصلت فيها إلى دوفر؟ لقد قضيتها مع فلان الفلاني في المكان العلاني.» وعندئذٍ سيدرك سبب السؤال، وسينظر نحو جرانت وهو غير مُصدِّق، وسيشعر جرانت بأنه بطل العالم في الحماقة. ثمة شيء آخر إضافي! سيشعر في حضور إدوارد تشينس بأنه يهينه إهانة خالصة عند اقتراح أنه ربما يكون مسئولًا عن موت زوجته. أمَّا حين يكون بعيدًا عنه، فإن صورة الرجل في الحديقة، يشاهد النور المنبعث من النوافذ، قد تطوف في ذهنه أكثر مما يستطيع أن يعترف. لكن في حضوره، فإن مثل تلك الفكرة تستبعد نهائيًّا بوصفها فكرةً خيالية. وإلى أن يستطيع رجاله جمع — أو الإخفاق في جمع — معلومات عن تحرُّكات تشينس في تلك الليلة، يجب تأجيل أي استجوابٍ مباشر.

وكل ما يعرفه حتى الآن أن تشينس قد أقام في مكانٍ غير معلوم. إذ إنه لم يقم في فندق أو عند صديق للعائلة. ومن ثم أخذ نطاق البحث يتسع. وفي أي لحظة قد تأتي الأخبار بأن اللورد قد نام في سرير فخم لا غبار عليه وفوق أفضل أغطية الفراش القطنية في المقاطعة، فسيجبر جرانت على الاعتراف بأنه أخطأ عندما تصوَّر أن اللورد إدوارد يضلله متعمدًا.

الفصل الثامن عشر

في صباح يوم الثلاثاء، جاءت الأخبار من كولينز، الرجل الذي يُجري التحريات حول خزانة ملابس تشينس. حيث قال إن بايوود، الخادم، «شخص يصعب التفاهم معه للغاية.» فهو لا يشرب ولا يدخن وبدا أنه لا يوجد مدخل يستطيع كولينز استخدامه للتفاهم معه. لكن كل رجل له ثمنه، وثبت أن سعر بايوود هو التبغ المسحوق. وهي رزيلة سرية للغاية. وكان اللورد إدوارد سيطرده على الفور إذا اشتبه في مثل هذا المزاج لدى الرجل. (من المحتمل أن يكون اللورد إدوارد مسرورًا جدًّا بأي شيء له طابع القرن الثامن عشر.) ومن ثم اشترى له كولينز «تبغًا مسحوقًا من نوع مميز للغاية»، واستطاع أخيرًا أن يفتش خزانة الملابس. عند وصوله إلى إنجلترا — أو على وجه الدقة، إلى لندن — كان تشينس قد تخلَّص من خزانة ملابسه. ومن بين ما تخلص منه معطفان، أحدهما غامق اللون والآخر من وبر الجمل. فأعطى بايوود معطف وبر الجمل إلى صهره، وهو فتى جوقة؛ وباع الآخر لتاجر في لندن. وقد أرسل كولينز اسم التاجر وعنوانه.

أرسل جرانت شرطيًّا إلى التاجر، وعندما فتَّش الشرطي وسط الملابس المعروضة قال التاجر: «جاء هذا المعطف من اللورد إدوارد تشينس، ابن دوق بود. وهو قطعة جيدة.»

لقد كان قطعة جيدة بالفعل. وبه كل أزراره؛ مع عدم وجود علامة على استبدال أي منها.

تنهَّد جرانت عندما وصله الخبر، غير متأكد مما إذا كان سعيدًا أم آسفًا. لكنه ما زال يريد أن يعرف أين قضى تشينس تلك الليلة.

وما أرادت الصحافة معرفته هو مكان تيسدول. أرادت كل صحيفة في بريطانيا أن تعرف. فأصبحت إدارة المباحث الجنائية في ورطة سيئة لم تقع في مثلها منذ سنوات عديدة. حيث وصفتهم صحيفة «كلاريون» علنًا بالقتلة، وتعرض جرانت، الذي كان يحاول

الحصول على خيط يتتبعه في قضية محيرة، لمضايقات غضب زملائه، وتعازي أصدقائه، وتوتر مفوض الشرطة، وقلقه هو المتزايد. وفي منتصف الصباح، اتصل جامي هوبكينز ليبرر «مقاله الرئيسي» في «كلاريون». وقال إن «المسألة كلها مسألة عمل» وهو يعلم أن أصدقاءه في سكوتلاند يارد سيتفهمون ذلك. لم يكن جرانت موجودًا في المكتب، فتلقى ويليامز المكالمة. ولم يكن ويليامز في مزاجٍ جيد للمجاملة. فأراح روحه المثقلة بالأعباء بحماسة جعلت هوبكينز يأمُل أنه لم يضع نفسه في الخطأ بشكل لا رجعة فيه مع سكوتلاند يارد. وأنهى ويليامز قائلًا: «أما عن مطاردة الأبرياء حتى الموت، فأنت تعلم جيدًا أن الصحافة تطارد في أسبوع واحد أكثر ممن طاردتهم سكوتلاند يارد منذ تأسيسها. و«جميع» ضحاياكم أبرياء!»

«أوه، تحلَّ ببعض الرفق، أيها السيرجنت! أنت تعلم أنه يجب علينا اصطياد الأخبار. إذا لم نجعلها ساخنة ورنانة، فسنطرد من وظائفنا. وسيئُول مصيرنا إلى سانت مارتن كرييت، أو إمبانكمنت. إنكم بذلك تدفعون الناس إلى فقد وظائفهم. لدينا وظائفنا لنحتفظ بها بنفس القدر الذي ...»

كان صوت إغلاق ويليامز للهاتف بليغًا. كان تصرفًا وتعليقًا مضغوطين في مقطع واحد صغير. لم يشعر جامي بالإهانة. لقد استمتع بكتابة هذا المقال. لقد كان في الواقع مفعمًا بمشاعر السخط المستحقة بينما تتدفق منه عبارات النقد اللاذع. عندما كان جامي يكتب، خرجت كلماته بطلاقة وانسيابية واجتاحته المشاعر. وإذا كانت تلك الطلاقة وهذه الانسيابية قد انتهت، فهذا لا يهم؛ كان تقبل الجمهور لمقاله مضمونًا؛ لقد كان «نابعًا من القلب»؛ كما ارتفع راتبه بدرجة كبيرة للغاية.

لكنه شعَر ببعض الألم لأن جميع أعدائه على الورق لم يتمكنوا من رؤية أن الأمر كله مجرد دعابة. فارتدى قبعته بينما ارتفع حاجبه الأيمن باشمئزاز وخرج لتناول الغداء.

وعلى بعد أقل من خمس دقائق، كان جرانت جالسًا في ركن مظلم، وأمامه فنجان ضخم من القهوة السوداء، وقد أسند رأسه على يديه. وكان «يتحدث إلى نفسه بعبارات قصيرة محددة.»

كانت كريستين كلاي تُخفي مكان إقامتها. لكن القاتل عرف هذا المكان. وهذا يستبعد الكثير من الناس.

تشينس كان يعرف.

جيسون هارمر كان يعرف.

من شبه المؤكد أن هربرت جوتوبيد كان يعرف.

كان القاتل يرتدي معطفًا غامقًا بدرجة كافية كي يزود بزر أسود ويخاط بخيط أسود.

يمتلك تشينس معطفًا من هذا القبيل، لكن ليس به زر مفقود.

لا يمتلك جيسون هارمر مثل هذا المعطف، ولم يرتدِ أيَّ معطف من هذا القبيل مؤخرًا.

ولا أحد يعرف ما كان يرتديه هربرت جوتوبيد.

إن لدى القاتل دافعًا قويًّا جدًّا وطويل الأمد بحيث يمكنه انتظار ضحيته في الساعة السادسة صباحًا وإغراقها عمدًا.

يمتلك تشينس دافعًا محتملًا.

يمتلك جيسون هارمر دافعًا محتملًا إذا كانا عاشقين، لكن ليس هناك دليل على ذلك.

لا يمتلك هربرت جوتوبيد دافعًا معروفًا، لكنه كان يكرهها بالتأكيد.

وإذا احتسبنا النقاط فإن جوتوبيد يفوز. فهو يعرف مكان أخته. وعنده نوع السجل الذي يجعله مصنفًا تحت بند «قادر على ارتكاب جريمة قتل»؛ كما أن علاقته سيئة مع الضحية.

أوه، حسنًا! بحلول الغد قد يكون جوتوبيد قد أعلن عن نفسه. وفي هذه الأثناء سيعالج تركيزه بالقهوة السوداء ويحاول إبعاد تفكيره عن الصحافة.

وبينما يرفع الكوب إلى شفتيه، وقعَت عيناه على رجل في الزاوية المقابلة. كان نصف كوب الرجل فارغًا، وهو يشاهد جرانت بعيون مبتهجة وودية.

ابتسم جرانت، وتوجَّه إليه وتحدث أولًا. حيث قال: «هل تحاول إخفاء هذا الوجه الشهير عن الأنظار؟ لماذا لا تمنح معجبيك فرصة؟»

«أنا أمنحهم كل الفرص. فالمعجبون دائمًا على حق. أنت تمرُّ بفترة عصيبة، أليس كذلك؟ ماذا يظنون رجال الشرطة؟ مستبصرين؟»

استوعب جرانت المجاملة وتقبَّلها.

وقال أوين هيوز: «يومًا ما، سوف يفجر شخص ما رأس جامي هوبكينز من على كتفيه. إذا لم يكن وجهي مؤمَّنًا عليه مقابل إجمالي الذهب في العالم، كنت سأفعل ذلك بنفسي. لقد قال ذات مرة عني: «حلم كل فتاة!»»

«وألست كذلك؟»

«هل رأيت كوخي مؤخرًا؟»

«كلا. لقد رأيت صورة الحطام في الصحيفة ذات يوم.»

«لا مانع من إخبارك أنني بكيت عندما نزلت من السيارة ورأيته. أود أن أبث تلك الصورة إلى أقاصي الأرض كعينة لما يمكن أن تفعله الشهرة. قبل خمسين عامًا، كان هناك عدد قليل من الأشخاص ربما يقطعون بضعة أميال للنظر إلى المكان، ثم يعودون إلى منازلهم راضين. لقد كانوا يأتون بحافلات مكشوفة لرؤية كوخي (برايارز). حاول المحامي الخاص بي إيقاف تدفُّق هذه «الرحلات»، لكن لم يكن هناك ما يمكنه فعله. رفضت شرطة المقاطعة إبقاء شرطي هناك بعد الأيام القليلة الأولى. جاء نحو عشرة آلاف شخص في الأسبوعين الماضيين، وكل واحد من العشرة آلاف أطلَّ من النوافذ، ووقف على النباتات وأخذ هدية تذكارية. لم تتبقَّ قطعة من سياج الشجيرات — كان ارتفاعه ١٢ قدمًا، وبه عدد هائل من الورود — وأصبحت الحديقة عبارةً عن مستنقع من الوحل المداس. كنت مرتبطًا بتلك الحديقة. لم أكن مغرمًا بزهور البنفسج، بشكل خاص، لكنني كنت أستمتع أيما استمتاع بزرع النباتات التي أهداني إياها الناس، ورؤيتها تنمو في الحديقة. أما الآن فلم يتبقَّ من كل ذلك أيُّ أثر.»

«حظ سيئ! ولن يعوضك شيء. لا بدَّ أنه أمر يسبب الغضب بالنسبة إليك. ربما بحلول العام المقبل سوف تنمو النباتات مرة أخرى.»

«أوه، أنا أبيع المكان. إنه مسكون. هل قابلت كلاي من قبل؟ كلا؟ لقد كانت متميزة. من النادر أن تجد مثيلًا لها.»

«هل تعرف أيَّ شخص من المحتمل أن يقتلها، بأي حال من الأحوال؟»

ابتسم هيوز إحدى الابتسامات التي جعلت معجبيه يمسكون بأَذرُع مقاعد السينما الخاصة بهم. «أعرف الكثيرين ممن يمكن أن يقتلوها في مواقف بعينها دون تردُّد. ولكن في مواقف بعينها فحسب. أمَّا إذا هدءوا قليلًا، فمن الممكن أن يُضحُّوا بأنفسهم من أجلها. إن موت كريس بهذه الطريقة كان أمرًا مستبعدًا للغاية — تلك الطريقة التي ماتت بها. هل تعلم أن ليديا كيتس تنبَّأت بذلك وهي تقرأ طالعها؟ إنها معجزة، ليديا تلك. إنها شخصية كان المرء يتمنى أن تُوءد في مهدها، لكنها حقًّا معجزة. لقد أرسلتُ لها عام ويوم ودقيقة ميلاد ماري داكر من هوليوود. لقد جعلتني ماري أقسم قبل أن تكشف لي عن الحقيقة المروعة عن سنها الفعلي. لم يكن لدى ليديا أدنى فكرة عن الشخصية التي تقرأ لها الطالع، وكانت دقيقة بشكل مذهل. ستصبح رائعة في هوليوود.»

قال جرانت بجفاف: «يبدو أنها تتجه في هذا الاتجاه. هل تحب المكان؟»

«أوه، أجل. إنه مريح.» وتابع بينما رفع جرانت حاجبَيه: «هناك أعداد غفيرة من الأشخاص، لدرجة أنك تصبح مجهولًا من الناحية العملية.»

«لقد ظننت أنهم نظموا جَوْلات سياحية لمعجبي ميدويست.»

«أوه، أجل، إنهم يرسلون حافلات لشارعك، لكنهم لا يدهسون زهورك في الأرض.»

«لو قُتلتَ، فربما سيفعلون.»

«ليسوا هم. إن جرائم القتل رخيصة للغاية. حسنًا، يجب أن أغادر. حظًّا سعيدًا. وبارك الله فيك. لقد رفعت روحي المعنوية، لقد ساعدتني مساعدة كبيرة.»

«أنا؟»

«لقد لفتت انتباهي إلى مهنة واحدة أسوأ من مهنتي.» ثم ألقى بعض النقود على الطاولة والتقط قبعته. وتابع: «إنهم يصلُّون من أجل القضاة في أيام الآحاد، لكن لا يوجهون كلمة شكر للشرطة أبدًا!»

وعدل وضع القبعة في الزاوية التي وجدها المصورون بعد الكثير من الاختبارات أنها الأكثر جاذبية، وخرج، تاركًا جرانت مرتاحًا بشكلٍ غامض.

الفصل التاسع عشر

إن الشخص الذي لم يشعر بالارتياح هو جامي. جامي المرح، اللِّين، العملي، لكن في الوقت نفسه القوي. لقد تناول الطعام في الحانة المفضلة لديه (قد تكون القهوة السوداء مناسبةً لرجال الشرطة والممثلين المتوترين الذين عليهم التفكير في رشاقة أجسادهم، لكن جامي يتعامل فقط مع مصادر توتر الآخرين ويتذكر رشاقة جسده فقط عندما يحصل الخيَّاط على مقاسات جسمه) ولم يجرِ شيء أثناء الغداء على ما يرام. كان اللحم البقري مطهوًّا لدرجة أكبر من المطلوب بعض الشيء، والبيرة دافئة بعض الشيء، والنادل يعاني من الفَواق، والبطاطس مملوءة بالسوائل، ومذاق البودينج مثل صودا الخبز، كما لم يجد لديهم نوع سجائره المعتادة. وهكذا، فإن إحساسه بالإهانة وإساءة فهمه، بدلًا من الاستمتاع بالطعام والشراب، قد تزايد ليصبح سخطًا على العالم بشكل عام. ونظر بحزن من فوق زجاجته إلى زملائه ورفاقه، وهم يضحكون ويتحدثون فوق المفارش البيضاء الرديئة، وقد توقَّفوا مؤقتًا عن دردشتهم، غير معتادين على تقطيب جبينه، كي يستفزوه.

«ما الأمر، يا جامي؟ هل لديك التهاب في اللثة؟»

«كلا. إنه يتدرب على أن يصبح ديكتاتورًا. عليك أن تبدأ بتعبيرات وجهك.»

قال ثالث: «كلا، ليس عليك ذلك. عليك أن تبدأ بالشَّعر.»

«وحركة الذراع. الأذرع مهمة للغاية. انظر إلى نابليون. لم يكن ليصبح أكثر من مجرد عريف إذا لم يفكر في حركة وضع الذراع على الصدر. فكرة خلاقة، كما تعلم.»

«إذا كان جامي سينتهج نهج نابليون، فمن الأفضل ألَّا يفعل ذلك هنا، بل في المكتب. فأنا لا أعتقد أن المشهد سيكون لطيفًا إن فعل ذلك.»

تمنَّى جامي أن يذهبوا جميعًا إلى جهنم، وخرج ليبحث عن بائع تبغ لديه النوع الذي يفضله من السجائر. لماذا أرادت سكوتلاند يارد أن تنظر إلى الأمر على هذا النحو؟

الجميع يعلمون أن ما يكتبه المرء في صحيفة هو مجرد كلام مرسَل لا طائلَ من ورائه. إن لم يكن هراءً. إذا توقفت عن أن تكون دراميًّا بشأن الأشياء الصغيرة التافهة، فقد يبدأ الناس في الشك أنهم تافهون، ومن ثم سيتوقفون عن شراء الصحف. وأين سيصبح أقطاب الصحافة، وجامي، والكثير من المساهمين الأبرياء عندئذٍ؟ عليك أن تقدم المشاعر لكل أولئك الخامدين الذين يسعَون من أجل لقمة العيش والذين هم إمَّا مرهقون جدًّا أو أغبياء جدًّا لدرجة تمنعهم من أن يشعروا بأي شيء بأنفسهم. إذا لم تتمكن من تجميد الدماء في عروقهم، فيمكنك أن تكسِب تعاطفهم. كانت تلك القصة عن أيام كلاي المبكرة في المصنع خبرًا رائعًا؛ حتى لو كانت تلك السيدة ذات وجه الحصان قد خدعته حول معرفتها بكريس، لعنها الله. لكن لا يمكنك دائمًا الارتقاء إلى الإثارة أو التعاطف، وإذا كان هناك شعور واحد يحب الجمهور البريطاني أن ينغمس فيه فهو السخط على نحوٍ محق. لذا فقد قدم لهم هو، جامي، مادة لينغمسوا فيها. إن سكوتلاند يارد تعلم جيدًا أنه غدًا لن يتذكر كل هؤلاء الأشخاص الساخطين شيئًا عن الأمر، إذن فما المشكلة! ما الذي يثير غضبهم؟ إن عبارة «مطاردة الأبرياء حتى الموت» مجرد عبارة. عمليًّا هي صيغة مبتذلة. لا شيء في ذلك يجعل الشخص العاقل حسَّاسًا للغاية. إن إدارة سكوتلاند يارد تشعر برقة في الجلد تجعلها حساسة للغاية، هذا هو السبب. وهم يعلمون جيدًا أن هذا لم يكن ينبغي السماح بحدوثه. وبعيدًا عن أنه كان ينتقد عمل شخص آخر، فهو الآن يدرك تمامًا بعد أن فكر في الموضوع أن بعضًا مما ذكر في تلك المقالة كان صحيحًا من الناحية العملية. ليس «المطاردة حتى الموت» بالطبع. ولكن بعض الأجزاء الأخرى في المقالة. لقد كان ما حدث بالفعل شيئًا يرقى إلى أن يكون وصمة عار — أوه، حسنًا، وصمة عار كلمة قوية بعض الشيء؛ ولكنه أمر مؤسف، على أي حال، أن يحدث مثل هذا الشيء في جهة يعتقد أنها تتميز بالكفاءة. لقد كانوا متفوقين للغاية وبعيدين عن النقد عندما كانت الأوقات جيدة؛ لا يمكنهم توقع التعاطف عندما يرتكبون خطأً شنيعًا. الآن إذا سمحوا للصحافة بحرية الحصول على المعلومات، مثلما يفعلون في أمريكا، فإن أشياء من هذا القبيل ببساطة لن تحدث. قد يكون هو، جامي هوبكينز، مجرد مراسل جرائم، لكنه يعرف الكثير عن الجريمة والكشف عنها مثل أي ضابط شرطة. إذا منحه «رئيس التحرير» الإذن، ومنحته الشرطة حرية الحصول على المعلومات من ملفاتها، لتمكن من القبض على الرجل الذي قتل كلاي ووضعه داخل جدران السجن — ووضع أخباره على الصفحة الأولى، بالطبع — في غضون أسبوع. الخيال، هذا ما تحتاجه سكوتلاند يارد. وهو لديه الكثير منه. كل ما يحتاجه هو فرصة.

اشترى سجائره، وأفرغها وهو متجهم في العلبة الذهبية التي أهداها له زملاؤه في الجريدة المحلية عندما غادر إلى لندن (وجرى التهامس أن هذه الهدية السخية كانت تعبيرًا عن الامتنان لنقله أكثر من أنها كانت تعبيرًا عن الحب له)، وعاد إلى المكتب وهو متجهم أيضًا. في المدخل الأمامي الذي يشبه الكاتدرائية الحديثة لمقر صحيفة «كلاريون»، التقى بالشاب ماسكر، أحد المراسلين المبتدئين، وهو في طريقه للخروج. فأومأ له برأسه، ودون أن يتوقف ألقى إليه بالتحية التقليدية.

«إلى أين أنت ذاهب؟»

قال ماسكر بلا حماس كبير: «محاضرة عن النجوم.»

قال جامي مستنكرًا: «مثير جدًّا، علم الفلك.»

«ليس علم الفلك. علم قراءة الطالع.» كان الفتى يخرج من ظل المدخل إلى الشارع المضاء بنور الشمس. ثم تابع: «امرأة تُدعى بوب أو شيئًا من هذا القبيل.»

وقف جامي مشدوهًا في منتصف الطريق إلى باب المصعد. وقال: «أنت لا تقصد كيتس، أليس كذلك؟»

«هل هي كيتس؟» نظر ماسكر إلى البطاقة مرة أخرى. وتابع: «أجل، إنها كذلك. كنت أعلم أنه اسم أحد الشعراء. مهلًا، ما الأمر؟» حيث أمسكه جامي من ذراعه وسحبه إلى الرَّدهة مرة أخرى.

قال جامي، دافعًا إياه إلى المصعد: «الأمر هو أنك لن تحضر أيَّ محاضرة في علم قراءة الطالع.»

قال ماسكر المذهول: «حسنًا! شكرًا جزيلًا على هذا الإعفاء من المهمة، ولكن لماذا؟ هل لديك مأخذ على علم قراءة الطالع؟»

جره جامي إلى أحد المكاتب، وهاجم بكلامه السريع الرجل الأنيق الهادئ خلف المكتب.

قال الشخص الهادئ عندما تمكَّن من قول كلمة وسط كلمات جامي: «لكن يا جامي، لقد كانت مهمة بليك. كان هو الشخص المناسب لها: ألا يخبر العالم كل أسبوع في الصفحة ٦ بما سيحدث في الأيام السبعة المقبلة؟ إنه موضوعه: علم قراءة الطالع. ما لم يتوقعه هو أن زوجته ستضع طفلًا هذا الأسبوع بدلًا من الأسبوع التالي. لذلك أعفيته وأرسلت ماسكر بدلًا منه.»

قال جامي: «ماسكر! قل لي، ألا تعلم أن هذه هي المرأة التي تنبَّأت بوفاة كلاي؟ المرأة التي تتعامل معها صحيفة «كورير» لقراءة الطالع مقابل شلن في كل مرة؟»

«وماذا في ذلك؟»

«ماذا في ذلك! يا رجل، إنها مادة إخبارية!»

«إنها مادة إخبارية تخصُّ صحيفة «كورير». والأمر منتهٍ في هذا الخصوص. لقد رفضت قصة عنها بالأمس.»

«حسنًا، إذن، إن أمرها منتهٍ. لكن لا بدَّ أن الكثير من الأشخاص «المثيرين للاهتمام» مهتمون بها في هذه اللحظة. والشخص الأكثر اهتمامًا في هذا الجمع هو الرجل الذي جعل نبوءتها تتحقق! وأظن أنها ربما كانت مسئولة عن إعطائه الفكرة؛ هي ونبوءاتها. قد تكون كيتس منتهية، لكن ما يحيط بها ليس كذلك. ليس كذلك على الإطلاق.» ثم انحنى إلى الأمام وأخذ البطاقة التي كان الشاب ماسكر لا يزال ممسكًا بها. وتابع: «اعثر على شيء ليفعله هذا الشاب اللطيف بعد ظهر اليوم. إنه لا يحب قراءة الطالع. أراك لاحقًا.»

«ولكن ماذا عن تلك القصة بحق ...»

«حسنًا، ستحصل على قصتك. وربما قصة أخرى في الصفقة!»

عندما أغلق جامي باب المصعد وبدأ يهبط لأسفل، قلب البطاقة في يده بإبهامه. قاعة إلويس هول! ليديا قادمة!

قال لعامل المصعد: «هل تعرف أفضل طريقة للنجاح، يا بيت؟»

قال بيت: «حسنًا، سأعرف منك.»

«اختر نوعًا جيدًا من الهراء.»

ابتسم بيت ابتسامة عريضة وقال: «أنت أدرى!» وتجاوزه جامي وهو يخطو عبر الأبواب. كان بيت يعرفه منذ ... حسنًا، إن لم يكن منذ أيام طفولته، فعلى الأقل منذ أيام بدايته في عالم الصحافة.

تقع قاعة إلويس هول في ويجمور ستريت: منطقة جميلة؛ وقد كانت مسئولة إلى حدٍّ كبير عن نجاحها. كانت موسيقى الحجرة أكثر جاذبية عندما يمكن للمرء سماعها بينما يتناول الشاي في النادي الخاص به ويتفحص ذلك الفستان في متجر دبنهام للملابس. ولم تخمن المغنيات الممتلئات اللواتي شعرن بالإطراء عند الصمت الذي ساد أغنيتهم الكلاسيكية أن مستمعيهم يفكرون في معضلة اختيار نوع قماش الفساتين التي يرتدونها. إنه مكان صغير لطيف؛ صغير بما يكفي ليكون حميميًّا، وكبير بما يكفي لعدم الازدحام. وبينما يشق جامي طريقه إلى أحد المقاعد، لاحظ أن المكان مليء بالجمهور الأكثر أناقة الذي شاهده في أي تجمع منذ حفل زفاف بوشير-كرزون. لم يكن المجتمع «الراقي» حاضرًا

بأعداد كبيرة فحسب، بل كان هناك أيضًا عناصر مؤثرة من ذوي الدم الأزرق الذين يسميهم جامي عادةً «دوقات أحدث صيحة»: من هؤلاء الأشخاص ذوي الأحذية الأنيقة، والأنوف الرومانية، والأصول العريقة الذين يعيشون على مكانتهم وليس على ذكائهم. وتناثر وسط الجمع، بالطبع، بعض غريبي الأطوار.

لم يأتِ غريبو الأطوار من أجل الإثارة، ولا لأن والدة ليديا هي الابنة الثالثة لماركيز فقد ثروته، ولكن لأن الأسد، والثور، والسرطان؛ هي حيوانات أليفة منزلية لديهم، منازل الأبراج هي موطنهم الروحي. لم يكن ثمة مشكلة في التعرف عليهم؛ فقد استقرت عيونهم الشاحبة على المسافة المتوسطة، وبدت ملابسهم وكأنها قد اشتُريت من متاجر بيع الملابس الرخيصة، وبدا أنهم جميعًا يرتدون نفس عِقد الخرز ذي الستة بنسات حول أعناقهم الرفيعة.

رفض جامي المقعد الذي خصص لمندوب صحيفة «كلاريون»، وأصرَّ على الحصول على مقعدٍ على الجانب الآخر من القاعة أسفل المنصة. وقد رُفض هذا المقعد، بدرجات متفاوتة من السخط، من قِبل كلٍّ من أولئك الذين جاءوا لرؤية ليديا وأولئك الذين جاءوا ليكونوا محط الأنظار. لكن جامي لم يكن ينتمي إلى أيٍّ من الفريقين. ما جاء جامي لرؤيته هو الجمهور. كما أن المقعد الذي توارى أغلبه وسط ديكورات يوفر أفضل رؤية للجمهور بعد الرؤية التي تستطيع المنصة نفسها توفيرها.

جلس بجانبه رجل ضئيل رث الثياب يبلغ نحو الخامسة والثلاثين، وقد نظر إلى جامي وهو يجلس، وبعد برهة مال إلى الأمام حتى أصبح فمه الشبيه بفم الأرنب على بُعد بوصةٍ واحدة من أذن جامي، ثم همس:

«امرأة رائعة!»

أخذ جامي هذه العبارة كإشارة إلى ليديا.

ووافق على ذلك بقوله: «رائعة. هل تعرفها؟»

تردَّد الرجل الرث الثياب (الذي صنفه عقل جامي، على أنه «غريب الأطوار»)، ثم قال: «كلا، لكنني عرفت كريستين كلاي.» وامتنع عن المزيد من الحديث مع وصول ليديا ومدير أعمالها على المنصة.

كانت ليديا في أفضل حالاتها متحدثة رديئة. وصوتها رفيع عالٍ، وعندما تصبح متحمسةً أو منفعلة، يصبح صوتها بشعًا مثل أسطوانة جراموفون قديمة جدًّا يجري تشغيلها على جراموفون رخيص جدًّا. سرعان ما تشتت انتباه جامي. لقد سمع ليديا

تتحدث عن موضوعها المفضل كثيرًا. ومن ثم بدأت عيناه تقسم القاعة الصغيرة المزدحمة. لو أنه قد قتل كلاي، ولا يزال، بفضل عدم كفاءة الشرطة، طليقًا وغير مشتبه به، فهل سيأتي أو لا يأتي لرؤية المرأة التي تنبَّأت لكلاي بالنهاية التي جعلها هو حقيقة واقعة؟

قرَّر جامي أنه بشكل عام كان سيأتي. إن قاتل كلاي شخص بارع. هذا أمر معترف به. ولا بدَّ أنه الآن يهنئ نفسه بسبب براعته. وهو يفكر في مدى تفوُّق رجل من نوعيته على القواعد العادية التي تطوق البشر العاديين. فهذا هو الإطار الذهني المشترك بين الأشخاص الذين نفَّذوا جريمة قتل مخطط لها. لقد خططوا لشيءٍ ممنوع، وجعلوه حقيقة واقعة. وقد تسلل إلى رءوسهم مثل النبيذ. ونظروا حولهم بحثًا عن المزيد من «التحديات» لتحقيقه، مثلما يلعب الأطفال «آخر من يعبر الطريق.» وهذا، هذا التجمع التقليدي لأناس تقليديين في واحدة من أكثر المناطق التقليدية في لندن، هو «تحدٍّ» مثالي. في كل عقل داخل تلك القاعة كان التفكير في وفاة كريستين هو الأهم. لم يُذكر من المنصة طبعًا؛ إذ يجب حفظ المقامات. كانت المحاضرة مجرد محاضرة بسيطة في علم قراءة الطالع؛ تاريخه ومعناه. لكن كل هؤلاء الأشخاص — أو جُلهم — حضروا إلى هذا الاجتماع لأنه منذ ما يقرب من عام راودت ليديا تلك الخاطرة المحظوظة حول طريقة موت كريستين كلاي. كانت كريستين شخصية محورية في هذا الاجتماع، مثلها مثل ليديا نفسها؛ إذ كانت القاعة كلها تعجُّ بالتفكير فيها. أجل، سيعطي حضور هذا الاجتماع، للقاتل الافتراضي في عقل جامي، دفعةً كبيرة.

نظر إلى الجمهور الآن، وهو يباهي نفسه بالخيال الذي أوصله إلى حيث هو؛ الخيال الذي لا يمكن أن يطمح إليه جرانت، ذلك الغبي العزيز المسكين. تمنى لو كان قد اصطحب بارثولوميو معه. إذ إن بارت أكثر اطلاعًا منه على اهتمامات صفوة المجتمع. ومهمة بارت أن يصف ما تقع عليه عيناه، وفي أي مكان يحتاج «للوصف» — حفلات الزفاف، وسباق السيارات، وحفلات الإطلاق، أو غير ذلك — تظهر نفس الوجوه من الصفوة. كان من الممكن أن يصبح بارت مفيدًا.

لكن جامي كان يعرف ما يكفي من تلك الوجوه لإبقائه مهتمًّا.

قالت ليديا: «من ناحية أخرى، غالبًا ما يكون مواليد برج الجدي سوداويين، ومفتقدين للثقة في أنفسهم، وسيئي الطباع. وعلى مستوًى أقل، يتسمون بالكآبة والبخل والخداع.» لكن جامي لم يكن يستمع إليها. على أي حال، لم يكن يعرف أيًّا من الأبراج كان له شرف الاتفاق مع يوم ولادته، ولم يهتم. أخبرته ليديا عدة مرات أنه «كان من الناحية الافتراضية، الافتراضية فقط، من مواليد برج الحمل» لكنه لم يتذكر ذلك أبدًا. كل هذا هراء.

ها هي دوقة ترينت تجلس في الصف الثالث. تلك، المسكينة، السخيفة، البائسة، لديها حُجة غياب جيدة. كانت ستقيم مأدُبة غداء لكريستين؛ مأدبة غداء من شأنها أن تجعلها المضيفة الأكثر تعرضًا للحسد في لندن بدلًا من مجرد شخصية مملة غير معروفة؛ ورحلت كريستين وماتت وهي تحت رعايتها.

تجولت عينا جامي وتوقَّفت عند وجه داكن وسيم في الصف الرابع. مألوف جدًّا ذلك الوجه؛ مألوف مثل الصورة على عملة معدنية. لماذا؟ لم يكن يعرف الرجل؛ ويكاد يقسم أنه لم يره شخصيًّا قط.

ثم استطاع تذكره. إنه جين ليجون؛ الممثل الذي اختير ليمثل أمام كلاي في فيلمها الثالث والأخير في إنجلترا؛ ذلك الفيلم الذي لم تصوره قط. وقد ترددت شائعات بأن ليجون كان سعيدًا لأنه لن يُضطر أبدًا إلى تصوير ذلك الفيلم؛ إذ إن تألُّق كلاي عادةً يجعل الممثلين الرجال الذين يمثلون أمامها يبدون مثل شموع زهيدة الثمن؛ لكن هذا ليس سببًا وجيهًا للاستيقاظ عند الفجر وإمساك رأسها تحت الماء إلى أن تموت. لم يكن جامي مهتمًّا على نحوٍ كبير بليجون. بجواره مباشرة كانت تجلس لوحة أناقة باللونين الأبيض والأسود. مارتا هالارد. بالتأكيد. لقد أعطيت مارتا الدور الذي كان من المقرر أن تمثله كلاي. لم تكن مارتا من فئة كلاي، ولكن من المرجَّح أن يكون وقف الإنتاج مكلفًا للغاية، وكانت مارتا تتمتع بالطلة، والثقافة، والقدرة الكافية على التمثيل، والشخصية الكافية، وما أسماه كوين «الرقي.» لقد أصبحت الآن نجمة الفيلم أمام ليجون. أم أنه هو نجم الفيلم؟ سيصبح من الصعب تحديد أيهما هو «الممثل المساعد.» لم يكن أي منهما من نجوم الصف الأول. ونظرًا لكونهما متقاربين في المستوى سيتشاركان البطولة؛ لذا من المرجح أن تصبح شراكة أكثر نجاحًا بكثير مما كانت ستحققه شراكة كلاي وليجون. إنها خطوة للأمام — خطوة كبيرة لمارتا — وفرصة أكبر للتألق بالنسبة إلى ليجون. أجل، إن وفاة كريستين هي بمثابة ضربة حظ لكليهما.

سمع في ذهنه صوت فتاة تقول: «بالطبع، أنت قتلتها، بنفسك.» من قال ذلك؟ أجل، تلك الفتاة جودي التي تمثل دور الشقراء البلهاء. وقد قالت ذلك عن مارتا. في ليلة السبت تلك عندما التقى هو وجرانت عند باب شقة مارتا وحلَّا في ضيافتها. قالت جودي ذلك بنبرة متحدية متجهمة اعتادت على استخدامها في معظم أنشطتها الحياتية التافهة. وقد اعتبروا الأمر مزحة. ضحك شخص آخر ووافق، مقدمًا الدافع: «بالطبع! لقد أردت هذا الدور لنفسك!» وأخذ الحديث يتدفق في سطحية غير منقطعة.

حسنًا، إن الطموح أحد أكثر دوافع القتل شهرةً. لقد جاء، في أعلى القائمة، بالضبط بعد العاطفة والجشع. لكن مارتا هالارد كانت مارتا هالارد. والقتل بعيد كل البعد عن مثل هذه الشخصية المتكلفة الهشة المتصنعة. وتذكر الآن وهو يفكر في الأمر أنها حتى لم تمثل دور القاتلة بشكلٍ جيد على المسرح. كانت دائمًا تبدو وكأنها تقول في داخل عقلها، «مرهِقةٌ للغاية، كل هذه الجدية.» إذا لم تعتقد أن القتل أمر يفتقد إلى روح الدعابة والتسلية، فستعتقده بلا شك من أفعال الرعاع. كلا، يمكنه تخيُّل أن تكون مارتا قتيلة، ولكن ليس قاتلة.

والآن أصبح جامي يدرك أن مارتا لا تولي ليديا أيَّ اهتمام على الإطلاق. إذ إن كل اهتمامها — وهو اهتمام راسخ وصادق — كان منصبًّا على شخص ما يجلس إلى اليمين في الصف الأمامي. تتبعت عينا جامي الخط المنقط التخيلي على امتداد نظرتها لتقع، بدهشة بعض الشيء، على رجل ضئيل غير مميز الشكل. لم يُصدِّق ما رآه، فتتبع الخط المنقط التخيلي مرة أخرى. لكنها كانت حقًّا تركز بصرها على ذلك الرجل الضئيل ذي الوجه المستدير الذي يعلو وجهَه تعبيرُ النعاس. الآن ما الذي يمكن أن يثير اهتمام مارتا هالارد في شخص بهذا الشكل العادي، بعيد كل البعد عن الإثارة …

ثم تذكر جامي من هو ذلك الرجل الضئيل. إنه جيسون هارمر، كاتب الأغاني. أحد أصدقاء كريستين المقربين. «مصدر البهجة» بالنسبة إلى مارتا. وإذا كان حكم المرأة سيُقبل، فهو أي شيء بخلاف أنه غير مثير. في الواقع، هذا هو الرجل الذي كان يشاع أنه عشيق كريستين كلاي. أطلق عقل جامي ما يعادل صافرة طويلة ومنخفضة. حسنًا، حسنًا، إذن هذا هو جاي هارمر. لم يسبق له أن رآه إلا على أغلفة أسطوانات الأغاني حتى الآن. إن لدى النساء ذوقًا غريبًا، بكل تأكيد.

كان هارمر يستمع إلى ليديا باهتمام طفولي وهو منشغل تمامًا بما تقول. تساءل جامي كيف يمكن لأي شخص أن يظل غير مدرك لشعاع الاهتمام المركز الذي توجهه مارتا هالارد إليه. كان يجلس هناك، هادئًا قصير العنق، بينما تحملق عينا مارتا اللامعتان إلى جانب رأسه. الكثير من الهراء يثار حول جَعْلِ الناس يلتفتون بمجرد النظر إليهم. وما هو سبب اهتمام مارتا السري، على أي حال؟ لأنه سري بالفعل. أخفت حافة قبعتها عينيها عن مرافقها، وقد اعتبرت على نحو مُسلَّم به أن عيون الجميع تركز على من تُلقِي المحاضرة. وبينما هي غير مدركة أن هناك من يراقبها، تركت عينيها مركزتين على هارمر. فلماذا؟

هل هو اهتمام نابع من «الحب» ... وإذا كان الأمر كذلك، فما مقدار هذا الحب؟ أم أنها، على الرغم من مرافقتها له في تلك الليلة في شقتها، كانت ترى جيسون هارمر قاتلًا محتملًا؟

راقبهما جامي لمدة خمس عشرة دقيقة تقريبًا، بينما امتلأ عقله بالتكهنات. مرارًا وتَكرارًا، كانت عيناه تجوبان القاعة الصغيرة المزدحمة وتعودان إليهما. كان هناك الكثير من الاهتمام في أماكن أخرى، ولكن لم يكن اهتمامًا مثل هذا.

لقد تذكر دحض مارتا الفوري للإيحاء بوجود أكثر من صداقة بين هارمر وكريستين كلاي. ماذا يعني ذلك؟ هل كانت مهتمة به هي نفسها؟ وإلى أي مدى؟ ما مدى اهتمام مارتا هالارد؟ هل هو اهتمام يكفي للتخلص من منافسة؟

وجد نفسه يتساءل عما إذا كانت مارتا سبَّاحة ماهرة، ثم كبح جماح نفسه. قبل خمسة عشر دقيقة كان قد ضحك على فكرة أن تكون مارتا شغوفة بشخص ما لدرجة القتل. الفكرة ذاتها كانت سخيفة.

ولكن كان ذلك قبل أن يلاحظ اهتمامها — اهتمامها الطاغي الغريب — بجيسون. إذا افترضنا — افترضنا فحسب؛ لتمضية الوقت بينما تشق تلك المرأة طريقها الممل عبر الكواكب وتعود مرة أخرى — أن مارتا كانت مغرمة بهذا الرجل هارمر. هذا جعل كريستين منافسة مزدوجة لها، أليس كذلك؟ كانت كريستين في المكانة التي تطمح مارتا، على الرغم من الصورة التي يراها بها الجميع من السطحية واللامبالاة، إلى الوصول إليها؛ أن تعتلي قمة سُلم الشهرة. في كثيرٍ من الأحيان كانت مارتا على مشارف أن تصل إلى تلك القمة، لكن درجة السلم التي تقف عليها كانت تهوي بها إلى القاع مرة أخرى. بالتأكيد، وبدون أدنى شك، أرادت مارتا النجاح المهني. وبالتأكيد، على الرغم من كل كلماتها الرقيقة، كانت تشعر بالضغينة المرة تجاه عاملة المصنع الصغيرة من ميدلاندز، بسبب إنجازها المذهل، الذي يبدو سهلًا للغاية. قبل خمس سنوات، كانت مارتا قريبة جدًّا من المكان الذي تقف فيه الآن؛ كانت مشهورة، وناجحة، ومستقرة ماديًّا، وعلى مشارف الوصول إلى قمة السلم — تلك القمة المراوغة المسببة للدوار — قاب قوسين أو أدنى من تلك القمة. كانت قاب قوسين أو أدنى لمدة خمس سنوات. وفي غضون ذلك، كان ثمة راقصة مغمورة تغني وترقص وتمثل في مسرحية موسيقية في برودواي وتشق طريقها نحو القداسة.

لا عجب إن كانت كلمات مارتا الرقيقة عن كريستين هي مجرد نفاق. وإذا افترضنا أن كريستين لم تحصل فقط على المكانة التي كانت مارتا تتوق إليها، ولكن أيضًا على الرجل الذي ترغب فيه؟ ماذا إذن؟ هل كان ذلك كافيًا لجعل مارتا هالارد تكره لدرجة القتل؟

أين كانت مارتا عندما حدثت جريمة إغراق كريستين؟ في ميدان جروفنر، حسبما يفترض. في نهاية الأمر، كانت تمثل في ذلك العرض في سانت جيمس. كلا، مهلًا! في حفلة ليلة السبت تلك قيل شيء عن سفرها؟ ماذا كان؟ ماذا كان؟ لقد قالت شيئًا عن الممثلات المجتهدات، وقد سخر كليمنت كليمنتس قائلًا: «مجتهدات بالفعل. وقد أخذت لتوك أسبوعًا إجازة لتتجولي في أنحاء أوروبا!» فقالت: «ليس أسبوعًا يا كليمنت! إنها أربعة أيام فقط. من الممكن أن تؤدي الممثلة بعمود فقري مكسور، ولكنها لن تستطيع التمثيل أبدًا وهي مصابة بخراج في اللثة.»

فقال كليمنت إن خراج اللثة لم يمنعها من قضاء وقت رائع في دوفيل. وقالت: «ليس دوفيل. بل لو توكيه.»

لو توكيه. هذا هو المكان حيث كانت. وقد عادت في الوقت المناسب لتلحق بالحفل المبكر يوم السبت. لقد تحدثوا عن الاستقبال الذي حظيت به، وحجم «المنزل»، وغضب بديلتها. لقد عادت بعد أربعة أيام في لو توكيه! كانت في لو توكيه، على الجانب الآخر من القناة، عندما تُوفيت كريستين.

كانت ليديا تقول: «لو أن الآباء يدرسون الأبراج الخاصة بأطفالهم فقط بنفس الاجتهاد الذي يستخدمونه لدراسة وجباتهم الغذائية»، بصوت عالٍ مثل عصفور، ومثير للإعجاب، وتابعت: «سيصبح العالم مكانًا أكثر سعادة.»

ابتهج عقل جامي كما لو كان يقول: «لو توكيه! لو توكيه!» الآن استطاع التوصل إلى خيط ما! لم تكن مارتا هالارد على مقربة فقط من كريستين في ذلك الصباح القاتل، ولكن «كانت لديها الوسائل اللازمة لقطع المسافة بسهولة». لقد فتحت لو توكيه أبواب ذاكرته. كليمنتس ومارتا وجامي في تلك الزاوية البعيدة بجانب خزانة المشروبات، وهي تجيب عن أسئلة كليمنتس التافهة. لقد ذهبت إلى هناك، على ما يبدو، مع شخص في طائرة خاصة، وعادت بالطريقة نفسها. وكانت الطائرة برمائية!

في ذلك الصباح المليء بالضباب، هبطت طائرة إمَّا على المنحدرات أو على البحر، وبقيت قليلًا، ثم طارت مرة أخرى دون أن يلاحظها أحد سوى سباحة وحيدة. كان جامي على يقين من ذلك لدرجة أنه يمكنه رؤية الطائرة تظهر من وسط الضباب مثل طائر عملاق وتهبط على الماء.

من قاد تلك الطائرة؟ ليس هارمر. لم يكن هارمر خارج إنجلترا. وهذا هو سبب اهتمام الشرطة به. كان هارمر في قلب الحدث. كان لديه حُجة غياب من نوع ما، لكن جامي لا يعرف ما إذا كانت جيدة أم لا. فالشرطة متكتمة للغاية. حسنًا، لقد كان قاب

قوسين أو أدنى من الوصول إلى شيء لم تتمكن الشرطة من الوصول إليه، على الرغم من الكفاءة التي يتفاخرون بها. إن مارتا صديقة لجرانت: لذا كان من الطبيعي أن يغضَّ الطرف عنها: فهو لم يرها أبدًا تنظر إلى هارمر، كما يراها جامي الآن؛ ولم يكن يعرف شيئًا عن تلك الطائرة، يمكن لجامي أن يُقسم على ذلك. وقد أحدثت الطائرة كل الفرق.

وإذا كانت قضية طائرة، فإذن هناك اثنان مشاركان في الأمر. والطيار، إن لم يكن شريكًا في الجريمة، فهو بالتأكيد قد ساعد على ارتكابها.

عند هذه النقطة توقَّف عقل جامي عن التخيل لالتقاط الأنفاس. ونظر بدهشة عبر الصفوف الصامتة الأنيقة إلى المرأة الأنيقة ذات الرداء الأسود والأبيض. ما علاقة تلك المرأة اللطيفة الحاضرة هنا بالشخص الذي تخيله عقله؟ هذه هي مارتا هالارد الحقيقية، بذاتها المتأنقة، الكريمة، الهادئة. كيف سمح لعقله أن يجعل منها شيئًا مشوَّهًا ويائسًا لهذه الدرجة؟

لكنها كانت لا تزال تنظر بين الحين والآخر إلى جيسون، وتستقر عيناها عليه لفترة أطول مما تنظر فيها نحو ليديا. وكان هناك شيء ما في ذلك الوجه غير الحذر يربط مارتا الحقيقية بمارتا الغامضة التي ابتكرها خياله. أيًّا كانت حقيقة مارتا، فهي قادرة في نهاية الأمر على امتلاك مشاعر قوية.

تناهى إلى مسامع جامي صوت مثل صوت قطرات المطر قاطعًا حبل أفكاره؛ تصفيقة رقيقة من يديها ذواتي القفازين. يبدو أن ليديا قد وصلت إلى ختام المحاضرة. تنهَّد جامي بسعادة وتناول قبعته. أراد الخروج في الهواء والتفكير في خطوته التالية. لم يشعر بمثل هذا الحماس الشديد منذ أن قدَّم له العجوز ويلينجدون القصة الحصرية لكيفية وسبب ضرب زوجته حتى سال دمها.

ولكن يبدو أنه سيصبح هناك وقت للأسئلة. كانت الآنسة كيتس، وهي ترتشف الماء وتبتسم بلطف بين الرشفات، تنتظر الجمهور كي يستجمع أفكاره. ثم بدأ شخص جريء، وبعد برهة راحت الأسئلة تنهمر عليها. كان البعض مسليًا؛ ومن ثم راح الجمهور، الذي سئم هواء القاعة الدافئ، وصوت ليديا والمحاضرة المملة، يضحك ببساطة في ارتياح. بعد فترة قصيرة، أصبحت الأسئلة أكثر حميمية، ثم فجأة — ومن المحتم أن نصف الجمهور كان يتوقع ذلك — جاء السؤال:

هل صحيح أن الآنسة كيتس قد تنبَّأت بدقة بطريقة موت كريستين كلاي؟

ساد صمت مصدوم ومتلهف. فقالت ليديا، ببساطة وبوقار أكبر مما تمتلكه عادةً، إن هذا صحيح، وإنها غالبًا ما تتنبأ بالمستقبل على نحوٍ صحيح من خلال قراءة الأبراج. وأعطت بعض الأمثلة.

شجعت الحميمية المتزايدة للأجواء، على أن يسألها أحدهم عمَّا إذا كانت قدرتها على استشراف المستقبل قد ساعدتها في قراءة الأبراج. فانتظرت طويلًا قبل أن تجيب حتى حل السكون على الرءوس والأيدي المتحركة؛ وراقبتها عيون الجمهور بترقب.

قالت بعد فترة: «أجل. أجل. إنها ليست مسألة أحب مناقشتها. ولكن هناك أوقات عرفت فيها، بما يتجاوز المنطق، أن شيئًا كهذا سيحدث.» توقفت للحظة، كما لو كانت في شك، ثم خطت ثلاث خطوات للأمام إلى حافة المنصة باندفاع، حتى بدا أنها كانت تنوي السَّير على الهواء. «وهناك شيء واحد عرفته منذ صعودي على هذه المنصة. هذا الشيء هو أن قاتل كريستين كلاي موجود هنا في هذه القاعة.»

يقال إن تسعة وتسعين شخصًا من بين مائة، عندما يتلقَّون برقية تقول: «لقد اكتُشِف كل شيء: اهرب»، سيخطفون فرشاة أسنان ويهرعون للمرأب. كانت كلمات ليديا غير متوقعة تمامًا، ومعناها عندما تُستَوعب مُرعب للغاية، ولذا سادت لحظة من الصمت التام. ثم بدأت حالة من الاضطراب، وكأنها اللحظة الأولى لإعصار عاصف يجتاح النخيل. وفوق الضوضاء المتصاعدة، تعالت أصوات الكراسي وهي تُدفع بعيدًا عن الطريق وكأنها صرخات بشرية مدوية. وكلما دفعت جانبًا، زادت الفوضى وزاد قلق الهاربين كي يصلوا إلى الباب. لم يكن أحد من الحشد يعرف ما الذي يهرب منه. بدأ الأمر مع معظمهم كرغبة في الهروب من وضع متوتر؛ فهم جميعًا ينتمون إلى فئة من الناس تكره «الحرج.» لكن صعوبة الوصول إلى الباب عبر الكراسي المتناثرة والحشد المزدحم زاد من رغبتهم الطبيعية في الهروب، إلى ما يشبه الذعر.

كان مدير أعمالها يقول شيئًا من المفترض أن يصبح مطمئنًّا، للتغلب على الموقف؛ لكنه لم يُسمع على الإطلاق. وذهب شخص ما إلى ليديا، وسمعها جامي تقول:

«ما الذي جعلني أقول ذلك؟ أوه، ما الذي جعلني أقول ذلك؟»

وتقدَّم إلى الأمام ليصعد على المنصة، ووخزته حاسة الصحفي بداخله بحدس وقوع شيء ما. ولكن عندما وضع يده على حافة المنصة ليرتقيها، تعرَّف على مرافق ليديا. إنه ذلك الرجل من صحيفة «كورير». وتذكر أنها عمليًّا ملكية خاصة لصحيفة «كورير». لقد كان احتمال حصوله على حديث معها واحدًا إلى مليون، ووفق هذا الاحتمال، لم يكن الأمر

يستحق العناء. كان هناك تصرُّف أفضل، على أية حال. عندما أدلت ليديا بهذا التصريح المذهل، استدار جامي، بعد أن استعاد رباطة جأشه متغلبًا على دهشته، ليرى كيف تلقَّى شخصان محددان تلك الصدمة.

شحب وجه مارتا للغاية، وظهرت على وجهها أمارات الغضب. كانت واحدة من أوائل الذين وقفوا على أقدامهم، وتحركت فجأة لدرجة أن ليجون باغتته المفاجأة واضطُر إلى محاولة التقاط قبعته بصعوبة من تحت كعبيها. واتجهت نحو الباب دون أن تُلقيَ نظرةً ثانية على المنصة أو على ليديا، ولكن بما أنها كانت جالسةً في الصفوف الأمامية فقد أصبحت محتجزة في منتصف الطريق عبر القاعة، حيث أصبح الارتباك أسوأ بسبب شخص يعاني من هستيريا عنيفة.

من ناحية أخرى، لم يتحرك جيسون هارمر قيد أنملة. لقد استمر في النظر إلى ليديا بنفس الاهتمام المبتهج أثناء وبعد إعلانها المذهل مثلما كان ينظر إليها من قبل. لم يقم بأي تحرُّك كي ينهض حتى بدأ الناس يتجاوزونه. ثم قام بهدوء، وساعد امرأة على تسلق كرسي يسد طريقها، وربت على جيبه ليؤكد لنفسه أن شيئًا ما موجود بداخله (قفازاته على الأرجح)، ثم التفت إلى الباب.

استغرق الأمر من جامي عدة دقائق من التزاحم للوصول إلى مارتا، التي حشرت في فجوة بين مِشعاعَين.

قالت بشراسة: «الحمقى السخفاء!»، عندما ذكَّرها جامي بشخصيته. ونظرت، مع افتقارها إلى وقارها المعهود، نحو الحشد.

«سيكون الأمر ألطف لو فصل بينهم مكان الأوركسترا، أليس كذلك؟»

تذكرت مارتا أن هؤلاء هم جمهورها، ورآها تستجمع شتات نفسها على نحوٍ عفوي. لكنها كانت لا تزال «حانقةً» وَفقًا لجامي.

قال ليحثها على الكلام: «أمر مذهل.» ثم فسَّر قوله: «الآنسة كيتس.»

«إنه عرض مثير للاشمئزاز تمامًا!»

قال جامي في حَيرة: «مثير للاشمئزاز؟»

«لماذا لا تمارس الأكروبات في شارع ستراند؟»

«هل تظنين أن هذه مجرد حيلة دعائية؟»

«ماذا تسميها أنت؟ علامة من السماء؟»

«لكنك قلت بنفسك، يا آنسة هالارد، في تلك الليلة التي تلطفت فيها بالحديث معي، إنها ليست دجالة. وإنها حقًّا ...»

«بالطبع هي ليست دجالة! لقد جاءت ببعض قراءات الأبراج المذهلة. لكن هذا أمر مختلف تمامًا عن اكتشاف القتلة مقابل بنس واحد في المرة.» ثم قالت بعد وقفة وبنبرة تحمل غلًّا واضحًا: «إن لم تحترس ليديا، فسينتهي بها الأمر مثل إيمي ماكفرسون!»

خطر ببال جامي أن هذا لم يكن التصريح الذي توقع أن تصرِّح به مارتا. لم يكن يعرف ما الذي يتوقعه. لكن بطريقة ما لم يكن هذا. خلال الوقفة التي فرضها شكه، قالت بنبرة حاسمة جديدة:

«هذه ليست على الإطلاق، مقابلة صحفية، أليس كذلك يا سيد هوبكينز؟ لأنها إذا كانت كذلك، فمن فضلك افهم بوضوح أنني لم أقل شيئًا من هذه الأشياء.»

فقال: «حسنًا، يا آنسة هالارد، أنتِ لم تقولي كلمة واحدة.» وأضاف مبتسمًا: «ما لم تسألني الشرطة، بالطبع.»

قالت: «لا أعتقد أن علاقة الشرطة بك ودية. والآن، إذا تلطفت بالتحرك قليلًا إلى يسارك، أعتقد أنه يمكنني تجاوزك إلى تلك المساحة هناك.»

أومأت إليه، وابتسمت قليلًا، ودفعت بشخصها المعطر وتجاوزته إلى موضع أفضل، وابتلعها الحشد.

قال جامي لنفسه: «ليس هناك أي تغيير!» وبدأ في العودة آسفًا إلى حيث رأى جيسون هارمر آخر مرة. سبَّته الأرامل ورمقته الآنسات بنظرات غاضبة، لكن جامي أمضى نصف حياته في اجتياز الحشود. وهو يستطيع القيام بذلك بمنتهى المهارة.

«وما رأيك فيما حدث، يا سيد هارمر؟»

نظر إليه جيسون في صمتٍ مبتهج. ثم قال أخيرًا: «بكم؟»

«بكم ماذا؟»

«بكم ستقيِّم كلماتي الذهبية؟»

«نسخة مجانية من الصحيفة.»

ضحك جيسون، ثم أصبح وجهه رصينًا. وقال: «حسنًا، أعتقد أنني قد استفدت للغاية من هذه المحاضرة. هل تؤمن بعلم النجوم؟»

«لا أستطيع القول إنني أفعل.»

«أما أنا، فلست متأكدًا. هناك الكثير من الأمور التي تحدث في العالم ويفسرها هذا العلم، أيًّا كانت هذه الأمور. لقد رأيت بعض الأشياء العجيبة تحدث في القرية التي وُلدت فيها. أشياء تتعلق بالسحر وما إلى ذلك. ولم يكن لها تفسير بالأسباب الطبيعية. وهذا يجعلك تتساءل.»

«أين كان هذا؟»

جفل جيسون لأول مرة بعد ظهر ذلك اليوم. وقال باقتضاب: «شرق أوروبا.» واستطرد: «إن الآنسة كيتس تلك، مدهشة. لكن ليس من المريح أن تتزوج من امرأة مثلها. كلا، يا سيدي! إن معرفتك بما سيحدث لا بدَّ أن تفسد فرصك في الزواج ولو قليلًا. ألا تقول شيئًا مما كان يحدث. لكل رجل الحق في سرد أعذاره وحجج غيابه.»

تساءل جامي في سخط، عما إذا كان أحد سيتصرف على النحو المتوقع منه في هذا اليوم! ربما إذا شق طريقه نحو ليديا، فستتصرف هي على الأقل وفقًا للنمط الذي حدده لها.

تابع آملًا أن يحصل على إجابة مُرضية: «هل تعتقد أن الآنسة كيتس كانت تشعر على نحوٍ حقيقي بوجود الشر حولها عندما أدلت بهذا التصريح؟»

بدا جيسون متفاجئًا بعض الشيء وقال: «بالتأكيد، بالتأكيد. فأنت لا تجعل من نفسك أضحوكة بهذه الطريقة إلا إذا كنت مستنفرًا للغاية.»

«لقد لاحظت أنك لم تُفاجأ بالتصريح.»

«لقد عشت في الولايات المتحدة لمدة خمسة عشر عامًا. لم يَعُد هناك شيء يفاجئني. هل سبق ورأيت ممارسي الرقص المقدس من البروتستانت؟ هل سبق ورأيت مدينة كوني آيلاند للملاهي؟ هل سبق ورأيت متشردًا يحاول بيع منجم ذهب؟ اذهب إلى الغرب، أيها الشاب، اذهب إلى الغرب!»

قال جامي: «أنا ذاهب إلى المنزل للنوم»، وشق طريقه وسط الحشد.

ولكن عندما وصل إلى المدخل، تمالك نفسه قليلًا. وعدل ياقته وانتظر لرؤية الحشد يتجاوزه. بمجرد خروج الحشد من الباب الداخلي، وتنفس الهواء الآمن لشارع ويجمور، تجاوزوا مشاعر الخوف التي اعترتهم وانفجروا جميعًا في الحديث بانفعال.

لكن جامي لم يستخلص إلا القليل من أحاديثهم المسترسلة.

ثم رأى من بينهم وجهًا جعله يتوقف. وجه وسيم ذو رموش خفيفة ومظهر كلب تيرير لطيف. كان يعرف ذلك الرجل. إن اسمه سانجر. وكانت آخر مرة رآه فيها وهو يجلس على مكتب في سكوتلاند يارد.

إذن يمتلك جرانت القليل من الخيال في نهاية الأمر!

وضع جامي قبعته بمقت وخرج وهو يفكر فيما حدث.

الفصل العشرون

يتمتع جرانت بخيالٍ خصب، أجل. لكن ليس من نوع الخيال الذي يتمتع به جامي. لم يخطر بباله أبدًا أن يضيع وقت محقق كفء كسانجر بإرساله للنظر إلى الجمهور لمدة ساعتين. لقد كان سانجر موجودًا في إلويس هول لأن مهمته في ذلك الوقت كانت هي تتبُّع جيسون هارمر.

ومن ثم سرد الدراما التي حدثت في فترة ما بعد الظهر، وذكر أن هارمر كان، من وجهة نظره، غير متأثر على الإطلاق. وقد تحدَّث، جيسون، إلى هوبكينز الصحفي في جريدة «كلاريون» مباشرة بعد ما حدث في القاعة؛ ولكن يبدو أن هوبكينز لم يحصل منه على أي معلومات مهمة.

قال جرانت، وهو يرفع أحد حاجبيه: «حقًّا؟ إذا كان يستطيع أن يباري هوبكينز، فيجب أن نبدأ في التفكير فيه بشكل مختلف. إنه أذكى مما كنت أعتقد!» وابتسم سانجر ابتسامة عريضة.

بعد ظهر يوم الأربعاء، اتصل السيد إرسكين هاتفيًّا ليقول إن السمكة قد التقمت الطعم. ما قاله، بالطبع، هو أن: «خط التحقيق الذي اقترحه المفتش جرانت، على ما يبدو، أثبت نجاحه بشكل غير متوقع»، لكن ما قصده هو أن السمكة قد ظهرت. فهل سيأتي جرانت بأسرع ما يمكن لفحص وثيقة يحرص السيد إرسكين على عرضها عليه؟

بالطبع سيذهب جرانت! في غضون اثنتي عشرة دقيقة كان موجودًا في الغرفة الصغيرة ذات الضوء الأخضر.

قدم له إرسكين، بينما يده ترتجف أكثر من المعتاد، رسالة ليقرأها.

سيدي المحترم،

بعد أن رأيت إعلانك الذي يقول إنه إذا حضر هربرت جوتوبيد إلى مكتبك فسوف يسمع شيئًا لصالحه، يؤسفني القول إنني غير قادر على الحضور شخصيًّا، ولكن إذا أبلغتني بما لديك من أخبار في رسالة على العنوان التالي: ٥ شارع ثريدل، كانتربري، فسوف أتلقى الرسالة.

المخلص لك،

هربرت جوتوبيد

لمعت عينا جرانت وهو يقول: «كانتربري!» ثم تناول الرسالة بعناية. كانت الورقة رخيصة، والحبر رديئًا. ويدل الأسلوب والخط على أن صاحبهما محدود التعليم. تذكر جرانت رسالة كريستين بعباراتها السهلة وخطها الجيد، وتعجب للمرة الألف عن سر تربيتها المتميزة.

«كانتربري! أمر جيد على نحو لا يُصدَّق. عنوان لتسليم المراسلات. أتساءل لماذا؟ هل هربرت «مطلوب للعدالة» على أي نحو؟ إن شرطة سكوتلاند يارد بالتأكيد لا تعرفه. ليس بهذا الاسم على أي حال. من المؤسف أننا لا نملك صورة له.»

«وما هي خطوتنا التالية، أيها المفتش؟»

«اكتب له رسالة تقول إنه إذا لم يحضر بنفسه، فليس لديك ما يضمن أنه هربرت جوتوبيد، وبالتالي من الضروري أن يأتيَ إلى مكتبك!»

«أجل. أجل، بالتأكيد. سيكون ذلك ملائمًا تمامًا.»

لم يكن جرانت مهتمًّا في الحقيقة بأن يتم الأمر على نحو ملائم. كيف يتخيل هؤلاء الرجال طرق القبض على المجرمين؟ بكل تأكيد، ليس من خلال التساؤل عمَّا إذا الأمر ملائمًا!

«إذا أرسلتها على الفور، فستصل إلى كانتربري الليلة. سأذهب إلى هناك صباح الغد وأنتظر الرجل عند وصوله. هل يمكنني استخدام هاتفك؟»

ومن ثم اتصل بسكوتلاند يارد وسأل: «هل أنت متأكد من أنه لا يوجد في قائمة الرجال «المطلوب القبض عليهم» من لديه شغف بالوعظ أو تصنُّع التقوى؟»

جاءت الإجابة بالنفي، فقط هولي مايك، وكان كل فرد في القوة يعرفه منذ سنوات. بالمناسبة، لقد أُبلغ عنه من بليموث.

قال جرانت: «كم هو مناسب!»، وأنهى المكالمة. ثم قال لإرسكين: «أمر غريب!» وتابع: «إذا لم يكن مطلوبًا القبض عليه، فلماذا يختبئ؟ إذا لم يكن لديه أي شيء في ضميره ... كلا، ليس لديه ضمير. أعني، إذا لم يكن لدينا شيء ضده، كنت أظن أن نفس الرجل سيُهرَع إلى مكتبك بمجرد الاطلاع على الرسالة. كان سيفعل أي شيء تقريبًا مقابل المال. لقد عرفت كلاي كيف تؤذيه عندما تركت له ذلك الشلن.»

«إن الليدي إدوارد كانت تستطيع الحكم على الشخصيات بذكاء. أظن أنها تربَّت في مدرسة صعبة، وهذه الحقيقة ساعدتها على التمييز.»

فسأله جرانت عما إذا كان يعرفها جيدًا.

«كلا، يؤسفني أن أقول كلا. لكنها امرأة فاتنة للغاية. لا تتحمل الشكل التقليدي، ولكن بخلاف ذلك ...»

أجل. كان جرانت يكاد يسمعها وهي تقول: «وماذا يعني ذلك بلغة إنجليزية بسيطة؟» هي، أيضًا، لا بدَّ أنها عانت من السيد إرسكين.

ومن ثَم انصرف جرانت، وأخطرَ ويليامز أن يستعدَّ لمرافقته صباح اليوم التالي إلى كانتربري، ورتب بديلًا في غيابهما معًا، وعاد إلى المنزل ونام لمدة عشر ساعات. وفي الصباح، في وقت مبكر جدًّا، غادر هو وويليامز لندن التي لم تستيقظ بعد، ووصلا إلى كانتربري في وقت الإفطار.

اتضح أن عنوان المراسلات، كما توقَّع جرانت، يخص متجرًا صغيرًا لبيع الصحف في شارع جانبي. فكر جرانت في الأمر، وقال: «لا أعتقد أن صديقنا سيظهر في هذا الوقت من اليوم، لكن لا يمكننا أن نتيقَّن من ذلك أبدًا. اذهب إلى الحانة الصغيرة في الجهة المقابلة، واحجز تلك الغرفة فوق باب الحانة، واطلب منهم أن يرسلوا الإفطار إليك. ولا تترك النافذة، وراقب كل من يأتي. أما أنا فسأدخل. وعندما أريدك سأشير من نافذة المتجر.»

«ألن تتناول الإفطار يا سيدي؟»

«لقد تناولته. مع ذلك، يمكنك طلب الغداء في الساعة الواحدة. لا يبدو من نوع الأماكن الذي يقدم شرائح اللحم المشوي.»

ظل جرانت في مكانه حتى رأى ويليامز يُطلُّ من النافذة العلوية. ثم دخل إلى المتجر الصغير. وهناك وجد رجلًا بدينًا أصلع الرأس ذا شارب أسود كثيف يَنقُل علب السجائر من صندوق الورق المقوَّى إلى عُلبة زجاجية.

«صباح الخير. هل أنت السيد ريكيت؟»

قال السيد ريكيت بحذر: «هذا أنا.»

«لقد علمت أنك تستخدم هذا المتجر أحيانًا كعنوان مراسلات، أليس كذلك؟»

تفحَّصه السيد ريكيت. وتساءلت عينه الخبيرة، هل هو زَبون أم شرطي؟ وقررت الإجابة بشكل صحيح.

«وماذا لو فعلت؟ ليس هناك خطأ في هذا، أليس كذلك؟»

أجاب جرانت بمرح: «بالطبع، ليس هناك أي خطأ! أردت أن أعرف فقط ما إذا كنت تعرف السيد هربرت جوتوبيد؟»

«هل هذه مزحة؟»

«بالتأكيد لا. لقد أعطى عنوان متجرك كعنوان لمراسلاته، وتساءلت إذا كنت تعرفه.»

«لست أنا. أنا لا أهتم بالأشخاص الذين لديهم رسائل. إنهم يدفعون رسومهم عندما يأتون لتسلمها، وهذا يُنهي الأمرَ من جانبي.»

«فهمت. حسنًا، أريدك أن تساعدني. أريدك أن تسمح لي بالبقاء في متجرك حتى يأتيَ السيد جوتوبيد لتسلُّم رسالته. هل لديك رسالة له؟»

«أجل، لدي رسالة. وصلت الليلة الماضية. لكن ... هل أنت شرطي؟»

«من سكوتلاند يارد.» وأظهر جرانت البطاقة التي تثبت وظيفته.

«أجل. حسنًا، لا أريد أن يتم اعتقال أي شخص في مقر عملي. هذا متجر محترم، بكل تأكيد، حتى لو كنت أفعل القليل من الأعمال الإضافية. لا أريد أي شيء يلوث سمعة متجري.»

أكدَّ له جرانت أنه ليس هناك تفكير في أي اعتقال. كل ما يريده هو مقابلة السيد جوتوبيد. ويريد الحصول على معلومات منه.

أوه، حسنًا، إذا كان هذا كل ما في الأمر.

ومن ثم جلس جرانت خلف المكتب الصغير للصحف الصفراء عند نهاية منضدة البيع، ووجد الصباح يمرُّ ليس ببطء شديد كما كان يخشى. إن الإنسانية، حتى بعد كل السنوات التي قضاها جرانت في الشرطة، لا تزال تحظى باهتمام متحمس في عيونه — باستثناء لحظات الاكتئاب — وقد تبين له أن الاهتمام ما زال وفيرًا. كان ويليامز، الذي يراقب شارعًا عاديًّا في بلدة صغيرة، هو من شعَر بالملل. ورحب بالمحادثة التي استمرت نصف ساعة خلف الكتب عندما ذهب جرانت لتناول الغداء، ثم عاد على مضض إلى الغرفة المزعجة فوق الحانة. انتهت فترة ما بعد الظهيرة الصيفية الطويلة الدافئة الملبَّدة بالغيوم،

مفسحة الطريق لشفق ضبابي مبكر للغاية. وظهرت أضواء المصابيح الأولى شاحبة جدًّا في ضوء الشفق.

سأل جرانت بقلق: «متى تغلق المتجر؟»

«أوه، في الساعة العاشرة تقريبًا.»

كان لا يزال هناك متسع من الوقت.

وبعد ذلك، عند نحو الساعة التاسعة والنصف، أدرك جرانت وجود شخص في المتجر. لم يكن ثمة علامات على دخول شخص من خُطى أقدام، أو أي إعلان على الإطلاق باستثناء حفيف ملابس. نظر جرانت ليرى رجلًا يرتدي زي راهب.

قال صوت مرتفع متذمر: «لديك رسالة موجهة إلى السيد هربرت ...»

لفتت حركة خفيفة من جانب جرانت الانتباه إلى وجوده.

وبدون توقف للحظة استدار الرجل واختفى، دون حتى أن يُتم جملته.

كان الظهور غير متوقع للغاية، والاختفاء مفاجئًا للغاية، لدرجة أنه مرت ثانية أو ثانيتان قبل أن يتمكن عقل جرانت البشري من التعامل مع الموقف. لكن جرانت أسرع إلى خارج المتجر قبل أن يصبح الغريب على بعد أمتار قليلة في الشارع. ورأى الرجل ينعطف إلى زقاق، ثم ركض. كانت عبارة عن ساحة خلفية صغيرة لعدة منازل مكونة من طابَقَين، وجميع الأبواب مفتوحة للأمسية الدافئة، وهناك زقاقان عرضيان يؤديان للخروج منها. لقد اختفى الرجل. واستدار ليجد ويليامز وراءه، وهو يلهث قليلًا.

فقال: «حمدًا لله على مجيئك! لكن للأسف اختفى. اسلك أنت هذا الزقاق وسأسلك أنا الآخر. إنه يرتدي زي راهب من نوعٍ ما!»

قال ويليامز، وهو يتحرك بسرعة: «لقد رأيته!»

لكن لم يُثمر بحثهما عن شيء. في غضون عشر دقائق التقيا في متجر بائع الصحف، خاليَي الوفاض.

سأل جرانت السيد ريكيت بحدَّة: «من كان ذلك الرجل؟»

«لا أعرف. لم أرَه من قبل على حد علمي.»

«هل يوجد دير هنا؟»

«في كانتربري؟ كلا!»

«حسنًا، وماذا عن المقاطعة؟»

«لا، على حد علمي.»

وضعت امرأة من خلفهم ستة بنسات على المنضدة. وقالت: «أريد علبة سجائر جولد فليك.» وأضافت: «هل تبحث عن دير؟ هناك أخوية في بلاي فينيل. إنهم في سبيلهم لأن يصبحوا رهبانًا. إنهم حاسرو الرءوس ويلفون الحبال حول وسطهم.»

سأل جرانت: «أين ... ماذا قلتِ؟ بلاي فينيل؟ هل هو بعيد عن هنا؟»

«كلا. على بعد شارعين. قريب للغاية، لكن هذا لن يصبح سهلًا بالنسبة إليك في كانتربري. إنه في الأزقة خلف مطعم «كوك آند فيزانت». كنت سأريك الطريق بنفسي، إذا لم يكن جيم ينتظر أن أعود إليه بالسجائر. علبة من فئة ستة بنسات، يا سيد ريكيت، من فضلك.»

قال السيد ريكيت، على نحو فظ، متجنبًا عينَي المحقق: «لقد انقضت ساعات العمل.» كانت ثقة المرأة في حد ذاتها إدانة.

بدت مندهشة، وقبل أن ترد عليه بأي شيء آخر، أخرج جرانت علبة السجائر الخاصة به من جيبه. وقال: «يا سيدتي، يقولون إن الأمة تحصل على القوانين التي تستحقها. ليس من سلطتي الضعيفة أن أحصل على علبة سجائر من فئة ستة بنسات من أجلك، لكن من فضلك دعيني أرد لك صنيعك بأن أعطيَك سجائر لجيم.» ووضع سجائره في يديها وهي مندهشة، وصرفها، بينما تحتج.

ثم قال لريكيت: «والآن، بخصوص هذه الأخوية أو أيًّا كانت. هل تعرف شيئًا عنها؟»

«كلا. هناك شيء من هذا القبيل، الآن أتذكره. لكنني لا أعرف أين يتسكَّعون. لقد سمعتَ ما قالته السيدة. خلف مطعم «كوك آند فيزانت». نصف غريبي الأطوار في العالم لهم فروع هنا، في واقع الأمر. أنا سأغلق المتجر الآن.»

قال جرانت: «لو كنت في موضعك لكنت فعلت ذلك. إن الناس الذين يريدون سجائر هم مصدر إزعاج.»

زمجر السيد ريكيت.

«هيا بنا، يا ويليامز. وتذكر، يا ريكيت، لا تخبر أحدًا بكلمة واحدة عن هذا الأمر. ومن المحتمل أن ترانا غدًا.»

كان مفهومًا أن ريكيت يقول إنه إذا لم يرهم مرة أخرى، فسيصبح ذلك مفضلًا للغاية.

قال ويليامز وهم يسيرون عبر الشارع: «هذا موقف غريب، يا سيدي. ما هو البرنامج الآن؟»

«سوف أزور الأخوية. لا أعتقد أن من الأفضل أن تأتي معي، يا ويليامز. إن وجهك الوسيم المتورد مثل مواطني ووسترشير لا يدل على أي توق للزهد في الحياة.»

«تقصد أني أبدو كشرطي. أعلم، يا سيدي. إن هذا يُقلقني كثيرًا. فهو أمر سيئ من أجل العمل. أنت لا تعرف كم أحسدك على مظهرك، يا سيدي. يظن الناس أنك ضابط في الجيش في اللحظة التي يرونك فيها. إن الأمر يصبح دائمًا جيدًا للغاية عندما يظن الناس أنك ضابط في الجيش.»

«هذا محض هراء، ومع ذلك أجده مفاجئًا! كلا، لم أَكُن أفكر في مظهرك، يا ويليامز، ليس بهذه الطريقة. كل ما كنت أعنيه أن قدومك سيكون بلا فائدة. إنها مهمة لشخص واحد. من الأفضل أن تعود إلى الحانة وتنتظرني. فلتتناول وجبة.»

وجدا المكان بعد قليل من البحث. صف من نوافذ الطابَق الأول يُطل على الزقاق، لكن الفتحة الوحيدة في الطابق الأرضي كانت بابًا ضيقًا ثقيلًا ومرصَّعًا بالمسامير. ويبدو أن واجهة المبنى كانت في فناء أو حديقة. لم يكن هناك لوحة ولا كتابة على الباب لإعطاء معلومات للفضوليين. ولكن كان هناك جرس.

رنَّ جرانت الجرس، وبعد فترة طويلة صدر صوت خافت عبر الباب الثقيل، لخطوات أقدام على أرضية حجرية. ثم فُتحت نافذة صغيرة في الباب، وسأل رجل عما يريد جرانت.

طلب جرانت مقابلة المدير.

«من الذي ترغب في رؤيته؟»

قال جرانت بحزم: «المدير.» لم يكن يعرف ما إذا كانوا يطلقون على المسئول الأول عنهم لقب رئيس الدير أم كبير الدير؛ وبدا له لقب المدير جيدًا بما فيه الكفاية.

«إن الأب القس لا يقابل الجمهور في هذه الساعة.»

قال جرانت، وهو يقدم له البطاقة المربعة الصغيرة عبر النافذة: «من فضلك قدم بطاقتي للأب القس، وأخبره أنني سأصبح ممتنًّا لو قابلني بشأن مسألة ذات أهمية.»

«لا توجد مسألة دنيوية لها أهمية.»

«قد يكون رأي الأب القس مختلفًا عندما تُقدم له بطاقتي.»

أُغلقت النافذة الصغيرة على نحوٍ قد يوصَف في مجتمع أقل قداسة بأنه وقح، وترك جرانت في الشارع المظلم. فحيَّاه ويليامز بصمت من على بعد خطوات واستدار مبتعدًا. كانت الأصوات البعيدة لأطفال يلعبون تأتي بوضوح من الشوارع المجاورة، لكن لم يكن هناك حركة مرور في الزقاق. كان وقع خُطى ويليامز قد تلاشى من السمع قبل فترة طويلة

من سماع صوت تلك الخطوات العائدة في الممر خلف الباب. ثم سمع صرير مزلاج الباب يُفتح والمفتاح يدور. (ما الذي يوصدون أبوابهم أمامه؟ تساءل جرانت. أيوصدونها أمام الحياة؟ أم كانت القضبان للحفاظ على الإرادة الضالة في الداخل؟) فُتح الباب بما يكفي كي يدخل، وأذِن له الرجل بالدخول.

غمغم الرجل، وهو يغلق المزلاج مرة أخرى ويدير المفتاح، قائلًا: «السلام معك ومع كل النفوس المسيحية وبركة الرب الإله معك الآن وإلى الأبد، آمين». اعتقد جرانت أنه إذا كان يهمهم سطرًا من أغنية (غنِّ لي أحيانًا)، لأصبح التأثير مشابهًا تمامًا.

قال الرجل: «إن الأب القس بتعطفه سوف يقابلك»، وقاده عبر الممر الحجري، بينما يُدوِّي صوت صندله على الممر. ثم أدخل جرانت إلى غرفة صغيرة مطلية باللون الأبيض، عارية من الأثاث باستثناء طاولة وكراسي وصليب، وقال: «السلام معك»، وأغلق الباب، تاركًا جرانت وحده. كان الجو باردًا للغاية هناك، وأمل جرانت ألا يؤدبه الأب القس بتركه هناك لفترة طويلة.

ولكن بعد أقل من خمس دقائق عاد حارس البوابة وبتأثُّرٍ كبير انحنى لتحية مديره. وألقى دعاءً آخر من أدعيته التي يغمغم بها وترك الرجلين معًا. توقع جرانت النوع المتعصب؛ وبدلًا من ذلك وجده من نوع الواعظ الناجح؛ هادئًا، ثابتًا، خبيرًا بشئون الحياة والناس.

«هل يمكنني مساعدتك، يا ولدي؟»

«أعتقد أن لديك في أخويتك رجلًا اسمه هربرت جوتوبيد ...»

«لا يوجد أحد بهذا الاسم هنا.»

«لم أَكُن أتوقع أن يكون هذا هو الاسم الذي يُعرف به في جماعتك، لكنك بلا شك على دراية بالأسماء الحقيقية للرجال الذين يدخلون في جماعتك.»

«يُنسى الاسم الدنيوي للرجل يوم دخوله من الباب ليصبح واحدًا منا.»

«لقد سألتُ عمَّا إذا كان يمكنك مساعدتي.»

«ما زلت أرغب في مساعدتك.»

«أريد أن أرى هربرت جوتوبيد. لدي أخبار له.»

«لا أعرف أحدًا بهذا الاسم. ولا يمكن أن تصبح هناك «أخبار» لرجل انضم إلى هيئة أخوية شجرة لبنان.»

«حسنًا. قد لا تعرف الرجل باسم جوتوبيد. لكن الرجل الذي أريد مقابلته هو واحد من جماعتك. يجب أن أطلب منك السماح لي بالعثور عليه.»

«هل تقترح أن أستعرض أمامك جماعتي لتبحث عن بُغيتِك؟»

«كلا. إن لديك نوعًا من الخدمة يحضرها جميع أفراد أخويتك، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد.»

«اسمح لي أن أحضر مراسم هذه الخدمة.»

«هذا طلب غير معتاد.»

«ما هو موعد الخدمة التالية؟»

«بعد نصف ساعة تبدأ خدمة منتصف الليل.»

«إذن كل ما أطلبه هو مقعد حيث يمكنني رؤية وجوه أفراد جماعتك.»

تردَّد الأب القس، وذكر حرمة البيت المُقدَّس، لكن عبارات جرانت التي ألقيت عرَضًا عن القوانين العرفية الجذابة، ولكن القديمة، من الدستور الملكي المقدس الذي لا يزال باقيًا، جعلته يغير رأيه.

«بالمناسبة، هلَّا أخبرتني ... أخشى أنني جاهل جدًّا بقواعدكم وأساليب حياتكم ... هل لأفراد جماعتك أعمال في المدينة؟»

«كلا. فقط عندما يتطلب العمل الخيري ذلك.»

«هل يلتزم الإخوة بعدم الاختلاط مع العالم على الإطلاق إذن؟» سيحصل هربرت على حُجة غياب رائعة، إذا كان الأمر كذلك!

«لمدة أربع وعشرين ساعة كل شهر، يختلط أحد الإخوة بالعالم. وهذا أمر مقصود خشية أن يولِّد عدم تلوث الحياة وسط الجماعة إحساسَ الإخوة بالغرور والعُجب. لمدة ساعات النهار الاثنتي عشرة، عليه أن يساعد إخوانه البشر وفق ما يتاح له من الطرق. أمَّا في ساعات الليل الاثنتي عشرة، فعليه أن يتأمَّل في مكانٍ بمفرده: في الصيف في مكان مفتوح، وفي الشتاء في إحدى الكنائس.»

«فهمت. والأربع وعشرون ساعة تبدأ ... متى؟»

«من منتصف الليل إلى منتصف الليل.»

«شكرًا لك.»

الفصل الحادي والعشرون

أقيمت مراسم الخدمة في كنيسة صغيرة عارية من الزخارف، مضاءة بالشموع ومطلية بالأبيض، بسيطة للغاية باستثناء روعة المذبح بجملونه المثلث الشكل. فوجئ جرانت بمظهر المذبح. قد يكون الإخوة فقراء، ولكن هناك ثروة في مكان ما. قد تكون الأوعية على المفرش المخملي الأبيض، والصليب، قد نُهِبَت من كاتدرائية أمريكية إسبانية على يد أحد القراصنة. لقد وجد صعوبة في ربط هربرت جوتوبيد الذي يعرفه عن طريق سمعته بهذا الكيان المنعزل الشديد الفقر. كونك مسرحيًّا من دون جمهور غير نفسك سرعان ما يفقد سحره. لكن منظر ذلك المذبح جعله يتوقف. ربما كان هربرت يعمل بشكل صحيح في نهاية المطاف.

لم يسمع جرانت أيَّ كلمة من الخدمة. من مقعده في التجويف المعتم لنافذة جانبية، تمكَّن من رؤية كل وجوه المشاركين؛ أكثر من عشرين شخصًا؛ ووجدها دراسة رائعة. كان بعضهم غريبي الأطوار (إذ يرى المرء نفس الوجوه في اجتماعات «المعارضة» ومهرجانات الرقص الشعبي)، وبعضهم متعصبين (مازوخيين يبحثون عن قميص خيش عصري)، والبعض الآخر بسيط، والبعض الآخر على خلاف مع أنفسهم ويبحثون عن السلام، والبعض الآخر على خلاف مع العالم ويبحثون عن ملاذ. وجد جرانت، وهو يتفحصهم باهتمام مفعم بالحيوية، أن نظرته قد استقرت على وجه واحد. والآن ما الذي جعل صاحب هذا الوجه يعيش حياة العزلة وإنكار الذات؟ وجه شاحب مستدير على رأس مستدير غير متناسق، وعينان ضيقتان، وأنف ضخم، وشفة سفلية مرتخية، تتدلى بعيدًا عن أسنانه وهو يردد كلمات الخدمة. كان من السهل دمج كل الآخرين في تلك الكنيسة الصغيرة في مواضع تليق بهم في الحياة اليومية؛ المدير في أسقفية، وهذا في غرفة انتظار طبيب أمراض عصبية، وذاك في مركز للعاطلين عن العمل. لكن ما الموضع الملائم لهذا الأخير؟

كانت هناك إجابة واحدة فقط. في قفص الاتهام.

قالت نفس جرانت الأخرى له: «إذن، هذا هو هربرت جوتوبيد.» لم يكن متأكدًا بالطبع حتى يرى الرجل يمشي. كان هذا كل ما رآه منه؛ مشيته. لكنه كان على استعداد للمراهنة على حُكمه. إن أفضل الخبراء يخطئون أحيانًا فيما يصدرونه من أحكام — قد يتضح أن جوتوبيد هو ذلك الشخص النحيل ذي المظهر المسالم في الصف الأمامي — لكنه سيُفاجأ إذا كان جوتوبيد هو أي شخص آخر غير ذلك المخلوق اللزج ذي الشفة السفلية المتدلية.

عندما خرج الرجال بعد منتصف الليل، لم يَعُد لديه شك. كان لدى جوتوبيد مشية غريبة تميزه عن باقي الرجال.

ومن ثم تبعهم جرانت للخارج وعندئذٍ ذهب إلى الأب القس. ما اسم آخر رجل غادر الكنيسة؟

إنه الأخ ألويسيوس.

وبعد قليل من محاولات الإقناع أرسل لاستدعائه.

وبينما هم ينتظرون تحدث جرانت على نحوٍ رسمي عن الجماعة وقواعدها وعلم أنه لا يحق لأي فرد أن يمتلك أي أملاك دنيوية ولا أن يتواصل مع أي إنسان من أجل غرض دنيوي. تلك التفاهات الدنيوية مثل الصحف لم يكن أحد، بالطبع، يفكر فيها. كما علم أيضًا أن الأب القس ينتوي خلال شهر أن يتولى مسئولية إرسالية جديدة في المكسيك، التي بنوها من أموالهم الخاصة، وأن امتياز اختيار من يَخلُفه في منصبه يقع على عاتقه وحده.

فخطرت فكرة على ذهن جرانت.

«أنا لا أريد أن أكون وقحًا — وأرجو ألا تعتبر هذا فضولًا تافهًا — ولكن هلا أخبرتني ما إذا كنت قد قررت في ذهنك اختيار شخص محدد؟»

«لقد قررت بالفعل.»

«هل يمكن أن تخبرني من هو؟»

«أنا حقًّا لا أجد سببًا يجعلني أخبر شخصًا غريبًا بما أنا لست مستعدًّا لإخباره للإخوة في جماعتي، لكن لا يوجد سبب أيضًا يمنعني من إخبارك إذا تعهَّدت بالحفاظ على السر.» فتعهَّد جرانت بذلك. وتابع الرجل: «إن من سيخلفني في منصبي من المحتمل أن يكون الرجل الذي طلبت مقابلته.»

قال جرانت دون أن يفكر: «لكنه انضم للأخوية منذ فترة قصيرة!»

قال الأب القس بحدَّة: «أنا في حيرة كي أعرف كيف علمت هذا. صحيح أن الأخ ألويسيوس قد انضم إلينا منذ شهور قليلة، لكن الصفات اللازمة لتولي رئاسة الأخوية (إذن فهو رئيس أخوية!) لا تُنمَّى بطول الخدمة.»

غمغم جرانت بالموافقة، ثم سأل عن الفرد في الجماعة الذي خرج في مهمة للشارع هذه الليلة.

قال القس بحسم، لم يخرج أحد منهم؛ ثم انتهت المحادثة بدخول الرجل الذي أراده جرانت.

حيث وقف في خمول، وهو يطوي يديه داخل الأكمام الواسعة للعباءة البنية الداكنة. ولاحظ جرانت أنه لا يرتدي صندلًا في قدميه ويسير حافيًا، وتذكر أنه لم يكن هناك أي وقع أقدام عند دخوله متجر الصحف. تساءل جرانت الذي كان يتمتع بالقدرة على المراقبة والتفحُّص عما إذا كان مشيه حافي القدمين دليلًا على التواضع أم أنه وسيلة لإخفاء وقع أقدامه وهذا ما يتناسب بشدة مع شخصية هربرت.

قال رئيس الأخوية: «هذا هو الأخ ألويسيوس»، وتركهما مباركًا إياهما، ولكن بطريقة أكثر تحريكًا للمشاعر من حارس البوابة.

قال جرانت: «أنا من مكتب السادة إرسكين وسميث وإرسكين، المحامين في تيمبل. هل أنت هربرت جوتوبيد.»

«أنا الأخ ألويسيوس.»

«هل كان اسمك قبل الرهبنة هربرت جوتوبيد.»

«لم أسمع بهذا الاسم من قبل.»

تفحَّصه جرانت للحظة. ثم قال: «أنا آسف. نحن نبحث عن جوتوبيد من أجل ميراث تُرك له.»

«حقًّا؟ إذا كان أخًا في هذه الأخوية، فإن هذا الخبر لن يمثل له أهمية تُذكَر.»

«إذا كان الميراث كبيرًا بما يكفي، فهو قد يدرك أن بإمكانه فعل الكثير من أجل قضية العمل الخيري خارج هذه الجدران أكثر مما وهو بداخلها.»

«إن قسَمنا أبديٌّ. لا يوجد شيء مما يحدث خارج هذه الجدران يثير اهتمام أي عضو في أخويتنا.»

«إذن فأنت تُنكر أنك هربرت جوتوبيد، أليس كذلك؟»

كان جرانت يقود المحادثة على نحوٍ عفوي. وما كان عقله منشغلًا به، حسبما اكتشف، هو أن ذلك التعبير في عين الرجل الضيقة الشاحبة كان عبارة عن الكراهية. كان نادرًا

ما يرى مثل هذه الكراهية. لكن لماذا الكراهية؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه ذهنه. من المفترض أن يصبح التعبير هو الخوف، بكل تأكيد؟

شعَر جرانت أنه لم يكن مطارِدًا في نظر هذا الرجل، ولكنه مجرد شخص متطفل. وظل الإحساس يلازمه بعد أن غادر المكان وطَوال طريق العودة إلى النُّزل المقابل لمتجر التبغ والصحف.

كان ويليامز قلقًا بشأن الوجبة الباردة التي طلبها من أجل مديره.

سأل جرانت: «هل هناك أي أخبار؟»

«كلا، يا سيدي.»

«هل هناك أي معلومات عن تيسدول؟ هل اتصلت عبر الهاتف؟»

«أجل، لقد اتصلت منذ عشرين دقيقة. لا توجد أي معلومات، يا سيدي.»

وضع جرانت بعض شرائح من اللحم في شطيرة خبز. وقال: «أمر مؤسف. كنت سأمارس عملي على نحوٍ أفضل إذا انتهيت من التفكير في أمر تيسدول. هيا بنا. لن نحظى بفرصة النوم هذه الليلة.»

«ما الأمر، يا سيدي؟ هل عثرت عليه؟»

«أجل، إنه هناك بالفعل. لكنه يُنكر أنه جوتوبيد. وهم ممنوعون من إجراء أي معاملات دنيوية. لذا كان حذرًا للغاية في المتجر. لم ينتظر حتى لرؤية من هو الشخص الثاني خلف طاولة البيع، وهرب فقط عند مجرد رؤية من يشاهده. وهذا هو ما يُقلقني، يا ويليامز. يبدو أنه مشغول للغاية بعدم طرده خارج الأخوية أكثر من خوفه من الاتهام بجريمة قتل.»

«لكن هروبه من المتجر ربما يكون بسبب أنه يريد الاستمرار في الاختباء. وهذا الدير مكان جيد للاختباء يتمناه أيُّ قاتل.»

«أ … جل. أجل، لكنه ليس خائفًا. إنه غاضب. إننا نُفسد عليه أمرًا ما.»

كانا يهبطان على السُّلم بهدوء، بينما يقضم جرانت قضمات كبيرة من شطيرته التي صنعها على عجل. ومع وصولهما للدور الأرضي قابلا سيدة ضخمة سدت عليهما طريق الخروج من السُّلم. لم تكن تحمل قضيب إذكاء نار في يدها، لكنها أعطت نفس التأثير المخيف.

وقالت، بغِلٍّ شديد: «إذن فهذا ما أنتما عليه! كائنان ليليان متسللان. تأتيان إلى هنا، على حين غرة، بالفعل، وتجعلانني أنا وزوجي نشتري أفضل المنتجات من أجل وجباتكما

— أضلعًا من النوع ذي عشرة قروش للضلع، ولحم لسان من النوع ذي خمسة قروش للكيلو، ناهيك عن الطماطم الإنجليزية كي تناسب ذوقكما الرفيع — وكل ما نحصل عليه مقابل ما أنفقناه من مال ومشقة هو غرفتان خاليتان في الصباح. أنا أشعر أن عليَّ أن أتصل بالشرطة وأوجِّه التهم إليكما ... لولا ...»

قال جرانت في غضب: «أوه، بحق السماء!»؛ ثم بدأ في الضحك. وتمسَّك بدرابزين السُّلم وهو غير قادر على التوقف عن الضحك، بينما تحدث ويليامز لصاحبة الفندق الغاضبة.

فقالت: «حسنًا، لماذا لم تقولا إنكما شرطيان؟»

قال ويليامز، على نحو غاضب: «نحن لسنا شرطيين»، وازدادت ضحكات جرانت، بينما يسحبه ويبتعدان عن المكان.

وقال وهو يمسح عينيه: «ملهاة مضحكة! ملهاة مضحكة تمامًا. لقد رفَّهت عني للغاية. والآن، اسمع. إن أولئك الرهبان، أو أيًّا كان ما يعتبرون أنفسهم، يدخلون حجراتهم عند منتصف الليل ولا يخرجون منها قبل الساعة السادسة. لكن هربرت يدخل ويخرج من ذلك المبنى وقتما يحب تقريبًا. أنا لا أعلم كيف يفعل ذلك؛ إن نوافذ الطابق الأول منخفضة بما يكفي للقفز منها لكنها مرتفعة للغاية كي يعود ويتسلقها، وهو لا يبدو شخصًا رياضيًّا. لكنه يخرج بالفعل. لا أحد يعلم — أو على الأقل، القادة لا يعلمون — أنه خرج الليلة. حسنًا، لديَّ حدس أنه سيخرج مرة أخرى الليلة، وأريد أن أعرف إلى أين سيذهب.»

«ما الذي يجعلك تظن ذلك، يا سيدي؟»

«إنه مجرد حدس. لو كنت في مكان هربرت لاتخذت قاعدة لتدبير عملياتي منها. لقد سرت حول المبنى قبل أن أعود إلى النُّزل. هناك نقطتان فقط من مبنى الأخوية متاخمتان للشارع. على الجانب الذي به الباب؛ وعلى الجانب المعاكس حيث تنتهي الحديقة بسور ارتفاعه نحو خمس عشرة قدمًا. وتوجد بوابة صغيرة هناك؛ حديدية وصُلبة للغاية. وهي على بُعد كبير من المنطقة المأهولة، وأظن أن الجانب الأصلي هو الذي سيساعدنا أكثر. لكنني أريدك أن تراقب جانب الحديقة، وتتبع أي شخص يخرج من هناك. وسأفعل المثل عند جانب الباب. إذا لم يحدث أي شيء حتى السادسة صباحًا، يمكنك أن تعود وتنام.»

الفصل الثاني والعشرون

انتظر جرانت لفترة بدت وكأنها دهر. كانت الليلة لطيفة، والهواء رطبًا، وأصبحت رائحته مبهجة وهو يتناقل عبير الزهور والنباتات. كانت توجد في مكان ما شجرة ليمون. ولم تكن السماء صافيةً، فقط ظلمة ضبابية كثيفة بالأعلى. وكان ثمة صوت أجراس تدقُّ بين الحين والآخر، بعذوبة عن بُعد. ورغمًا عنه، وجد سكينة الليل تجتاحه؛ وقل تركيزه وازدادت غفلته واضطُر أن ينفضها عنه كي يحافظ على يقظته.

وعندئذٍ، بعد بضع لحظات من الساعة الثانية والنصف، حدث شيء، وانتفض ذهنه دون أن ينخسه أحد. وهو لم يسمع أي صوت، لكن في الزقاق المقابل لمبنى الأخوية كانت هناك حركة. وحالت الظلمة الحالكة دون رؤية شيء محدد؛ كل ما حدث أن الظلمة تحركت، مثلما ترفرف الستارة بفعل تيار هواء. كان هناك أحد في الشارع.

انتظر جرانت. فقلَّت الحركة، وأصبحت أقل وضوحًا، ثم توقفت. أيًّا كان من هناك فقد تحرك مبتعدًا عنه. ومن ثم خلع جرانت حذاءه غير المربوط من قدمَيه وربطه حول كتفه؛ إذ إن كل خطوة بالحذاء في ليلة مثل هذه ستصبح مسموعة بوضوح. وتحرك دون أن يصدر أي صوت عبر الزقاق وتجاوز السور المرتفع للمبنى. وبعيدًا عن ظلاله أصبحت الرؤية أفضل قليلًا؛ حيث استطاع رؤية الحركة التي أمامه مرة أخرى. وتتبعها بكل يقظة؛ ولم يكن من الصعب قياس المسافة الدقيقة بينهما فحسب، ولكن كان من المستحيل أيضًا معرفة ما إذا كانت الحركة قد توقفت للحظة. أصبح تتبع الحركة في الشارع أسهل؛ حيث اتخذت هيئة ما. هيئة تتسلل بسرعة وبسهولة في ظلمة الليل. وأسرع جرانت كي يجاري سرعتها. عبر الشوارع الضيقة التي تتراص على جانبيها منازل من طابقَين. وتجاوز المنازل الصغيرة ذات الحدائق الصغيرة. وتجاوز حقلًا صغيرًا لترويض الخيول.

ثم شعَر جرانت بطريق ممهد بالحصى تحت قدميه التي لا يرتدي فيها سوى الجوارب فتذمر. كان الرجل يتجه نحو الريف؛ نحو الضواحي الخارجية على الأقل.

لنحو عشرين دقيقة، تبع جرانت تلك الهيئة نصف المرئية عبر عالم مظلم وصامت. لم يكن يعرف محيطه؛ كان عليه أن يتبع تلك الهيئة على نحوٍ أعمى. لم يكن يعلم متى تأتي درجة سلم أو متى تنحدر الأرض أو متى تقابله عقبة. وقد تصبح العثرات المؤذية قاتلة أثناء السير في الليل. ولكن بقدر ما يستطيع أن يرى، لم تتردد طريدته مطلقًا. لم تكن هذه رحلة هرب مفاجئة؛ بل رحلة اعتاد عليها كثيرًا من قبل.

في الوقت الحاضر، استنتج جرانت أنهما كانا في ريف مفتوح إلى حدٍّ ما. إذا كانت هناك منازل فقد بنيت خلف شجيرات الحقول الأصلية — ربما هي ضاحية جديدة. جعلت الشجيرات من رؤية الرجل الذي كان يلاحقه أمرًا صعبًا؛ حيث صنعت كتلتها المظلمة خلفية قاتمة للشخص المتحرك. ثم اكتشف جرانت فجأة أنه فقده. لم يعد هناك شيء يتحرك أمامه. فتوقَّف على الفور. هل كان الرجل ينتظره؟ أم أنه اختفى في ثغرة ما؟ عدة مرات، عندما انزلق الحصى تحت قدمه، تساءل عما إذا كان الرجل يشتبه في وجوده. لم يكن هناك بقدر ما أمكنه أن يرى أي توقف أثناء سير الرجل من أجل استطلاع ما إذا كان هناك من يتبعه. ولكن الآن هناك غياب كامل لأي حركة على الإطلاق.

تقدم جرانت خطوة بخطوة، ووجد نفسه في نفس المستوى مع فتحة في السياج الشجري. كانت بوابة. تمنى بشغف أن يتمكن من استخدام مصباحه اليدوي. كان هذا التحرك معصوب العينين عبر ريف مجهول يثير أعصابه. قرَّر المخاطرة بتخمين أن هذا هو المكان الذي ذهب إليه الرجل، وانتقل إلى المدخل. على الفور وجد هناك رمالًا ناعمة تحت قدميه. فتوقف متشككًا. هل كانت مجرد حفرة رمل؟ ماذا كان الرجل يخطط؟ هجوم؟

ثم تذكر ذلك الرمل الأحمر الناعم الذي يزين مداخل الفيلات الجديدة، فتنفس الصُّعَداء مرة أخرى. تقدَّم للأمام مطمئنًّا، بعد أن تحسس بقدم واحدة العُشب المقصوص، وتركه يقوده إلى المبنى الذي لا بدَّ أن يكون أمامه في مكانٍ ما. ولاح فجأة في الظلام. كان منزلًا مطليًّا باللون الأبيض ربما يتكون من ثماني غرف. شحوبه جعله مضيئًا قليلًا حتى في ليلة مظلمة كهذه؛ ورأى الرجل مرة أخرى أمام خلفية الوميض الشبحي للمنزل. كان يقف ساكنًا، وبدا لجرانت أنه كان ينظر إليه. لقد أدرك بعد فوات الأوان أنه هو الآخر يقف الآن أمام خلفية المنزل. فجثا على ركبتيه. وبعد لحظة مضى الرجل واختفى وراء زاوية المنزل.

تلمَّس جرانت بقدر المستطاع طريقه إلى الزاوية وانتظر ملتصقًا بالحائط. لكن لم يكن هناك صوت، ولا نفس، ولا حركة. لقد اختفى الرجل؛ كان يضيع الوقت بانتظاره في

هذا المكان. فخطا وراء زاوية المنزل. ومن ثَم خنقته قماشة من الصوف الناعم، غطت وجهه وشُدَّت بإحكام حول رقبته. في جزءٍ من الثانية قبل أن تُحكم القماشة الإغلاق على حلْقه، وضع جرانت أصابعه بين القماشة وبين لحمه. وتمسك بكل قوته، وبعد ذلك، مستخدمًا القماشة كموضع ارتكاز، انحنى للأمام فجأة وشعر بجسد الرجل ينزلق فوقه، برأسه أولًا على الأرض. أوقع الوزن جرانت أرضًا، وكان الشيء الخانق الحقير لا يزال فوق رأسه، لكن يديه كانتا حُرتين. فمد يده إلى خصمه وشعَر بسرور لأن القيود التي تحيط برقبته قد ارتخت. كان لا يزال يتنفس بصعوبة وغير قادر على الرؤية، لكنه لم يكن في خطرٍ مباشر من التعرض للاختناق. في الواقع، كان يبذل قُصارى جهده لخنق الرجل الآخر، إذا تمكن فقط من العثور على حلقه. لكن الرجل كان يلتوي مثل ثعبان البحر، ويستخدم ركبتيه بحرفيةٍ شريرةٍ بالغة. لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يقاتل فيها هربرت جوتوبيد بطريقة غادرة. تمنَّى جرانت، وهو يضرب بشكل أعمى ليجد فقط العُشب في يديه، أن يتمكن من الرؤية لمدة ثلاثين ثانيةً فقط. لقد ترك الجزء الذي كان يمسكه من المعتدي — لم يكن متأكدًا مما إذا كان ساقًا أم ذراعًا — وبذل قُصارى جهده للتدحرج بعيدًا. لم ينجح في ذلك؛ لأن الرجل كان يمسكه بقبضة قوية. لكن كان لديه الوقت للوصول إلى جيبه والإمساك بمصباحه اليدوي. كانت يده محبوسة في جيبه بينما يتدحرج على ظهره، ولكن بكل قوته وجَّه جرانت ضربة بيده الحرة نحو الشيء الذي يتنفس في وجهه. اصطدمت براجم يده بعظام، وسمع صوت تصادم أسنان. ووقع وزن الرجل عليه بالكامل. فانتزع نفسه من تحته، وسحب المصباح من جيبه. وقبل أن يخرجه، تحرَّك الرجل مرة أخرى. لقد جعله يترنح فقط. ووجَّه المصباح المضاء نحوه، وقبل أن يصل الضوء إلى وجهه قفز الرجل. فتنحَّى جرانت جانبًا ولوَّح بالسلاح نحوه بينما يقترب. فأخطأه بمقدار شعرة ووقعا معًا. لم يكن جرانت في وضعية تسمح له بتلقي مثل هذا الوزن؛ فقد كان كل انتباهه منصبًّا على لكمته؛ ولذا سقط بعنف على الأرض. في عتمة اللحظة، عندما كانت جميع ملكاته تحاول استدعاء جسده المذهول لأداء واجبه، تساءل، وكأنه يتفرج على المشهد من بعيد، كيف سيقتله الرجل؟

ولدهشته شعَر بثقل جسد الرجل يرفع عنه، وصدمه شيء ما على جانب رأسه، وكان يدرك، حتى بينما تطنُّ أذناه، أن الرجل قد ابتعد من جانبه.

جرَّ نفسه إلى وضعية الجلوس. وجلس، بالمصادفة، على الحجر الذي ضُرب به (من ملمسه استنتج جرانت أنه حجر مأخوذ من تشكيل حجري في الحديقة)، وتلمس مصباحه استعدادًا لتتبع الرجل، عندما قال صوت امرأة عبر الظلام بصوت هامس:

«هل هذا أنت، يا بيرت؟ هل هناك خطب ما؟»

أضاءت يد جرانت المصباح، ووقف على قدميه.

وقع الضوء على عينين واسعتين وبنيَّتين ووديعتين كعينَي غزال. لكن بقية الوجه لم يكن وديعًا.

شهِقَت مع وميض الضوء، وتراجعت إلى الوراء.

قال جرانت بصوت حازم: «توقفي مكانك»، فتوقفت الحركة.

قالت بسرعة: «لا تتحدث بصوتٍ عالٍ. من أنت، على أي حال؟ ظننت أنك ... صديق لي.»

«أنا مفتش مباحث ... شرطي.»

هذا التصريح، حسبما وجد جرانت، ينتج عنه دائمًا أحد تعبيرين: الخوف أو الحذر. وغالبًا ما يظهر الأشخاص الأبرياء التعبير الأول؛ بينما المذنبون يكشفهم التعبير الثاني. لقد كشف المرأة الآن.

سلَّط جرانت الضوء على المنزل ... مبنًى من طابَق واحد به غُرف عليَّة صغيرة.

همست قائلة: «لا تفعل ذلك! سوف توقظها.»

«أوقظ من؟»

«السيدة العجوز. صاحبة عملي.»

«هل أنت خادمة هنا؟»

«أنا مدبرة المنزل.»

«هل أنتما الاثنان فقط في المنزل؟»

«أجل.»

أشار بضوئه إلى النافذة المفتوحة خلفها. «هل هذه غرفتك؟»

«أجل.»

«سنذهب هناك ونتحدث.»

«لا يمكنك الدخول إلى المنزل. لا يمكنك فعل أي شيء بي. أنا لم أفعل شيئًا.»

«هل تمانعين؟» قال جرانت بنبرة تناقض معنى العبارة.

«لا يمكنك دخول المنزل بدون أمر قضائي. أنا أعرف هذا!» كانت تقف الآن أمام عتبة النافذة، تدافع عن غرفتها.

قال جرانت: «أنا لست بحاجة إلى أمرٍ قضائي من أجل جريمة قتل.»

حدَّقت به، وقالت: «جريمة قتل! وما علاقتي بجريمة قتل؟»

«ادخلي، من فضلك، وأضيئي النور.»

فعلت ما طلب منها، وتسلَّقت عتبة النافذة بسهولة ناتجة عن الممارسة. وبينما يفتح النور، تخطَّى جرانت عتبة النافذة وسحب الستائر.

كانت غرفة نوم لطيفة للغاية، مع وجود لحاف محشوٍّ بالريش على السرير ومصباح مظلل على المنضدة.

وسأل جرانت: «من هو صاحب العمل الخاص بك؟»

ذكرت اسم صاحب عملها، واعترفت بأنها تعمل هناك منذ بضعة أشهر فقط.

«أين كان آخر مكان عملت به؟»

«مكان في أستراليا.»

«وما هي علاقتك بهربرت جوتوبيد؟»

«من هو هذا؟»

«هيا، لا تُضيعي الوقت يا آنسة ... ما الاسم الذي تستخدمينه، بالمناسبة؟»

حدَّقت في وجهه، وقالت: «أنا أستخدم اسمي. روزا فريسن.»

أمال جرانت المصباح للحصول على رؤية أفضل لها. فهو لم يرها من قبل. وقال: «لقد جاء هربرت جوتوبيد إلى هنا الليلة لمقابلتك وكنت تنتظرينه. ستوفرين على نفسك الكثير من المتاعب إذا أخبرتني كل شيء عن الأمر، الآن.»

«إذا كان لا بدَّ أن تعرف، فقد كنت أنتظر بيرت. إنه عامل توصيل الحليب. لا يمكنك إلقاء القبض عليَّ من أجل ذلك. ولا يمكنك أن تلومني كثيرًا، أيضًا. يجب أن تحصل الفتاة على القليل من المرح في مكان مثل هذا.»

قال: «حقًّا؟» وتحرك نحو خزانة الملابس المدمجة. وأضاف: «ابقَي حيث أنتِ.»

لم تحتوِ خزانة الملابس إلا على ملابس نسائية؛ أنيقة للغاية بالنسبة إلى امرأة في مكانتها، ولكنها لم تكن جديدة. طلب جرانت رؤية محتويات الخزانة ذات الأدراج، فأطلعته عليها بلا مبالاة. كان كل ما فيها طبيعي تمامًا. فسأل أين صناديقها.

قالت: «في غرفة الصناديق في العليَّة.»

«وما هي تلك الحقائب التي تحت السرير؟»

بدت مستعدة لضربه.

«دعيني أرَ ما بداخل هذه الحقائب.»

«ليس لك الحق! أرني أمر التفتيش الخاص بك. لن أفتح لك أي شيء.»

«إذا لم يكن لديك ما تخفيه، فلن تعترضي على رؤيتي ما بداخلها.»

«لقد فقدت المفتاح.»

«أنتِ تجعلينني مرتابًا للغاية.»

أخرجت المفتاح من خيط حول رقبتها وسحبت أول حقيبة. ظن جرانت، وهو يراقبها، لأول مرة أنها ليست امرأة بيضاء البشرة. شيء ما في حركاتها، في نسيج شعرها، كان ... ماذا؟ زنجيًّا؟ هنديًّا؟ ثم تذكَّر إرسالية بحر الجنوب التي كان هربرت يديرها.

ثم سألها على سبيل المحادثة: «ما المدة التي مرت منذ مغادرتك الجزر؟»

«نحو ...» توقفت، وأنهت كلامها على الفور، قائلة: «لا أعرف ما الذي تتحدث عنه.»

كانت الحقيبة الأولى فارغة. أمَّا الثانية فكانت ممتلئة عن آخرها بملابس رجالية.

سأل جرانت، الذي على الرغم من قدمَيه المتورمتين ورأسه المتألم بدأ يشعر بالسعادة: «هل ترتدين ملابس الذكور وتنتحلين صفتهم؟ أم أنك مجرد تاجرة ملابس قديمة؟»

«هذه ملابس خطيبي المُتوفَّى. من فضلك لا تستهزئ بها.»

«ألم يكن لدى خطيبك معطف؟»

«بلى، ولكنه تلف عندما قُتل.»

سأل جرانت على نحو ودي: «أوه؟ كيف قتل؟»، بينما يتفحص الملابس.

«حادث سيارة.»

«لقد خيبت أملي.»

«أستميحك عذرًا، ماذا قلت؟»

«كنت أتوقع منك نهاية أكثر إبداعًا. ما اسم خطيبك؟»

«جون ستاربورد.»

«ستاربورد! هذا يُلغي وقوع حادث السيارة.»

«أفترض أنك تعرف ما تتحدث عنه. فأنا لا أعرف.»

«ألم تكوني تحتفظين بمعطف خطيبك في تلك الحقيبة الفارغة الآن؟»

«كلا.»

توقفت يدا جرانت عن البحث. وسحبها ومعها مجموعة من جوازات السفر: وعددها أربعة. كان أحدها بريطانيًّا صدر لهربرت جوتوبيد؛ وأحدها أمريكيًّا باسم ألكسندر بايرون بلاك؛ وآخر إسبانيًّا، لرجل أصم أبكم، اسمه خوسيه فرنانديز؛ والرابع أمريكيًّا

لوليام كيرنز بلاك وزوجته. لكن الصور كانت كلها لنفس الرجل: هربرت جوتوبيد؛ وصورة الزوجة هي صورة روزا فريسن.

«إن خطيبك يهوى جمع جوازات السفر. هواية باهظة الثمن، حسبما أعتقد.» ووضع جوازات السفر في جيبه.

«لا يمكنك فعل ذلك. إنها لا تخصك. سأصرخ وأوقظ من بالمنزل. سأقول إنك دخلت وهاجمتني. انظر!» فتحت الشال الذي كانت ترتديه وبدأت تمزق ثوب النوم.

«اصرخي كما تشائين. إن سيدتك العجوز ستصبح مهتمة جدًّا بجوازات السفر هذه. وإذا كان لديك أي خطط من أجل السيدة العجوز، بالمناسبة، ينبغي أن أنصحك بإعادة النظر فيها. الآن سأستعيد حذائي. إنه في مكان ما في الحديقة. على الرغم من أن الله وحده يعلم ما إذا كانت قدمي ستدخل فيه. نصيحتي لك، يا سيدة كيرنز بلاك، ألا تفعلين شيئًا على الإطلاق حتى أُرسل في استدعائك. ليس لدينا أي شيء ضدك، حتى الآن، لذلك لا تبدئي في وضع الأفكار في رءوسنا بفعل أي شيء قد تندمين عليه.»

الفصل الثالث والعشرون

تمكَّن جرانت من ارتداء حذائه (من خلال تركيز تفكيره في شيءٍ آخر، وهي الطريقة التي تعلَّمها في طفولته لتخطي اللحظات المؤلمة)، ولكن بعد خطوتين أو ثلاث خطوات خلعه مرة أخرى بسرعة، وعاد من حيث جاء وهو يعرج: مرتديًا الجوارب فقط. لم يكن من السهل أن يجد طريق عودته، لكن كانت لديه قدرة ممتازة على تحديد موقعه (يقال في سكوتلاند يارد إنه إذا عصبتَ عينَي جرانت ولففت به حتى يصاب بالدوار، فهو لا يزال يعرف أين يقع اتجاه الشمال) وكان الاتجاه العام واضحًا بما يكفي له. ومن ثم وقف في مدخل على الجانب الآخر من الشارع وانتظر شرطي الدورية حتى يمر، بدلًا من أن يسأله عن الاتجاه ويعرفه بنفسه. إذ لا يوجد فرد في المباحث الجنائية يحب الظهور أمام شرطي ريفي وحذاؤه في يديه.

وعندما عاد في الساعة السادسة كتب رسالة يطلب فيها من ويليامز الاتصال هاتفيًّا بسكوتلاند يارد ويسأل عن أي معلومات قد تكون لديهم حول طائفة أو أخوية أو أيًّا كان، يطلق عليها شجرة لبنان، وأن يوقظه عندما يأتي الجواب. ثم سقط في الفراش، ونام دون أن تراوده أي أحلام، وجوازات السفر تحت وسادته حتى اتصل به ويليامز قبل الساعة العاشرة تمامًا.

فقال جرانت بينما يفتح عينيه: «هل هناك أي أخبار عن تيسدول؟»

لكن لم يكن هناك أخبار.

قالت سكوتلاند يارد إن أخوية شجرة لبنان قد أسَّسها عازب ثري في عام ١٨٦٢، من أجل تعزيز الحياة الرهبانية، بعد أن كان يُعرف آنذاك بأن حبيبته قد هجرته. لقد كان هو نفسه أول رئيس للأخوية، وقد استخدم كل ثروته لتأسيسها. كانت قاعدة الفقر صارمة للغاية، حيث تستخدم الأموال فقط للأعمال الخيرية التي يوافق عليها رئيس الأخوية الحالي،

لذلك حتى تلك اللحظة، تتمتع الأخوية بسمعة امتلاك الكثير من الأموال المخبَّأة. ويُرشَّح الرئيس من قِبل سلفه، ولكن يمكن أن يُخلع الرئيس ويحل آخر محله في أي لحظة من خلال التصويت بالإجماع للأخوة.

شرب جرانت القهوة السيئة التي قدَّمها النُّزُل، وتدارس الأمور. وقال: «هذا ما يريده هربرت: أن يصبح رئيس الأخوية. لقد استطاع أن يخدع الرئيس الحالي. من المذهل أن يكون رجل مثل رئيس الأخوية الحالي على هذا القدر من الحماقة. ولكن مهلًا! فكر في الحمقى الذين قد عرفناهم، يا ويليامز.»

قال ويليامز ببلاغة: «أنا أفكر يا سيدي.»

«كل هؤلاء الرجال المخضرمين من أصحاب الشركات الضخمة الذين سقطوا في فخ النصب بسبب بضع كلمات معسولة من رجل نصاب في بهو فندق! وبالطبع فإن موهبة هربرت في الإقناع ليست عادية. ربما استغل كنائسه في أمريكا لجذب انتباه رئيس الأخوية. على أي حال، إنه الفتى المفضَّل لدى الرئيس في الوقت الحالي. مع احتمال استيلائه على ثروة إذا لعب أوراقَه بشكل صحيح خلال الأسابيع القليلة المقبلة. لا عجب أنه كان خائفًا من انكشاف أمره. أراد أن يعرف كم تركت له أخته، دون تهديد مكانته لدى الأخوية. إذا كانت قد تركت له ما يكفي لجعل الأمر يستحق وقته، فسيتخلى عن الحياة الرهبانية. لا يمكنني أن أظن أنها تروقه كثيرًا. حتى مع الزيارات العرضية للفيلا.»

«كم من الوقت تعتقد أنه سيبقى على أي حال، يا سيدي؟»

«حتى ينقل ما يكفي من النقود إلى أعماله الخيرية الخاصة. أوه، حسنًا، هذه»، وأشار إلى جوازات السفر، وتابع: «ستكون كافيةً لإعداد لائحة اتهام صغيرة لطيفة، كي نتمكن من وضعه تحت أيدينا عندما نريده. إن الشيء الذي يحبطني، يا ويليامز، هو أين جريمة القتل وسط كل هذا؟ لا أعني أنه لم يرتكبها. ليس لديَّ شك في أنه كان يقضي إجازته لمدة ٢٤ ساعة في وقت ارتكاب الجريمة. ولكن لماذا ارتكبها؟ لقد جاء إلى إنجلترا عندما سمع أنها قادمة. أعتقد، من خلال الحكم على ملابس امرأته، أنه من المحتمل كان مُفلسًا عند وصوله. ولهذا السبب انضم إلى شجرة لبنان. ولكن لا بدَّ أن احتمالات الاستفادة من أموال الأخوية قد خطرت له بعد فترة وجيزة من انضمامه إليها. فلماذا يقتل أخته؟»

«ذهب لرؤيتها وتعارك معها. إن الساعة الغريبة التي حيرتنا جميعًا ستصبح طبيعية تمامًا بالنسبة إليه. فالساعة السادسة صباحًا ستصبح معتادة بالنسبة إليه كوقت الغداء.»

«أجل، هذا صحيح. سأعرف الآن من الأب القس ما إذا كان الأخ ألويسيوس قد خرج من الدير قبل أسبوعين. لقد كان الأب القس متعاليًا للغاية بالأمس، لكنه سيتحدث عندما يرى صورة الشخص المفضل لديه على جوازات السفر هذه.»

لكن الأب القس لم يكن يستقبل الزوار. حيث أظهرت الفتحة الصغيرة الوجه الفظ للبواب، الذي ألقى رسالته الصارمة ردًّا على جميع أسئلة جرانت، سواء كانت العبارة ذات صلة أم لا. لقد استغل هربرت موهبته في الإقناع. ثم أُغلقت الفتحة، وتُرك جرانت عاجزًا في الممر الصغير. لم يكن هناك حل لدخول المكان إلا بأمر قضائي. فابتعد ببطء، بينما لا تزال قدماه تؤلمانه؛ وقد أعجب بقدرة هربرت على إعاقته وتعطيله عن عمله، وصعِد إلى سيارته. أجل، كان من الأفضل له الحصول على أمر قضائي.

عاد إلى النُّزُل من أجل بيجامته وشفرة الحلاقة وفرشاة أسنانه (لم يكن لديه نية لقضاء ليلة أخرى هناك)، وبينما يترك رسالة إلى ويليامز النائم، استدعي لتلقي مكالمة عبر الهاتف من سكوتلاند يارد.

هل سيذهب إلى دوفر؟ الرجل هناك يريده. يبدو أن شيئًا ما قد ظهر.

فغير الرسالة إلى ويليامز، وألقى بأشيائه في السيارة، ووجد وقتًا للتساؤل عن سبب قيامه بمنح بقشيش سخي للمرأة السليطة القذرة رغم إهمالها، والطعام المثير للاشمئزاز، والطهي السيئ، ثم انطلق إلى دوفر.

لقد حدث شيء. هذا يمكن أن يعنيَ فقط تشينس. شيء خارج عن المألوف. إذا كانوا قد اكتشفوا المكان الذي قضى فيه تشينس الليل فحسب، لأبلغوه عبر الهاتف بالطريقة العادية. ولكن ... حدث شيء.

كان ريميل، المحقق المُفوَّض — وهو فتًى لطيف ذو مظهر كئيب، أكثر ما يميزه هو اختلافه عن المفهوم الشائع للمحقق — ينتظر جرانت عند باب قسم الشرطة، فسحبه جرانت إلى السيارة. وقال ريميل إنه، بعد بحث شاق، اكتشف رجلًا عجوزًا يُدعى سيرل، وهو بحَّار متقاعد، كان عائدًا إلى المنزل من حفل خطوبة حفيدته عند نحو الساعة الثانية عشرة والنصف في ليلة الأربعاء — أو على وجه الدقة صباح الخميس. كان بمفرده، لأن قلة قليلة من الناس يعيشون في طريق المرفأ في الوقت الحاضر. كانت لديهم أفكار وعاشوا أعلى التل في فيلات رخيصة ضعيفة الأساس من تلك التي تخشى العطس فيها. وقد توقَّف لمدة دقيقة أو دقيقتين عندما وصل إلى مستوى سطح البحر، لينظر إلى المرفأ. فهو ما زال يشعر بالرضا عند النظر إلى أضواء المراكب في الليل. لقد بدأ الضباب في الانتشار، لكن لا يزال

المشهد واضحًا بما يكفي لرؤية الخطوط العريضة لكل شيء. كان يعلم أن يخت بترونيل قادم — حيث رآه من خلال نظارته المُعظِّمة قبل أن يذهب إلى الحفل — ولذا بحث عنه الآن، ورآه راسيًا، ليس عند الرصيف، ولكن في الماء وقد أنزل المرساة. وبينما هو يشاهد، خرج زورق صغير بمحرك من جانب اليخت واتجه نحو الشاطئ، وسار ببطء مصدرًا صوتًا هادئًا كما لو كان حريصًا على عدم لفت الانتباه إليه. وبينما يلامس درجات الرصيف، تحرك رجل خارجًا من الظل على رصيف الميناء. وظهر شخص آخر طويل القامة عرفه سيرل على أنه اللورد إدوارد (إذ كان قد رآه كثيرًا، كما أنه عمِل ذات مرة على متن يخت سابق لأخيه) من الزورق، وقال: «أهذا أنت يا هارمر؟» فقال الرجل الضئيل: «هذا أنا» ثم قال اللورد إدوارد بصوتٍ منخفض: «هل الجمارك على ما يرام؟»، «لا توجد مشكلة على الإطلاق»، ونزلا معًا في الزورق وانطلقا. ونزل الضباب بسرعة بعد ذلك، وأعاق الرؤية في الميناء. وبعد نحو خمس عشرة دقيقة ذهب سيرل في طريقه. ولكن أثناء سيره عبر الشارع، سمع زورقًا بمحرك يغادر بترونيل. لم يكن يعرف ما إذا كان يتجه إلى الشاطئ أو يخرج من الميناء. وهو لم يظن في ذلك الوقت أن هناك أي أهمية لتلك الواقعة.

قال جرانت: «يا إلهي! لا أستطيع أن أصدق ذلك. ليس هناك ... ليس هناك أي شيء في كل هذا العالم يجمع ما بين هذين الرجلين.» (أضاف عقله الباطن قبل أن يتمكن من إيقافه: باستثناء امرأة.) «إنهما لا يتلاقيان في أي نقاط مشتركة. ومع ذلك فهما حليفان.» جلس صامتًا قليلًا. ثم قال: «أحسنت، يا ريميل. عمل جيد. سأذهب لتناول الغداء وأفكر في الأمر.»

«حسنًا، يا سيدي. هل لي أن أقدم لك نصيحة ودية، يا سيدي؟»

«إذا كان لا بدَّ من ذلك. إنها عادة سيئة في المرءوسين.»

«لا تتناول قهوة سوداء، يا سيدي. أتوقع أنك قد تناولت أربعة فناجين على الإفطار ولا شيء غيرها.»

ضحك جرانت. وقال، وهو يدير مفتاح السيارة: «ولماذا تقلق أنت؟ كلما زاد الانهيار العصبي، زادت سرعة الحصول على الترقية.»

«أكره أن أنفق المال على أكاليل الزهور، يا سيدي.»

لكن جرانت لم يبتسم بينما يقود سيارته في طريقه لتناول الغداء. إن زوج كريستين كلاي وعشيقها المشهور قد قاما بمهمة مشتركة في منتصف الليل معًا. وكان ذلك غريبًا للغاية. ولكن أن يصبح لإدوارد تشينس، الابن الخامس لدوق بود السابع، والعضو الحسن السمعة رغم أنه غير تقليدي في طبقته، تعاملات سرية مع جيسون هارمر، الذي نشأ

في زقاق تين بان، فهذا بالتأكيد أكثر غرابة. ما هو الرابط المشترك؟ ليس القتل. رفض جرانت التفكير في أن يجتمع الاثنان في أي شيء متطرف مثل القتل. ربما أراد أحدهما أو الآخر قتلها، ولكن أن يشتركا معًا في ذلك الأمر فهذا أمر لا يمكن تصوُّره. قال سيرل إن الزورق قد غادر بترونيل مرة أخرى. لنفترض أن واحدًا منهما فقط كان على متنه؟ إن المسافة قصيرة بمحاذاة الساحل شمالًا نحو شاطئ جاب في ويستوفر؛ وقد وصل هارمر إلى كوخ كلاي بعد ساعتين من وفاتها. كان إغراق كلاي من زورق بمحرك هو الطريقة المثالية. جيدة مثل نظريته حول مصدات الأمواج، إذ سيكون الهروب أسرع وأسهل. كلما فكَّر في الزورق ذي المحرك، زاد شغفه بالطريقة التي استخدم بها. لقد فحصوا القوارب الموجودة في المنطقة المجاورة كإجراء روتيني وقت التحقيق الأول؛ لكن الزورق ذا المحرك له نطاق إبحار واسع. لكن ... أوه، حسنًا، فقط «لكن»! كانت النظرية رائعة. هل يمكن للمرء أن يتخيل جيسون يقول: «أقرضتني زورقك وسأغرق زوجتك»، أو يقترح تشينس: «سأقرضك الزورق إذا كنت ستؤدي المهمة.» لقد التقى هذان الشخصان لسبب آخر تمامًا. إذا كان القتل قد نتج عن ذلك، إذن فلم يكن مخططًا له، بل حدث بالمصادفة.

إذن ما الذي تقابلا من أجله؟ قال هارمر شيئًا عن الجمارك. كانت أول تحية له. لقد كان قلقًا حيال ذلك. هل كان هارمر مدمن مخدرات؟

هناك شيئان ضد ذلك. لم يَبدُ هارمر كمدمن. ولم يكن تشينس ليقدم هذه الأشياء أبدًا. قد تكون المخاطرة هي نفس الحياة بالنسبة إليه، لكن هذا النوع من المخاطر سيصبح بالتأكيد بعيدًا.

إذن، ما الذي يجب أن يُحفظ بعيدًا عن أعين الجمارك؟ التبغ؟ الجواهر؟ لقد أظهر تشينس لجورج مير، في صباح اليوم التالي، الأحجار الكريمة التي أحضرها لكريستين.

كان هناك شيء واحد ضد كل ذلك. قد ينحدر إدوارد تشينس إلى جريمة التهريب، من أجل المرح، مجرد القليل من الإثارة؛ لكن جرانت لم يستطع تقبُّل فكرة أنه يُهرِّب لصالح جاي هارمر. إنه أمر محير للغاية لا يستطيع التوقف عن التفكير فيه. ما هو الأمر المشترك بين هذين الرجلين؟ بينهما شيءٌ ما. أثبتت مقابلتهما ذلك. ولكن ماذا؟ لقد كانا، على حد علم أي شخص، مجرد معارف. ولا حتى ذلك. يكاد يكون من المؤكد أن تشينس قد غادر إنجلترا قبل وصول هارمر، ولم تكن كريستين تعرف هارمر قبل أن يعملا معًا في هذه الأفلام الإنجليزية.

لم تتدفق أي عصارات هضمية في القناة الهضمية لجرانت أثناء ذلك الغداء؛ كان ذهنه يعمل مثل المحرك. كانت البازلاء الخضراء والطِّحال من السوء بحيث كان من

الأفضل إلقاؤهما في سلة مهملات الطباخ. بحلول الوقت الذي وصلت فيه القهوة لم يكن قريبًا من الحل. تمنى لو أنه واحد من هذه المخلوقات الرائعة ذات الحدس الفائق والحكم الصائب الذين يزينون صفحات القصص البوليسية، وليس مجرد مفتش محقق مجتهد حسن نية ذي ذكاء عادي. كان الحل من وجهة نظره هو مقابلة أحد هذين الرجلين. ومن الواضح أن الأفضل له أن يقابل هارمر. لماذا؟ أوه، لأنه سيتحدث بسهولة أكبر. أوه، أجل، حسنًا، ولأن فرصة الوقوع في المشاكل ستكون أقل! ماذا كان معنى وجود شخص بداخلك يفحص دوافعك لكل ما فعلته أو فكرت فيه!

امتنع عن تناول فنجان قهوته الثاني، مبتسمًا لتذكر ريميل الغائب. ولد لطيف. سيصبح محققًا جيدًا في يومٍ ما.

أجرى مكالمة هاتفية إلى ديفونشير هاوس، وسأل عمَّا إذا كان السيد هارمر يمكنه مقابلة ألان جرانت (لا داعي للإعلان عن مهنته) هذا المساء بين موعد الشاي والعشاء.

قيل له إن السيد هارمر ليس في لندن. حيث ذهب لمقابلة ليني بريمهوفر، النجمة الأوروبية، التي تقيم في وايتكليف. فهو يكتب أغنيةً لها. كلا، لم يكن من المتوقع أن يعود في تلك الليلة. إن العنوان هو تول هاتش، وايتكليف، ورقم الهاتف هو ٣٠٢٥ في وايتكليف.

اتصل جرانت برقم ٣٠٢٥ في وايتكليف، وسأل متى يمكن للسيد هارمر مقابلته. كان هارمر في الريف مع الآنسة بريمهوفر ولن يعود قبل العشاء.

إن وايتكليف هي امتداد لويستوفر: مجموعة من الفيلات البلوتوقراطية تقع على الجُرف بعيدًا عن صرخات المتنزهين وصفحات الصحف المتطايرة. كانت لا تزال لدى جرانت غرفة في فندق مارين، وهكذا ذهب إلى ويستوفر، وهناك انضم إليه ويليامز. كل ما يمكنه فعله الآن هو انتظار أمر قضائي من سكوتلاند يارد وزيارة من هارمر.

كان وقت الكوكتيل عندما وصل هارمر.

«هل قررت دعوتي على العشاء، أيها المفتش؟ إذا لم يكن الأمر كذلك، فقل هذا، ودعني أنا أدعوك للعشاء على حسابي، من فضلك؛ إن لدي روح رياضية. ساعة أخرى مع تلك المرأة وسأفقد عقلي. سأتحول إلى مختل. إلى مجنون. لقد عرفت العديد من النجوم طَوال مسيرتي، لكن يا للعجب! إنها أسوأ من عرفت. قد يظن المرء أنها نظرًا للغتها الإنجليزية الركيكة قد تتوقف عن الكلام بين الحين والآخر لتفكر قليلًا. لكن لا! إنها تثرثر بلا توقف، وتستخدم كلمات من الألمانية والفرنسية هنا وهناك كي تجعل كلامها يبدو لطيفًا. أيها النادل! ماذا ستطلب، أيها المفتش؟ ألن تشرب؟ أوه، هيا! كلا؟ هذا سيئ للغاية. مشروب

جن مختلط لفرد واحد، أيها النادل. لست بحاجة إلى أن تُقلع عن الشراب بخصر كهذا، أيها المفتش. لا تقل إنك ممنوع من الشرب بسبب إدانة سابقة!»

رفض جرانت المشاركة في تناول المشروبات.

ومن ثم أصبح هارمر جادًّا ونظر بانتباه إلى جرانت، وقال: «حسنًا، ما الأخبار؟ لديك أخبار، أليس كذلك؟ هل ظهر شيء حقيقي؟»

«أردتُ فقط معرفة ما كنت تفعله في دوفر في ليلة الأربعاء تلك؟»

«في دوفر؟»

«ليلة الأربعاء منذ أسبوعين.»

«هل هذه مزحة من شخصٍ ما يحاول تضليلك؟»

«اسمع، يا سيد هارمر، إن افتقارك إلى الصراحة يعقد كلَّ شيء. إنه يمنعنا من القبض على الرجل الذي قتل كريستين كلاي. إن خيوط القضية كلها متشابكة. عليك أن تُفصِح بصراحة عن تحركاتك ليلة الأربعاء تلك، وعندئذٍ يمكن التخلص من نصف الأجزاء والقطع غير ذات الصلة التي تثقل القضية وإلقاؤها بعيدًا. لا يمكننا رؤية الإطار العام في وجود كل تلك الأجزاء التي تغطيه. أنت تريد مساعدتنا في القبض على القاتل، أليس كذلك؟ حسنًا، أثبت ذلك!»

«أنا معجب بك كثيرًا، أيها المفتش. لم أظنَّ أبدًا أنني قد أُعجب برجل شرطة لهذه الدرجة. لكنني أخبرتك بالفعل؛ لقد ضللت طريقي أثناء البحث عن كوخ كريس، ونمت في السيارة.»

«وإذا أحضرت شهودًا لإثبات أنك كنت في دوفر بعد منتصف الليل؟»

«ما زلت مصرًّا على أني قد نمت في السيارة.»

ظلَّ جرانت صامتًا، ومحبطًا. الآن سيُضطر أن يذهب إلى تشينس.

راقبته عينا هارمر البنيتان الضيقتان بشيء من القلق والاهتمام.

«أنت لا تنام بالقدر الكافي هذه الأيام، أيها المفتش. وتتجه نحو الانهيار. غيِّر رأيك وتناول مشروبًا. إنه أمر رائع كيف يضع الشراب الأشياء في نصابها.»

قال جرانت غاضبًا: «إذا لم تصرَّ على أقوالك بأنك قد نمت في السيارة، كانت ستصبح لديَّ فرصة أفضل للنوم في سريري»، وغادر المكان بطريقة أقل كياسةً من المعتاد.

لقد أراد الوصول إلى تشينس قبل أن يتاح لجيسون هارمر الوقت لإخباره أن جرانت كان يُجري تحريات. وأفضل طريقة للقيام بذلك هي الاتصال هاتفيًّا بتشينس ومطالبته

بالمجيء إلى ويستوفر. وأن يعرض عليه إرسال سيارة شرطة له في الحال. وإذا لزم الأمر، يستمر في الحديث مع هارمر حتى يغادر تشينس المدينة.

لكن تشينس قد غادر المدينة بالفعل. كان في إدنبرة يُلقي كلمة أمام تجمُّع رفيع حول «مستقبل جاليريا».

هذا حسم الأمر. قبل أن يتمكن أي شخص من الوصول إليه بوقتٍ طويل، كان هارمر سيتواصل معه إمَّا عن طريق البرقية أو الهاتف. فطلب جرانت أن تراقب وسيلتي الاتصال، ثم عاد إلى المطعم ليجد جيسون لا يزال جالسًا يتناول شرابه.

«أعلم أني لا أعجبك، أيها المفتش، ولكن بكل صدق أمام الله، أنا معجب بك، وبكل صدق تلك المرأة مروعة. هل تظن أنه يمكنك بطريقة ما نسيان أنك محقق مشهور وأني مشتبه به حقير، ونأكل معًا في نهاية الأمر؟»

ابتسم جرانت، رغمًا عنه. إذ ليس لديه أي اعتراضات.

ابتسم جيسون أيضًا، بثقة قليلًا وقال: «ولكن إذا كنت تعتقد أنه بحلول نهاية العشاء سأغير أقوالي بأني نمت في تلك السيارة، فلا تخدع نفسك.»

استمتع جرانت بتلك الوجبة، رغمًا عنه. كانت لعبة جيدة؛ محاولة حصار جيسون كي يُدلي بنوعٍ من الاعتراف. وكان الطعام جيدًا. وكان جيسون مسليًا.

جاءت رسالة أخرى عبر الهاتف تقول إن اللورد إدوارد سيعود على متن أول قطار في الصباح، وسيكون في لندن قبل وقت الشاي. ويمكن أن يتوقع جرانت وصول الأمر القضائي الخاص بجوتوبيد في أول رسالة بريدية في الصباح.

لذلك ذهب جرانت للنوم في فندق مارين، متوترًا ولكن ليس إلى حد الانتحار؛ على الأقل أصبح لديه برنامج عمل للغد. نام جيسون أيضًا في فندق مارين، بعد أن أعلن عدم قدرته على مواجهة ليني مرة أخرى في ذلك اليوم.

الفصل الرابع والعشرون

كان مطبخ مطعم فندق مارين في السطح؛ حيث إن أحدث اكتشاف للمهندسين المعماريين هو أن الروائح تتصاعد إلى أعلى. لقد صُمم ليصبح مطبخًا كهربائيًّا بالكامل، وهذا أيضًا وَفق النظرية الحديثة للمهندسين المعماريين. لكنها لم تكن وَفق نظرية هنري، كبير الطهاة. كان هنري من بروفنس، والطهي بالكهرباء، يا إلهي، يمثل له رعبًا، وأي رعب! لو أرادنا الله أن نطبخ باستخدام البرق، لما خلق النار. لذلك كان لدى هنري مواقده وأوانيه النُّحاسية. والآن، في الساعة الثالثة صباحًا، ملأ توهج ناعم من النيران المشتعلة الغرفة البيضاء الضخمة. كانت الغرفة مليئةً بالأضواء العالية: من النحاس والفضة والمينا. (ليس الألومنيوم. حيث يغمى على هنري عند ذكر الألومنيوم). وكان الباب نصف مفتوح، وكانت النار تطقطق بهدوء بين الحين والآخر.

وبعد فترة قصيرة تحرك الباب. حيث فتح أكثر قليلًا. ووقف رجل أمام فتحته يتنصَّت على ما يبدو. ثم دخل، صامتًا كالظل، وتوجَّه إلى طاولة أدوات المائدة. ولمع سكينًا في الظلام وهو يُخرجه من الدرج. لكنه لم يُصدر أيَّ صوت. وانتقل من الطاولة إلى الحائط حيث علقت المفاتيح على لوحتها الصغيرة، كل منها على خطافها المحدَّد. ودون أن يتحسس، أخذ المفتاح الذي يريده. تردَّد وهو على وشك مغادرة الغرفة، وعاد إلى النار كما لو أنها سحرته. كانت عيناه في الضوء مشرقة ومتحمسة، ووجهه مظللًا.

بالقرب من الموقد وضع الخشب الذي سيستخدم لإشعال النار في الصباح. وقد نشر على إحدى الصحف ليجف تمامًا. لاحظ الرجل ذلك. فدفع الخشب المقطوع إلى جانبٍ ورفع بقية الصحيفة إلى مربع صغير من ضوء النار. وقرأ للحظة، كان ساكنًا تمامًا في تلك الغرفة الصامتة حتى لتظن أنها ربما كانت فارغة.

وفجأةً تغيَّر كلُّ شيء. إذ قفز واقفًا على قدميه وركض نحو زر الكهرباء وأشعل الأضواء. ورجع إلى الصحيفة وانتزعها من تحت الخشب. وفردها على المنضدة بيدٍ مرتجفة، وهو يُربِّت عليها، ويدللها كما لو كانت شيئًا حيًّا. ثم بدأ يضحك. وراح يطرق بقبضتيه على الخشب المصقول بهدوء واستغراق. وتصاعدت ضحكته، خارجة عن سيطرته. وركض إلى المفتاح مرة أخرى وفتح جميع الأضواء في المطبخ؛ واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، ثمانية. واستحوذت عليه فكرة جديدة. فركض خارجًا من المطبخ، على طول الممرات المكسوَّة بالبلاط، صامتًا كالظل. وأسرع على السُّلَّم خافت الإضاءة، مجموعة من الدرجات بعد مجموعة، مثل خفاش. والآن انفجر في الضحك مرة أخرى. وانطلق في ظلام الرَّدْهة الكبيرة وعبرها إلى الضوء الأخضر لمكتب الاستقبال. لم يكن يوجد أحد. كان الحارس الليلي في جَوْلاته. قلب الرجل صفحةً من دفتر تسجيل النزلاء ومرَّ عليها بإصبعه المرتعش. ثم صعِد السلالم مرة أخرى، صامتًا باستثناء صوت أنفاسه العالي. وفي غرفة الخدمات في الطابَق الثاني، أخذ مفتاحًا رئيسيًّا يفتح كل الأبواب من خُطَّافه، وركض إلى باب الغرفة ٧٣. وفتح الباب، ومدَّ يده إلى مفتاح الإضاءة، ثم قفزَ على الرجل في السرير.

كافح جرانت للخروج من حلمه بالمُهرَّبات، للدفاع عن نفسه ضد مُهوَّس يستند على ركبتيه بجوار سريره وهو يهزُّه ويكرر بين أنفاسه العالية: «إذن لقد كنتَ مخطئًا، ولكن لا بأس! لقد كنتَ مخطئًا، ولكن لا بأس!»

قال جرانت: «تيسدول! يا إلهي، أنا سعيد برؤيتك. أين كنت؟»

«بين الصهاريج.»

«في فندق مارين! طَوال الوقت؟»

«منذ ليلة الخميس. كم هي المدة؟ لقد دخلت فقط من باب الخدمات في وقت متأخر من الليل. حيث كانت تُمطر سيولًا. كان من الممكن أن تمشي عاريًا في أنحاء المدينة، ولن تجد أيَّ شخص ينظر. لقد علمت بمكان غرفة العليَّة الصغيرة لأنني رأيتها عندما كان العمال هنا في أحد الأيام. ولم يدخلها أحد على الإطلاق سوى العمال. وكنت أخرج ليلًا للحصول على الطعام من غرفة حفظ الطعام. أتوقع أن شخصًا ما قد وقع في مشكلة بسبب الطعام الذي أخذته. أو لعلهم لم يشعروا باختفائه قط؟ ماذا تظن؟»

فحصَت عيناه اللامعتان بشكل غير طبيعي جرانت بقلق. لقد بدأ يرتجف. لم تكن هناك حاجة إلى الكثير من التخمين لتحديد درجة حرارته المحتملة.

دفعه جرانت برفق إلى وضع الجلوس على السرير، وأخذ بيجامة من خزانة الملابس، وأعطاها له.

«تفضل. ارتدِ هذه وادخل إلى السرير في الحال. أظن أنك كنت غارقًا بالماء عندما وصلت إلى الفندق؟»

«أجل. لقد ازداد وزن ثيابي كثيرًا لدرجة أنني كنت أسير بصعوبة. لكنها جفَّت بينما كنت مختبئًا في السطح. إنه دافئ أيضًا. دافئ جدًّا في النهار. لديك ذوق رائع في اختيار ملابس النوم.» كانت أسنانه تصطك؛ حيث يجتاحه الانفعال.

ساعده جرانت في ارتداء البيجامة وتغطيته. واتصل بموظف الاستقبال وطلب حساء ساخنًا وأن يرسل في استدعاء طبيب. ثم جلس بجوار الهاتف واتصل بسكوتلاند يارد وأخبرهم بالخبر الجيد، بينما تراقبه عينا تيسدول اللامعتان، في تساؤل. وعندما انتهى، اقترب من السرير وقال: «لا أستطيع أن أخبرك كم أنا آسف لكل هذا. كنت لأفعل الكثير للتراجع عنه.»

قال تيسدول: «بطانيات! مُلاءات! وسائد! والقطن الدافئ! يا إلهي!» وابتسم ابتسامة عريضة بقدر ما سمحت له أسنانه المصطكة ولحيته التي لم تُحلق منذ أسبوع. وقال: «اتلُ لي صلاة ما قبل النوم «الآن أنا أخلد للنوم».» وسرعان ما غرِق في النوم على نحوٍ مفاجئ.

الفصل الخامس والعشرون

في الصباح، لأن الطبيب قال إن «المريض يعاني من احتقان يمكن أن يتطور في حالته الصحية الضعيفة إلى التهاب رئوي في أي لحظة»، استدعى جرانت عمة تيسدول السيدة موريبل، التي تلطَّفت سكوتلاند يارد وأرسلت من يعثر عليها، بعد أن رفض تيسدول الموافقة على حضور أي عمات. كما أُرسل ويليامز إلى كانتربري للقبض على الأخ ألويسيوس، وخطط جرانت للعودة إلى المدينة بعد الغداء لمقابلة تشينس. كان قد زفَّ الأخبار السارَّة عن عودة تيسدول إلى الكولونيل بيرجوين عبر مكالمة هاتفية، ردت عليها إريكا.

وقالت: «أوه، أنا سعيدة من أجلك!»

«من أجلي؟»

«أجل، لا بدَّ أنه كان أمرًا فظيعًا بالنسبة إليك.»

وعندها فقط أدرك جرانت مدى فظاعة الأمر. هذا الضغط المستمر لخوف غير مُسمًّى. يا لها من طفلة لطيفة!

وقد أرسَلت الطفلة اللطيفة للمريض في فترة الصباح اثنتَي عشرة بيضة طازجة مأخوذة من أعشاش ستاينس في تلك الساعة للتو. فكر جرانت كم كان إرسال البيض الطازج متفقًا مع شخصيتها، وليس إرسال الزهور أو الفاكهة التقليدية.

سأل تيسدول: «آمُل أنها لم تتورط في مشاكل لأنها أعطتني الطعام في ذلك الوقت.» كان يتحدث كما لو أن أحداث الأسبوع الماضي قد حدثت منذ سنوات عديدة؛ لقد مثلت الأيام التي قضاها في غرفة العليَّة عمرًا بالنسبة إليه.

«لا بل على العكس من ذلك. لقد أنقذت رقبتك مثلما أنقذت سمعتي. إنها هي من وجدت معطفك. كلا، لا أستطيع أن أخبرك بذلك الآن. من المفترض ألَّا تتحدث أو يتحدث أحد معك.»

لكنه اضطُر أن يخبره بكل شيء. وترك تيسدول يُحدِّث نفسه بهدوء قائلًا: «حسنًا!» وراح يقولها مِرارًا وتَكرارًا: «حسنًا!» بنبرة مندهشة.

بدأ ظل مقابلة تشينس يلوح في الأفق لجرانت. لنفترض أنه قال لتشينس بصراحة: «انظر هنا، لقد بذلت أنت وجيسون هارمر أقصى ما بوسعكما لتكذبا عليَّ بشأن تحركاتكما في ليلةٍ معينة، والآن اكتشفت أنكما كنتما معًا في دوفر. فماذا كنتما تفعلان؟» ماذا سيكون الجواب؟ «يا سيدي العزيز، لا يمكن أن أتحمل عواقب خداع هارمر وكذبه، لكنه كان ضيفي في بترونيل وأمضينا الليل في الصيد في زورقنا ذي المحرك.» ستصبح تلك حُجَّة غياب جيدة.

وما زال عقله يتدارس فكرة التهريب. ما المهربات التي تهمُّ كلًّا من تشينس وهارمر؟ ولم يستغرق الأمر ليلةً كاملة لتسليم حمولة كاملة من البضائع المهربة. ومع ذلك، لم يكن لدى أيٍّ منهما حُجَّة غياب في تلك الليلة. ماذا فعلا خلال الساعات من منتصف الليل حتى الإفطار؟

لقد شعَر، منذ أن وصلته المعلومات من ريميل في دوفر، بأنه إذا تمكن من تذكُّر ما كان يتحدث عنه تشينس قبل أكذوبته عن يوم وصوله، فسيصبح كل شيءٍ واضحًا له.

قرَّر النزول وقصَّ شعره قبل أن يغادر فندق مارين. كان عليه أن يتذكر مسألة قص الشعر هذه.

عندما مدَّ يده لفتح الباب المتأرجح، سمع صوت تشينس في عقله، وكأنه يشاهد مشهدًا بالتصوير البطيء.

إذن «هذا» ما كان يتحدث عنه!

أجل. أجل. تتابعت الصور معًا على عقل جرانت صانعةً تسلسلًا منطقيًّا للأحداث. فحوَّل اتجاهه من باب الصالون إلى الهاتف واتصل بالفرع الخاص في سكوتلاند يارد. وسألهم بضعة أسئلة، ثم ذهب ليقص شعره، وهو يبتسم ابتسامة تنمُّ عن الرضا. فهو يعرف الآن ما سيقوله لإدوارد تشينس.

كان هذا هو الوقت المزدحم في الصباح وجميع الكراسي مشغولة.

فقال مشرف قلق: «لن يستغرق الأمر دقيقةً يا سيدي. أقل من دقيقة إذا كنت ستنتظر.»

جلس جرانت بجانب الحائط ومدَّ يده ليلتقط مجلةً من الكومة على الرف. فسقطت الكومة؛ مجموعة مهترئة من المجلات، معظمها بعيدٌ كل البعد عن الجِدَّة. ولأنها كانت تحمل

على غِلافها صورة لكريستين كلاي، فقد التقط نسخة من مجلة «سيلفر شيت»، وهي مجلة أمريكية متخصصة في السينما، وقلب الصفحات في خمول. كانت تحمل الباقة المعتادة من الأخبار. نشر «الحقيقة الفعلية» عن شخص ما للمرة الثانية والخمسين، وهي حقيقة فعلية مختلفة تمامًا عن الحقائق الفعلية الواحدة والخمسين السابقة. شرحت شقراء تافهة كيف قرأت معنًى جديدًا في شكسبير. وتحدثت أخرى عن طريقة حفاظها على رشاقة جسدها. وصُوِّرت ممثلة لم تكن تعرف أحد طرفَي المقلاة من الطرف الآخر في مطبخها وهي تصنع البانكيك. وقال نجم ذكوري إنه كان يعتقد أن كل النجوم الذكوريين شديدو الضخامة. قلب جرانت الصفحات بفارغ الصبر. كان على وشك استبدال المجلة بأخرى عندما لفت انتباهه مقال ما فجأة. فقرأ المقال باهتمام متزايد. وعند الفقرة الأخيرة، وقف على قدمَيه، وهو ما زال يمسك بالمجلة ويحدق في الصفحة.

قال الحلاق: «دورك الآن، يا سيدي. هذا الكرسي، من فضلك.»

لكن جرانت لم ينتبه.

«نحن جاهزون تمامًا لك الآن، يا سيدي. نأسف لأننا أبقيناك منتظرًا.»

نظر جرانت إليهم، مركزًا معهم بنصف وعيه فقط.

وسأل، مشيرًا إلى المجلة: «هل يمكنني الحصول على هذه؟ لقد صدرت منذ ستة أشهر. شكرًا لك» واندفع خارجًا من الغرفة.

حدَّقوا به، وضحكوا قليلًا، بينما يتكهَّنون بما شغل ذهنه.

وقال أحدهم: «لعله وجد محبوبته.»

ورد آخر بالقول: «ظننت أنهن قد انقرضن، المحبوبات.»

«بل وجد شيئًا لعلاج مسمار القدم.»

«كلا، ذهب لاستشارة صديقه المقرب.»

وضحكوا ونسوا أمره.

وقف جرانت داخل كشك الهاتف، وبدأ الرجل المحترم الذي نفِدَ صبره والذي يرتدي حذاءً مصنوعًا من الجلد اللامع يتساءل عما إذا كان سيظل بداخله إلى الأبد. كان يتحدث مع نجم السينما أوين هيوز. وهذا هو السبب في أن الرجل ذا الحذاء اللامع لم يصعد إلى الأكشاك العديدة في الطابَق العلوي. كان يأمُل في سماع جزء من المحادثة بينهما. كان الأمر له صلة بما إذا كان شخص ما قد ذكر شيئًا ما في رسالة إلى شخص ما.

قال جرانت: «لقد فعلت! شكرًا! هذا كل ما أردت معرفته. احتفظ به كسرٍّ. أعني ما سألتك عنه.»

ثم طلب شرطة نهر التيمز، وشد الباب بقوة مثيرًا غضب الرجل المنتظر.

«هل يمتلك أصحاب المنزل ٢٧٦ ريفر ووك زورقًا بمحرك؟»

كانت هناك مداولات في الطرف الآخر.

أجل، أصحاب المنزل ٢٧٦ لديهم زورق. أجل، سريع للغاية. هل يمكنه السفر في البحر؟ أوه، أجل، إذا لزم الأمر. يعتقدون أنه يستخدم لصيد الطيور في ربوع إسيكس. ويستخدم للملاحة في النهر السفلي، بأي شكل؟ نعم، بالتأكيد.

سأل جرانت عما إذا كان بإمكانهم تجهيز زورق له في غضون ساعة ونصف تقريبًا، فبحلول ذلك الوقت سيصبح في المدينة، كما كان يأمُل. وسيعتبر الأمر خدمة عظيمة له.

بالتأكيد، سيفعلون.

ثم أجرى جرانت مكالمةً مع باركر — وعند هذه النقطة استسلم الرجل ذو الحذاء اللامع وانصرف — وطلب أنه إذا عاد ويليامز إلى المدينة في غضون التسعين دقيقة القادمة، يجب أن يقابل جرانت في ويستمنستر بيير. وإذا لم يَعُد ويليامز في الوقت المناسب، فعندئذٍ يرسل سانجر.

استفاد جرانت استفادة كاملة من هدوء حركة المرور وقت الغداء، وفي المناطق غير المقيَّدة تفوَّق على نفسه في القيادة بسرعة كبيرة مع الحفاظ على السلامة. ووجد ويليامز في انتظاره، وهو يلهث قليلًا، حيث وصل في تلك اللحظة من سكوتلاند يارد وأعاد سانجر المحبط. لم يكن لدى ويليامز أي نية لأن تفوته أي أحداث مهمة، إذا كان بإمكانه ذلك. وقد قال المأمور إن شيئًا مثيرًا كان على وشك الانكشاف.

سأل جرانت: «حسنًا، هل صُدِم الأب القس؟»

«ليس بقدر صدمة الأخ ألويسيوس. لم يتخيل للحظة أننا حصلنا على أي شيء يدينه. من خلال الطريقة التي تصرف بها، أظن أن بعض قوات الشرطة الأخرى ستكون حريصة على محاسبته.»

«لا يدهشني ذلك.»

«إلى أين نحن ذاهبون يا سيدي؟»

«تشيلسي ريتش. المفضل لدى الرسامين والراقصين الشعبيين.»

نظر ويليامز بلطف إلى مديره ولاحظ كم كان يبدو أفضل بكثير الآن بعد أن ظهَر الفتى تيسدول.

توجَّه زورق الشرطة إلى الضفة عند المنزل ٢٧٦ ريفر ووك؛ حيث يرسو زورق كبير رمادي اللون مزود بمحرك. واقترب زورق الشرطة بحذرٍ شديد إلى أن فصلت بين حافتيهما مسافة قدم واحدة.

صعِد جرانت على متن الزورق. وقال: «تعالَ معي، يا ويليامز. أريد شهودًا.»

كانت الكابينة مُقفَلة. نظر جرانت إلى المنزل المقابل وهزَّ رأسه. ثم قال: «سأُضطر للمخاطرة. أنا متأكد من أنني على حق، على أي حال.»

وبينما تقف شرطة النهر بالقرب منه، كسر القُفلَ ودخل. كانت كابينة مرتبة، تناسب شخصية بحَّار؛ حيث كل شيء أنيقًا ومرتبًا. بدأ جرانت في تفحُّص الخزائن. وفي الخزانة التي تحت السرير الموجود على اليمين وجد ما كان يبحث عنه. معطف مضاد للمطر. أسود اللون. اشتُرِي من مدينة كان. مع زر مفقود من طرَف الكم الأيمن.

«خذ هذا، يا ويليامز، وتعالَ معي إلى المنزل.»

قالت الخادمة إن الآنسة كيتس بالداخل، وتركتهما في غرفة الطعام بالطابَق الأرضي؛ شقة بسيطة للغاية وحديثة.

قال ويليامز: «يبدو كمكان لإجراء عملية الزائدة الدودية أكثر من تقديم لحم البقر المشوي فيه.»

لكن جرانت لم يَقُل شيئًا.

جاءت ليديا، مبتسمةً، وأساورها تجلجل.

«أنا آسفة لأنني لم أتمكن من اصطحابك إلى الطابَق العُلوي، يا عزيزي مولود برج الأسد، لكن لديَّ بعض العملاء الذين قد لا يفهمون أن هذه مجرد زيارة ودية.»

«إذن فقد كنتِ تعلمين من أنا، عندما تقابلنا في منزل مارتا؟»

«بالطبع. أنت هكذا لا تُثنين على قدراتي في قراءة الطالع، يا عزيزي السيد جرانت. ألن تقدم لي صديقك؟»

«هذا هو السيرجنت ويليامز.»

اعتقد جرانت أنها بدت مرتبكة قليلًا، لكنها تمكَّنت من أن تتعامل بلطف مع السيرجنت. ثم رأت ما كان تحت ذراع ويليامز.

فسألت بحدَّة: «ماذا تفعل بمعطفي؟»

«إذن هو معطفك؟ الذي في خزانة الزورق؟»

«بالطبع هو معطفي! كيف تجرؤ على كسر باب كابينتي! إنه مُغلَق دائمًا.»

«سوف نصلح القُفل، يا آنسة كيتس. في غضون ذلك، يؤسفني أن أخبرك أنه يجب عليَّ إلقاء القبض عليك بتهمة قتل كريستين كلاي داخل شاطئ جاب في ويستوفر صباح الخميس، الخامس عشر من هذا الشهر، وأحذرك من أن أي شيء تقولينه يمكن استخدامه دليلًا ضدك.»

تغيَّر وجهها من تعبيرها المعتاد عن الرضا إلى الغضب المتشنج الذي رآه عندما أساءت جودي سلرز إلى قدراتها. وقالت: «لا يمكنك إلقاء القبض عليَّ. إن طالع نجومي لم يخبرني بهذا. من يجب أن يعرف إن لم يكن أنا؟ النجوم ليس لديها أسرار لتُخفيها عني. لقد توقعت النجوم مصيرًا مجيدًا بالنسبة إليَّ. إنه أنت، أيها الأحمق المسكين المخطئ، الذي ستستمر في التعثر وارتكاب الأخطاء. إن علامتي هي الإنجاز. مهما حدث فسأحققه. إنه مكتوب هناك في السماء أنني سأحقق ذلك. إنه القدر. «البعض يولد عظيمًا» ... هذا صحيح والباقي أكاذيب. المرء إمَّا يولد عظيمًا أو لا يكون عظيمًا على الإطلاق. لقد ولدت لأحقق النجاح. لأصبح قائدة. لتتطلع إليَّ البشرية ...»

«آنسة كيتس، سأصبح ممتنًّا لو تجهزت للحضور معنا في الحال. أي ملابس تريدينها يمكن إرسالها بعدك.»

«ملابس؟ لماذا؟»

«لاستخدامها في السجن.»

«أنا لا أفهم. لا يمكنك وضعي في السجن. إنه ليس في طالع نجومي. لقد قالوا إن ما أريده بإمكاني فعله.»

«يمكن للجميع أن يفعلوا ما يريدون إذا أرادوا ذلك بشكلٍ كافٍ. لكن لا أحد يمكنه الإفلات من العقاب. هل ستستدعين خادمتك وتشرحين لها؟ ستحضر قبعتك إذا أردت ذلك.»

«لا أريدها. أنا لن أذهب معك. أنا ذاهبة إلى حفلة بعد ظهر اليوم في منزل مارتا. لقد حصلت على دور كريستين، كما تعلم. في الفيلم الجديد. هذه قراءة جيدة للطالع قد أديتها. لقد كُتب منذ زمن بعيد ما ينبغي علينا فعله. إنه يقع في مكانه، مثل الأشياء المسننة في صندوق الموسيقى، كما تعرف. أو ربما لا تعرف. هل أنت موسيقي؟ ومن منزل مارتا سأذهب إلى أوين هيوز. بعد ذلك سوف نرى. إذا عدت في المساء، يمكننا التحدث عن هذا الأمر. هل تعرف أوين؟ شخص ساحر. كانت له مكانته الموعودة أيضًا. لولا أوين، لَما خطَر الأمر ببالي أبدًا. كلا، لا أقصد ذلك. إن المشروعات العظيمة تنتمي إلى عقول

عظيمة. وسوف تحدث على أي حال. لكن العامل المحفز غالبًا ما يكون صغيرًا جدًّا. مثل الضوء الكهربائي ومفتاح الإضاءة. لقد استخدمت هذا التشبيه في محاضرة في اسكتلندا في الأسبوع قبل الماضي. وقد سارت الأمور فيها على نحوٍ رائع. تشبيه بارع، ألا تظن ذلك؟ هل تتناول بعض الشيري؟ أخشى أنني مقصرة للغاية. كل ما في الأمر أني مدركة لوجود هؤلاء الأشخاص في الطابَق العُلوي في انتظار أن يجريَ إخبارهم.»

«إخبارهم بماذا؟»

«عني، بالطبع. كلا، عن أنفسهم. هذا ما أَتَوا من أجله. أنا مرتبكة قليلًا. يريدون أن يعرفوا ما يخبِّئ لهم القدر. وأنا فقط من يمكنها أن تخبرهم. أنا فقط، ليديا كيتس ...»

«هل يمكنني استخدام هاتفك، يا آنسة كيتس؟»

«بالتأكيد. إنه في الخزانة في الرَّدْهة. واحد من النوع الملون الجديد. الهاتف وليس الخزانة. ماذا كنت أقول؟»

قال جرانت لويليامز: «اطلب منهم إرسال رينولدز إلى هنا على الفور.»

«هل هو الرسام؟ سأصبح سعيدةً بلقائه. لقد ولد ليصبح عظيمًا. ليس للأمر علاقة بالرسم، أو بخلط الألوان، كما تعلم. إنه بامتلاك الموهبة. وأن النجوم ترتب لحدوث الأمر. يجب أن تسمح لي بقراءة طالعك. أنت مولود في برج الأسد. ومواليد برج الأسد جذابون للغاية. وُلدوا ليكونوا ملوكًا. إنني أشعر بالأسف أحيانًا لأنني لم أولد في أغسطس. لكن مواليد برج الحمل قادة. وثرثارون، أيضًا، للأسف.» ضحكت بصوتٍ مرتفع للغاية. وتابعت: «أنا فعلًا أتحدث كثيرًا، هكذا يقولون لي. الثرثارة، هكذا كانوا يطلقون عليَّ عندما كنت طفلة ...»

الفصل السادس والعشرون

بعد نصف ساعة، أعطى الطبيب الشرعي رينولدز للمرأة التي تصرخ وتهذي، والتي كانت فيما سبَق تُعرف باسم ليديا كيتس، حقنة مورفين حتى يتمكَّنوا من نقلها إلى القسم بطريقة لائقة.

وقف جرانت وويليامز عند الباب، يشاهدان سيارة الإسعاف التي تختفي، ولم يجدوا أيَّ كلمات تقال.

قال جرانت بعد فترة طويلة، مستجمعًا تماسكه: «حسنًا، أظن أنه من الأفضل أن أغادر وأقابل تشينس.»

قال ويليامز بحقدٍ مفاجئ: «يجب إطلاق النار على الأشخاص الذين وضعوا قوانين هذا البلد.»

بدا جرانت مذهولًا. وقال: «هل تقصد، عقوبة الإعدام؟»

«كلا! ساعات إغلاق المتاجر.»

«أوه، فهمت. هناك قارورة في خزانتي. يمكنك أن تصب لنفسك مشروبًا.»

«شكرًا لك سيدي.» ثم وجَّه حديثه للخادمة الباكية في الخلفية. «لا تحزني، يا آنسة! إن الأمور من هذا القبيل ستظل تحدث.»

فقالت: «لقد كانت صاحبة عمل لطيفةً للغاية بالنسبة إليَّ. يؤلمني أن أراها هكذا.»

قال جرانت: «اعتني بهذا المعطف، يا ويليامز»، بينما كانا يسيران في الطريق المؤدي إلى السيارة التي أرسلت من أجلهما، وهو في غاية السعادة لمغادرة المنزل.

«أخبرني، يا سيدي، كيف اكتشفت أنها تلك المرأة من بين كل الناس؟»

أخرج جرانت الصفحات التي مزَّقها من المجلة.

«وجدت هذه في مجلة داخل صالون الحلاقة في فندق مارين. يمكنك قراءتها بنفسك.»

لقد حملت الصفحات مقالًا كتبته إحدى صحفيات ميدويست، كانت في نيويورك لقضاء إجازة. إن نيويورك مليئة بنجوم السينما الذين إمَّا هجروا دراستهم أو كانوا في طريقهم للعودة إليها، وفي نيويورك أيضًا توجد الآنسة ليديا كيتس. والشيء الذي أثار إعجاب الصحفية لم يكن مصافحة جريس مارفل، ولكن صدق نبوءات الآنسة كيتس. لقد تنبأت بثلاث نبوءات مذهلة. لقد قالت إنه في غضون ثلاثة أشهر سيتعرض لين دريك لحادث خطير؛ والجميع يعلمون أن هذا حدث بالفعل وأن لين دريك لا يزال طريحَ الفراش. وقالت إن ميلارد روبنسون سيخسر ثروة نتيجة حريق في غضون شهر؛ وكان الجميع يعلم كيف احترقت بكرات الفيلم الجديد الذي تكلَّف إنتاجه مليون دولار وتحولت إلى رماد. وتنبَّأ تصريحها الثالث بالموت غرقًا لنجمة من ممثلات الدرجة الأولى، وذكرت اسمها بالطبع، لكن الصحفية بطبيعة الحال لم تستطع الكشف عنها. «إذا تحققت هذه النبوءة الثالثة الخاضعة للظروف والقاطعة للغاية، فإن الجميع سيُقر بأن الآنسة كيتس تمتلك واحدة من أكثر المواهب الخارقة للطبيعة في العالم. وستحاصرها البشرية جمعاء. لكن لا تذهبي للسباحة مع الآنسة كيتس أيتها النجمة الشقراء الصغيرة! فقد يصبح الإغواء أكثر من اللازم بالنسبة إليها!»

قال ويليامز: «يا للعجب»، وظل صامتًا حتى أنزله جرانت في سكوتلاند يارد.

قال جرانت: «أخبر المأمور بأنني سأعود إلى الإدارة بمجرد أن أقابل اللورد إدوارد»، وأقلَّته السيارة إلى ريجنت بارك.

وأمام المدفأة الرخامية والبسط المصنوعة من جلد الغنم، انتظر جرانت نصف ساعة قبل وصول تشينس.

«كيف حالك أيها المفتش؟ سمعت من بينس أنك كنت تنتظر. آسف لتركك تنتظر لفترة أطول مما هو ضروري. أتمنى أنك تشرب الشاي؟ ولكن إذا لم ترغب فهناك ما يسميه عمي (المشروبات الروحية). كلمة ألطف بكثير من (الكحوليات)، ألا تظن ذلك؟ هل لديك أخبار؟»

«أجل، يا سيدي. أنا آسف للمجيء دون موعدٍ سابق بينما أنت عائد مباشرة من رحلة.»

«لا يمكن أن يكون الأمر أسوأ من محاضرة غرفة الاستقبال التي ألقتها عمتي الكبيرة بالأمس. لقد ذهبت فقط من أجل السيدة العجوز، لكنني وجدتها ترى أن من الأفضل أني لم أحضر. كان هذا سيصبح أكثر «ملائمة». لذا أخبرني بالأخبار السيئة.»

أخبره جرانت بما حدث، فاستمع باهتمام، وذهبت عنه لامبالاته الدفاعية الشديدة.

وسأل، عندما انتهى جرانت: «هل هي مجنونة؟»

«أجل. يعتقد رينولدز ذلك. قد تكون هستيريا، لكنه يعتقد أنه جنون. أوهام العظمة، كما تعلم.»

«بائسة مسكينة. لكن كيف عرفت أين كانت زوجتي؟»

«أخبرها أوين هيوز في رسالة من هوليوود. نسيَ أنه وعد ألا يُفشيَ سر استئجارها لكوخه. بل إنه ذكر أمر ذَهابها للسباحة في الصباح الباكر.»

«أمر بسيط للغاية. فهمت ... هل كانت خبيرةً بقيادة الزورق ذي المحرك، إذن؟»

«لقد نشأت عمليًّا على واحد منها، على ما يبدو. وكانت تستخدمه عبر النهر باستمرار. لم يكن أحد ليفكر في الشك برحلاتها النهرية. ربما تكون قد قامت بمثل هذه الرحلة الليلية عبر النهر أكثر من مرة قبل أن تُتاح لها الفرصة التي تبحث عنها. أمر غريب، لكن لا أحد يفكر أبدًا في النهر على أنه طريق سريع إلى أي مكان. لقد فكرنا في إمكانية وجود قارب ذي محرك، بطبيعة الحال، ولكن ليس قاربًا ذا محرك من لندن. لا يعني ذلك أنه كان من الممكن أن يساعدنا الأمر كثيرًا لو كنا فكرنا. إذ إن معطف الرجل الذي ارتدته قد ضلَّلنا للغاية. ترتدي الكثير من النساء معاطف المطر الخاصة بالرجال، أثناء ركوبهن على اليخوت؛ لكنني لا أعتقد أن ذلك كان سيخطر على بالي.»

سادت فترة صمت قصيرة.

كان كلا الرجلين يتخيل في ذهنه رحلة القارب عبر النهر الضبابي، إلى المصب المتعدد الأضواء، وعلى طول الساحل متعدد الأضواء. بلدة صغيرة تِلو الأخرى، من أضواء الميناء المتوهجة إلى أضواء الفيلات المتلألئة فوق المنحدرات، لا بدَّ أن كل ذلك قد أضاء طريقها عبر الرحلة. ولكن لاحقًا، لا بدَّ أن الظلام قد حل؛ ظلام دامس وصمت، بينما يهبط ضباب الصيف على الماء. في أي شيء كانت تفكر أثناء انتظارها؟ وحدها، ولديها وقت طويل للتفكير. وبدون نجوم تذكرها بعظمتها. أم كان جنونها في ذلك الحين واثقًا من عدم وجود شكوك فيها؟

وبعد ذلك ... تخيل كل رجل منهما ذلك أيضًا. المفاجأة. التحية الودية. قبعة كريس الخضراء تبرز بجانب الهيكل الرمادي للقارب ... القبعة التي لم يُعثر عليها مطلقًا. تميل المرأة للتحدث معها. وعندئذٍ ...

تذكر جرانت تلك الأظافر المكسورة على يدي كريستين. إذن، لم يقع الأمر بسهولة.

«هذا يُنهي القضية، يا سيدي، لكن هناك شيء آخر حقًّا جعلني آتي لمقابلتك. قضية مختلفة تمامًا.»

«أجل؟ ها قد جاء الشاي. لا داعيَ للانتظار، يا بينس. هل تود بعض السكر، أيها المفتش؟»

«أريد أن أعرف أين أخذت ريمنيك.»

توقف تشينس وهو يمسك بالسكر. بدا متفاجئًا ومندهشًا — وبطريقة ما — مُعجبًا.

«إنه مع أصدقاء هارمر، بالقرب من تنبريدج ويلز.»

«هل يمكنني الحصول على العنوان بدقة؟»

أعطاه تشينس العنوان، وأعطاه فنجان الشاي أيضًا. وسأل: «لماذا تريد ريمنيك؟»

«لأنه موجود في هذا البلد بدون جواز سفر ... والفضل لك!»

«كان بدون جواز سفر. أصدرت وزارة الخارجية البريطانية تصريح دخول له هذا الصباح. لقد تطلَّب الأمر الكثير من البلاغة — بريطانيا محبة العدالة، المدافعة عن المضطهدين، وطن الصالحين المشردين؛ كل هذه الأشياء — لكنها نجحت. لا يزال الرجال في وزارة الخارجية يشعرون بالفخر، هل تتخيل ذلك؟ لقد كانوا مثل مجموعة من الطواويس التي نفشت ريشها عندما انتهيت.»

نظر إلى وجه المفتش المستهجن. وقال: «لم أكن أعرف أن هذا الأمر البسيط يمثل مصدر قلق لك.»

صاح جرانت: «قلق! لقد كاد يُفسد كل شيء. أنت وهارمر كلاكما كذب بشأن ما فعلتماه في تلك الليلة ...» وجد أنه في موقف حساس، فكبح جماح نفسه.

لكن تشينس فهِم الأمر. وقال: «أنا آسف حقًّا، أيها المفتش. هل ستلقي القبض عليَّ؟ هل يمكن القبض على أحد بأثرٍ رجعي، إذا جاز التعبير؟»

«لا أظن ذلك. يجب أن أستفسر عن الأمر. سوف يسعدني ذلك كثيرًا.» واستعاد جرانت ثبات أعصابه.

«حسنًا. دعنا نؤجل القبض عليَّ. لكن أخبرني كيف اكتشفت الأمر؟ لقد ظننت أننا كنا بارعين للغاية.»

«ربما لم أكُن لأكتشف ذلك أبدًا لولا التحريات الجيدة التي أجراها ضابط شاب — ريميل — في دوفر.»

«يجب أن أقابل ريميل.»

«لقد اكتشف أنك وهارمر قد تقابلتما في تلك الليلة وكنت قلقًا بشأن الجمارك.»

«أجل. كان ريمنيك في خزانة في كابينتي. وكانت نصف ساعة مثيرة. لكن رجال الجمارك والميناء بشر في نهاية الأمر.»

فهِم جرانت هذا على أنه يعني أنهم أحرجوا تشينس، ولكنهم افتقروا إلى الشجاعة الكافية لتفتيش الزورق بالكامل. «عندها بدأت أشعر أنني إذا استطعت أن أتذكر شيئًا قلته أنت قبل ... أن تضللني بشأن وقت وصولك إلى دوفر، فسيصبح لدي مفتاح كل شيء. وتذكرته! لقد قلت إن أمل جاليريا الوحيد هو ريمنيك، وأن ريمينك سيظهر مرة أخرى عندما يصبح حزبه جاهزًا. لكن العقبة الكبيرة كانت في فَهْم العلاقة بينك وبين هارمر. كان الأمر بسيطًا جدًّا وواضحًا جدًّا لدرجة أني لم أستطع كشفه. لقد تبادلتما الإعجاب والتقدير فور أن عرفتك زوجتك به. يجب أن أقرَّ بأنه ضللني على نحوٍ رائع، ومثّل دور الناقم ... المنتمي للفئات المحرومة. كان لا بدَّ لي أن أفكر أكثر في إدراكي لـ...»

«إدراكك لماذا؟»

«لأنك شخص غير تقليدي.» وابتسم الرجلان. «بمجرد أن تلمست طريقي عبر هذه الصعوبة، كان الباقي سهلًا. لقد علم «الفرع الخاص» كل شيء عن اختفاء ريمينك، ورفضِ منحه جوازَ سفر، ورفضِ بريطانيا استقباله هنا. حتى إنهم كانوا يعرفون أنه من المفترض وجوده في إنجلترا، لكن لم يكن لديهم ما يؤكد ذلك. إذن، فقد عاد الزورق ذو المحرك إلى الشاطئ مرة أخرى؟»

«هل تقصد، في تلك الليلة؟ أجل. قادنا هارمر بالسيارة إلى منزل صديقه. لديه شجاعة؛ وكان خائفًا، على ما أظن، لكنه واصل المهمة. لقد علمت أن تيسدول قد ظهر»، قال بينما ينهض جرانت لينصرف. وتابع: «لا بدَّ أن هذا قد مثَّل مصدر ارتياح كبير لك. هل هو مريض؟»

«كلا، إنه يعاني من البرد، وهو مُجهَد بالطبع. لكني آمُل أن يصبح بخير.»

«في طبعة منتصف النهار التي اشتريتها في يورك، قرأت وصفًا مروعًا لمعاناته. ولمعرفتي بالصحافة، اعتقدت بثقة أنه لم تكن فيه كلمة واحدة صحيحة.»

«ولا كلمة واحدة. كان هذا جامي هوبكينز فقط.»

«من هو جامي هوبكينز؟»

«من هو ...» خذلت الكلمات المفتش. ونظر بحسد إلى تشينس. وقال: «الآن عرفت لماذا يغادر الرجال إلى الأماكن النائية في كوكب الأرض!»

الفصل السابع والعشرون

غادر هربرت جوتوبيد إنجلترا بعد نحو شهرٍ في طريقه ليشرح لرجال الشرطة الفضوليين في ناشفيل، بولاية تينيسي، ما فعلَه بمبلغ ألفي دولار الذي منحته له السيدة العجوز كينسلي ليبنيَ به كنيسة.

وفي اليوم الذي أبحرَ فيه — على الرغم من عدم معرفة أيٍّ من الطرفين بأنشطة الآخر — أقامت إريكا حفل عشاء في ستاينس «للتخلص من أثر آخر حفل عشاء دعوتك إليه» مثلما قالت لجرانت بصراحة، عندما دعته. كانت الإضافة الوحيدة للمدعوين الذين حضروا الحفل السابق هي روبين تيسدول، ووجد جرانت نفسه مرتاحًا للغاية عندما اكتشف أنها وضعت مسحوق تجميل على أنفها الصغير بالطريقة العرضية نفسها، وأنها لا تزال ترتدي الفستان الطفولي نفسه الذي كانت ترتديه في الحفل السابق. كان يخشى أن يولِّد تواصُلها مع شخص في وسامة روبين تيسدول، تعرض لما تعرض له من قسوة وظلم، بداخلها وعيًا ذاتيًّا سيصبح نهاية طفولتها. لكن بدا الأمر كما لو أنه لا شيء يمكن أن يجعل إريكا تشعر بالوعي الذاتي. حيث عاملت تيسدول بنفس الواقعية الجادَّة التي استخدمتها عندما أخبرته أن ياقة قميصه ضيقة للغاية. رأى جرانت عينَي السير جورج تنتقلان من أحدهما للآخر في بهجة. والتقت نظراتهما، فرفع كلاهما كأسيهما بدافع مشترك في إيماءة صغيرة للتهنئة المتبادلة.

سألت إريكا: «هل تشربان نخبًا؟ سأقترح واحدًا. نخب نجاح روبين في كاليفورنيا!»

فشربوا النخب وكلهم أمل في أن تتحقق هذه الأمنية.

قالت إريكا: «إذا لم تعجبك المزرعة، فانتظر حتى أبلغ الحادية والعشرين من عمري وسوف أشتريها منك.»

سأل بنبرة متحمسة: «هل يعجبك هذا النوع من الحياة؟»

قالت: «بالطبع يعجبني.» ثم التفتت لجرانت، وهي على وشك قول شيءٍ ما.

قال روبين في إصرار: «لا بدَّ أنكِ ستأتين لزيارتها قبل أن تبلغي الحادية والعشرين بوقتٍ طويل.»

قالت بإخلاص لكن بلا مبالاة: «أجل، سيكون هذا لطيفًا.» ثم أضافت: «يا سيد جرانت، (لسبب ما هي لم تنادِه أبدًا بالمفتش) إذا حصلت بنفسي على تلك التذاكر من السيد ميلز فهل ستأتي معي إلى السيرك في الكريسماس؟»

تورَّدت وجنتاها، كما لو أنها طلبت طلبًا جريئًا. وهذه ظاهرة بالنسبة إلى إريكا، لأنها تتمتع بالجرأة بفطرتها لكنها لا تعلم ذلك.

قال جرانت: «بالتأكيد سأفعل، بكل سرور.»

قالت: «حسنًا. هذا وعد.» ثم رفعت كأسها. وأضافت: «نخب أوليمبيا، في الكريسماس!»

فقال جرانت: «نخب أوليمبيا، في الكريسماس!»


هنداوي